T
186 A

نمـــو طبقة الكتـــاب وتطور رسوم الكتابة الديوانيـــة حتى أوائل القـــرن الرابع الهجـــري

بقلـــم : روبدة رفقـــه

رسالـــة للحصول على شهـــادة الماجستيـــر
فـــي الآداب

المادة : أدب عربـــي

تشريـــن ١٩٨١

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis title:

نمو طبقة الكتاب وتطوّر رسوم الكتابة الديوانية حتى اوائل القرن الرابع الهجـــري

The Growth of the Class of the State's Scribes and the Development of the Rules concerning Official Writing until the Beginning of the Fouth Century A.H.

By

Ruwaydah Rifkah

Dr. Wadad Kadi _____ Advisor

Dr. Ihsan Abbas _____ Member

Dr. Muhammad Najm _____ Member

Date: October 1981.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Release Form

I, Ruwaydah Rifka

_____ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

_____ do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

Signature: R. Rifka

Date: 26/10/51

نمو طبقة الكتاب وتطور رسوم الكتابة الديوانية حتى اوائل القرن الرابع الهجرى.

نظرة في المصادر والمراجع

المراجع القديمة

تتناول هذه الدراسة التنظيم الديواني في العصرين الأموي والعباسي حتى مطلع القرن الرابع وحال الموظفين القائمين على هذا التنظيم اي كتبة الدواوين. وقد اعتمدت فيها على مصادر متعددة من اهمها : كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري وان كان كل ما وصلنا منه يتوقف عند خلافة المأمون (٢١٨) مع ان الجهشياري ادرك خلافة المقتدر بالله (٢٩٦ – ٣١٨). وقد رجعت الى نقول من كتاب الجهشياري جمعها الاستاذ ميخائيل عواد من المصادر القديمة واصدرها بعنوان :" نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب".

ويتمتع كتاب الجهشياري بقيمة بالغة تميزه عن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع ، ذلك ان المؤلف لا يسرد فيه الاحداث سردا اجماليا ، بل يبرز التفاصيل الخاصة بأفراد كان لهم دور تاريخي ، وبابتعاده عن السرد الجاف يدخل في خصوصيات اولئك الاشخاص موردا ما تتميز به سيرهم من أمور فريدة ، فكأنه معني بالتقاط صور من حياتهم اليومية ، وكيفية تصرفهم بعضهم ازاء بعض، اى ان تاريخ الجهشياري يدور حول " الشخصية التاريخية" اكثر مما يدور حول " الحدث التاريخي" ولكن هذا لا يعني ان الحدث التاريخي مهمل لدى الجهشياري وانما هو مصبوغ بصبغة شخصية.

ويحوي كتاب الجهشياري تفاصيل مهمة حول نشأة الدواوين الاسلامية والكتّاب الذين احتلوا مناصب ادارية هامة في الفترة التي يؤرخها وفيه نصوص من رسائل هامة حول الكتّاب انفسهم وحول فن الكتابة كرسالة عبد الحميد الكاتب ، الى الكتّاب ، وهي مرجع هام في تاريخ الكتابة الديوانية وفي تكوين الكاتب ثقافيا وسلوكيا في بداية تكوّن طبقة الكتّاب، اواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي. كذلك يعطي الجهشياري لائحة كاملة بأسماء القائمين على الاعمال الادارية مع الاشارة الى الدواوين التي عملوا فيها ، ويروى علاقة العامل بالكاتب او الوزير ، وعلاقة كل منهما بصاحب السلطان ، قاصرا اهتمامه في

معظم الاحيان على الادارة المركزية والاحداث التي تدور في مركز الخلافة وفي دار الخلافة على وجه الخصوص وقد نقع احيانا في كتاب الجهشياري على قصص نشعر انها من نسج الخيال لكن هذه القصص بالذات لها دلالتها على تصور الجهشياري للتاريخ ونظرته العامة الى الامور.

اما المرجع الثاني الهام فهو كتاب الصابيء تحفة الامراء في تاريخ الوزراء. وهو يؤرخ للفترة الممتدة ما بين المعتضد وخلافة المقتدر (٢٧٩ – ٣١٩) مع التأكيد على اهم الوزارات التي قامت في خلافة المقتدر اى وزارات علي بن عيسى بن داود بن الجراح وابي الحسن بن الفرات ومحمد الخاقاني وغيرهم. وهنالك جزء مفقود من الكتاب، ولذلك فهو ينتهي بصورة مفاجئة في خلافة المقتدر لينتقل الى الحديث عن العصر البويهي. وهذا يشكل القسم الاخير من تاريخ الصابيء.

وكتاب الصابيء غني بالمعلومات التاريخية ولا سيما بالنسبة للاحداث التي اعترضت خلافة المقتدر، مثل تنامي نفوذ القادة العسكريين داخليا وتعاظم خطر القرامطة على السلطة المركزية. وفيه ايضا تفصيلات حول علو شأن الوزارة في الفترة المذكورة واوضاع الدواوين والوزراء والكتّاب، كما ان فيه وصفا للمراتب التي كانوا عليها والمرتبات التي كانوا يتقاضونها والعلاقات التي اقاموها مع صاحب السلطان والمشكلات الادارية التي واجهها الوزراء بالذات فيما يتعلق بتأمين الضريبة واقامة الرقابة على عمال النواحي والحؤول دون الاختلاس ثم محاربة الرشوة في الادارة المركزية وتأمين ارزاق الكتّاب. ويتتبع الصابيء المشكلات الادارية السياسية التي كانت وراء نكسة خطة الوزارة، ويروى بدقة كيف نكب الوزراء وكيف حوكموا لتسترد الاموال التي في حوزتهم، وكيف كانوا في معظم الاحيان تحت رحمة اعدائهم اصحاب النفوذ العسكرى في دار الخلافة، وذلك ما يميز كتاب الصابيء عن كتاب الجهشياري. ولكن اسلوب الصابيء ليس في خفة اسلوب الجهشياري وان كان شبيها به من حيث اعطائه لشخصية الوزراء والكتّاب والخلفاء بعدا فرديا مميّزا.

وهنالك مصادر اخرى ذات اهمية بالغة في مقدمتها كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر (٣٣٧) . ويحتوى هذا الكتاب ـ حسب قول المستشرق كلود كاهن ـ معلومات اساسية في الموضوع ولكن لم ينشر منه سوى المنزلة السادسة تحقيق المستشرق الهولندى دى خويه ونشره مع كتاب المسالك والممالك "لابن خرداذبه" . كذلك نشر بن شمس المنزلة السابعة من هذا الكتاب وترجم النص الى الانجليزية (ليدن١٩٦٥) وحقق الدكتور احمد مكي(١٩٥١) المنزلة الخامسة ، لكنه لم ينشرها ولو توفر هذا الكتاب كاملا بين ايدينا لسد ـ فيما اقدر ـ كثيرا من الفجوات الموجودة في هذه الدراسة .

هذا بالنسبة للكتب التاريخية التي تناولت موضوع التنظيم الديواني. اما بالنسبة للكتب التي تتعلق بكاتب الديوان فنذكر من بينها رسالة الجاحظ في ذم اخلاق الكتّاب وفيها معلومات عن طبقة الكتّاب ومراتبهم وارزاقهم ، والجزء الاهم فيها يدور حول نفسية الكتّاب وحبهم للكسب وطمعهم في الربح وتحاسدهم ومحاولتهم الاساءة الى نظرائهم. و يطرح الجاحظ ايضا في رسالته موضوع "ثقافة" الكاتب وانكبابه على الكتب المترجمة عن الفارسية واهماله القرآن والعلوم الدينية. وتعتبر هذه الرسالة فريدة من نوعها من بين المصادر التي تناولت موضوع كاتب الديوان، اذ هي لا تعالج هذا الموضوع تاريخيا لانها تعبير عن رأى الجاحظ الشخصي ، ولكن فيها في الوقت نفسه معلومات تاريخية افدت منها في هذه الدراسة.

ومن الكتب التي تدور حول اصول صناعة الكتابة كتاب الكتّاب وصفة الدواة والقلم للبغدادى (٢٥٥) والكتاب ليس كاملا بين ايدينا وقد حقق دومينيك سورديل جزءا منه ، وهو اقدم مرجع نملكه حول اصول الصناعة وطريقة الكتابة واصول الخط والتحرير واختيار القلم والمحو والتطيين والتذهيب وغيرها من الامور المتعلقة بالكتابة. ويتضمن الكتاب لائحة بأسماء الكاتبات الجوارى لا نقع عليها في مرجع آخر .

وتعد الرسالة العذراء التي تنسب لابن المدبر الكاتب (٢٧٩) شبيهة بكتاب البغدادي فهي ـ على قصرها ـ غنية بالمعلومات المتعلقة بصناعة الكتابة وسلوك الكاتب ، مما يتعلق بأعتنائه بمظهره الخارجي والتزامه بأصول اللياقة. وفي الرسالة قول للجاحظ يمدح فيه الكتّاب يناقض ما ورد في الرسالة التي خصصها لذمهم. وفي الرسالة ايضا نماذج من بلاغة الكتّاب ورسائل منسوبة اليهم.

اما كتاب الصولي أدب الكتّاب. ففيه معلومات قيمة وتعريف دقيق لادوات الكتابة وطريقة استعمالها. ولكن هذه المعلومات منثورة دون ترتيب وممزوجة بالكثير من القصص ومن الشعر الذى رواه الصولي مما يضعف قيمة الكتاب احيانا.

وقد افدت في هذا البحث من مقدمة كتاب الاقتضاب في شرح ادب الكتّاب للبطليوسي (٤٩٤) حيث عدّد المؤلف مراتب الكتاب حسب الاختصاص ، ولعله اكمل ما وصلنا في شرح مراتب الكتّاب على انواعها.

المراجع الحديثة

اهم هذه المراجع كتاب المستشرق دومينيك سورديل Le Vizirat Abbasside وهو يقع في جزئين ، ويدور حول "الوزارة" وتطورها منذ نشأتها حتى مطلع القرن الرابع الهجرى اى حلول خطة امرة الامراء مع قدوم البويهيين. وفي الكتاب معلومات وفيرة استقاها سورديل من المصادر القديمة وتتناول التأريخ للوزارات المتتالية في الفترة المذكورة ، ومن تولوها ، وبما تميزت فترات وزاراتهم ، وما هي السلطات التي تمتعوا بها او التي حرموا منها ، مع ذكراهم الانجازات التي حققوها في الحقل الادارى . وفي آخر الكتاب لائحة كاملة بأسماء الوزراء واصحاب الدواوين الذين تولوا رئاستها منذ العصر الاموى حتى مطلع القرن الرابع. واذا كان من مأخذ على هذا الكتاب فأنه يصيب طريقة

معالجته لمسألة الوزارة على مر العصور التاريخية ، وهذا امر سوف افصل فيه القول لدى الكلام حول "المرتبة الثانية" .

واضيف الى كتاب سورديل اطروحة فرنسوا زبال المترجمة الى العربية تحت عنوان تكوّن الكتاب العربي. وتعالج الاطروحة موضوع نشأة الكتب العربية الاولى ، ويدور القسم الاول منها حول نشأة السلطة الاسلامية والادارة المركزية مع وصف لطبيعة السلطة الاسلامية العربية. وفي الكتاب اشارة الى الكتّاب الديوانيين وتحليل لدورهم في الفترة الانتقالية ما بين السيطرة الفارسية والاسلامية.

أخيرا أشير الىكتاب كلود كاهن Islam I وهو يؤرخ للفترة ما بين الجاهلية والسيطرة العثمانية انما بشكل مقتضب. ويتميز الكتاب بأبراز اهم النقاط المتعلقة بالنظام الادارى الاقتصادى الضرائبي ، وقد عولت عليه في تفسير بعض "الانماط" الاقتصادية التي كانت سائدة ، لاسيما بالنسبة لتوزيع الضرائب واصول جبايتها ودور السلطة المركزية في ذلك كله. وفي الكتاب فصل عن الكتّاب الديوانيين ، مع تحليل للفرق بين السلطة الادارية المتمثلة بهم والسلطة الدينية المتمثلة بالقضاة.

هذه هي اهم الكتب التي عولت عليها وأرجو ان اكون احسنت النظر فيها والأفادة منها .

الفصـــــل الأول

==========

تكون الجهاز الادارى في الدولة الاسلامية حتى نهاية العصـــــر الأمـــــــــــوى

I - مقدمة

الكتابة الديوانية هي الكتابة التي نشأت مع ظهور التنظيم الاداري المتمثل بالديوان وقد بدأ في خلافة عمر بن الخطاب . وتستخدم الكتابة في اطار الدواوين اداة تفي بأغراض ادارية اقتصادية اجتماعية سياسية دولية ، ويتم بفضلها تنظيم الانتاج والاستهلاك ، وتسيير امور الدولة ، وترتيب طبقات الناس وتمييز الفئات والمجموعات، بالاضافة الى تأمين المراسلات الدبلوماسية بين البلدان.

ولقد سبقت الكتابة بصفتها اداة لتنظيم المجتمع ديوان عمر ،اذ نراها ترقى الى العصر النبوي، وتتمثل بالكتابة في الحقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وتتوزع الكتابة في العصر النبوي على ثلاثة حقول: حقل الكتابة الى الملوك، حقل كتابة المغانم ،"حقل الكتابة "بين القوم في قبائلهم ومياههم" [1]، وبمعنى آخر: حقل العلاقات الدبلوماسية وحقل تسجيل" الانتاج" ، وحقل تسجيل اسماء القبائل والحكم بما يقع عليها او يصير لها. اذن نحن نقع في العصر النبوي على محاولة اولى لتنظيم المجتمع ، وان كان ذلك قد تم دون توفر ديوان معين اونظام اداري محدد. ولقد كان الكتّاب آنذاك هم المكلفين القيام بالعمليات الكتابية اذ يحدثنا الجهشياري ان معيقيب بن ابي فاطمة كان يكتب المغانم[2]. وكانت مسألة توزيع المغانم وجباية الزكاة وتوزيعها تتطلب ولا بد القيام بعمليات كتابية يتم بموجبها تحديد المجموعات واقامة لوائح بأسماء الاشخاص والقبائل المختلفة ، وذلك كله يشير الى ان ديوان عمر لم ينشأ من دون اى ممهدات له ، بل انه يمثل توجيها للكتابة بأتجاه الانجاز الاداري، وذلك امر اصبح تحقيقه ملحا مع الفتوحات[3].

---

[1] الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب(تحقيق مصطفى السقّا ، ابراهيم الايباري، عبد الحفيظ شلبي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ،١٩٣٨) ٠١٢

[2] انظر المصدر السابق : ١٢ .

[3] يشير الجهشياري (المصدر السابق: ٢٨-٢٩) الى وعي العرب ضرورة الكتابة لذلك روى عن بني العنبر تفضيلهم الكاتب على الأمي ، والمهاجر على الأعرابي وراكب الراحلة على راكب الحمار.

II - نشأة الادارة الاسلامية

استطاع عمر ان يؤسس ادارة فعلية منظمة عندما أنشأ ديوان الجند. ويبدو ان عمر قرر تأسيس هذا الديوان، بعد ان كان قد رفض اقتراحا من هذا النوع واعتبره "فتنة" من قبل[1]. ولا شك ان عمر وعى امرا هاما، وهو ان تأسيس اركان الدولة لا يكون الا بتوفير ديوان تعتمد عليه في ضبط نفقاتها والمستفيدين منها. ويذكر العسكرى ان عمر أول من أنشأ ديوان بيت المال مما يشير الى رغبة الخليفة بالاحتفاظ بمبلغ من المال يكون بتصرف السلطة[2].

وديوان الجند يدخل في اطار النظم الاقتصادية التي تبنتها السلطة منذ ايام عمر، وهي تقضي بتوزيع المغانم على الفاتحين، من دون تقسيم الارض عليهم. وان ديوان عمر لهو خطوة اخرى نحو التمييز بين الفيء والغنيمة، اذ يصبح الفيء ملكا للدولة، والغنيمة خاصة بالفاتحين. لكن ديوان عمر لم يغير شيئا كثيرا

---

[1] يقول ابن الاثير، في كتاب الكامل (تحقيق تورنبرغ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٥) ٢: ٥٠٤: "قال له (اى لعمر بن الخطاب) قائل عند فرض العطاء: يا امير المؤمنين، لو شركت في بيوت الاموال عدة لكون ان كان، فقال: كلمة القاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرّها وهي فتنة لمن بعدى"، ويروى الطبرى، في تاريخ الرسل والملوك، (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨) ٤: ٢٠٩ كيف اقترح علي بن ابي طالب على عمر الاحتفاظ بمبلغ من الاموال المتحصلة دون توزيعها، تقول الرواية: "ان عمر رضي الله عنه استشار المسلمين في تدوين الدواوين، فقال له علي بن ابي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال، فلا تمسك منه شيئا." والمال هنا لا يعني السيولة بل ما يقتني اجمالا ويدخل في ذلك المغانم.

[2] انظر العسكرى، كتاب الاوائل (تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، ١٩٦٦) ١٢٣.

من حيث مبدأ/مداخيل الدولة على الفاتحين[١] ، بمعنى ان السلطة لم تبدأ في زمانه بأحتكار الاموال لصالحها. ومن المهمات التي لا بد ان ديوان عمر ادى اليها تقدير ميزانية عامة تضبط الواردات والنفقات وتقدر بموجبها مرتبات الجند وتقام لوائح باسماء هؤلاء حسب انتمائهم القبلي وسابقتهم في الاسلام[٢]. وقد كان الديوان متوفرا في الاجناد[٣] وفي الثغور[٤] ، ويسمى الموظف الاداري القيم عليه العريف. والعريف كاتب، بمعنى انه كان يتولى تقدير الاعطيات وتوزيعها ، الا انه كان مكلفا بمهمة اخرى وهي مراقبة المستفيدين من الاعطيات عن كثب[٥]. ولقد استمر ديوان الجند على نمطه الاول الذي رسمه عمر حتى خلافة

---

[١] يقول ابو يوسف في كتاب الخراج (تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٣٩٦هـ) ٢٥-٢٦ : "حدثني بعض مشايخنا... ان عمر رضي الله عنه كتب الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم ، وما افاء الله عليهم. فأذا اتاك كتابي هذا فأنظر ما اجلب الناس اليك به الى العسكر من كراع ومال ، فأقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين ، فأنك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء". وانظر ايضا حول الموضوع

E. Tyan, Institutions du droit public musulman (Harissa, imprimerie de St. Paul, 1954-56) p. 219.

[٢] انظر مقالة عبد العزيز الدوري EI², "Diwān", vol. II, p. 333.

[٣] الاجناد : معسكرات شبه مستقلة من حيث جباية الضريبة ، تنفق منها على المقاتلة ويذهب الباقي الى بيت المال (انظر البلاذري، فتوح البلدان تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٥٧: ١٥٦).

[٤] انظر الماوردي، الاحكام السلطانية (مطبعة الوطن ، مصر ١٢٩٨هـ) ١٩٨ .

[٥] انظر H. Lammens, Etudes sur le siècle des Ommayyades (Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1930) p.127-128 .

عبد الملك بن مـــــــروان[١].

ولقد قام عمر بأنجازات اخرى في الحقل الاداري، اهمها تبني مبدأ التأريخ في المراسلات، اذ يقول الجهشياري:"كان عمر اول من قرر التأريخ من الهجرة لأن ابا موسى (الاشعري) كتب اليه :انه يأتينا كتب ليس لها تأريخ"[٢].

كان الجهاز الاداري اذن يتكون من ديوانين اساسيين: ديوان الخراج وديوان الرسائل[٣]. وديوان الخراج هو الجهاز المكلف بجباية ضريبة الارض، ذلك ان نمط الانتاج الزراعي اصبح هو النمط السائد، بمعنى ان محصول الضريبة لم يعد يوزع بقسمه الاكبر على الفاتحين، بل تحتفظ الدولة به لنفسها في بيت المال.

ولقد ادى اعتماد نظام الضريبة على الزرع الى اضطرار السلطة الى توفير القوانين والاحكام الخاصة بجباية الضريبة، وبما ان الفاتحين من المسلمين لم يكونوا يعرفون النظم الاجتماعية الادارية المعقدة، فقد اتجهت سلطتهم الجديدة نحو الاستعانة بالقوانين التي كان معمولا بها في الامصار المفتوحة[٤]. وان الاحتفاظ بهذه القـــوانين لهـــو احدى السمات المميزة للفتـــح الاســلامـي، ذلـــك الفتـــح الذى وصـــل الـى بـــلاد علـــى مســـتوى عـــال مـــن التعـــقيـــد

---

[١] يقول الجهشياري(الوزراء :٣٨):"ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم، وهذا الذى كان قد رسمه وآخر لوجوه الاموال بالفارسية، وكان بالشام مثل ذلك، احدهمـــا بالرومية والاخر بالعربية فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان".

[٢] المصـــدر الســـابق : ٢٠ .

[٣] المصدر الســـــابق : ٢٤ و EI^2, "Diwān", vol. II, p. 333 .

[٤] يقول الماوردى(احكام :١٦٧)"وكان السوادفي أول ايام الفرس جاريا على المقاسمة الى ان مسحه ووضع الخراج عليه قباد بن فيروز.... فكان الفرس على هذا في بقية ايامهم، وجاء الاسلام فأقرّه عمر بـــن الخطاب على المساحة والخراج ...".

الحضاري والاداري معا. وتؤدي هجمة قبائل من البدو على هذا النوع من المجتمعات في كثير من الاحوال الى خراب هذه المجتمعات ويكون النهب اوالغنيمة هو الغرض الاول من الغزو، لكن العاملين اللذين حالا دون وقوع ذلك في حال الفتوحات الاسلامية هما: قوة العقيدة الدينية من ناحية، واستمرار الجهاز الاداري في العمل بصورة شبه طبيعية في الامصار المفتوحة من ناحية اخرى[1]. و قد ادت رغبة الفاتحين في الافادة من النظام الضريبي القائم في الامصار الى اعطاء ولاتها المختلفين مسؤوليات ادارية تضاف الى مسؤولياتهم العسكرية ضمانا لاستمرار عمل الجهاز الاداري. من هنا كان الوالي يسهر على جباية الخراج، وان استمرت الشعوب المفتوحة تؤمن له — ومن ثمة للدولة — طاقم الجهاز الاداري، حتى لا يخضع هذا الجهاز لاى تغيير من شأنه ان يعرقل مسيرة الامور.

ولقد كان هناك ديوان للخراج في جميع ولايات الدولة الاسلامية، نذكر منها: ديوان الخراج بالشام، وديوان الخراج بالعراق وديوان الخراج بحمص، وديوان الخراج بخراسان، وفيما بعد ديوان الخراج بفلسطين[2]. وكانت مهمة هذا الديوان تحديد

---

[1] انظر X. de Planhol, Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam (Paris, Flammarion, 1968) p. 29.

[2] انظر الجهشياري، الوزراء : ٢٤ — ٢٥ — ٢٧ .

ضريبة الخراج ، وكانت الحسابات فيه تتم بالارقام الرومية في سوريا وفلسطين ، وبالارقام الفهلوية في العراق وفارس، وبالارقام القبطية في مصر[1] . وقد يشير هذا التقسيم الى ان الديوان كان يخضع لاحكام مختلفة ، وان الدولة على الارجح لم تعمل في البداية على صهر هذه الاحكام في بوتقة واحدة .

اما الديوان الآخر اى ديوان الرسائل — فقد الحق به معاوية ديوان الخاتم[2] . وكانت لغة ديوان الرسائل هي العربية ، ومهمته ربط الاطراف بالمركز ، وكان متوفرا في جميع الولايات . وكان ديوان البريد الذى احدثه معاوية ايضا[3] يؤمن نقل الرسائل والمعلومات من الاطراف الى المركز ، ومن المركز الى الاطراف .

أ — كتابة الرسائل

وديوان الرسائل هو جهاز تنفيذى بحت، ينفذ قرارات الخليفة اوالوالي ويصرّف الشؤون الادارية المتعلقة بمراسلة الاطراف — أو المركز — وانفاذ الأوامر. وفي هذا الديوان نشأت محاولات الكتابة النثرية باللغة العربية ، ومن هنا اهميته من بعد ، اذ ان في اطاره برزت اهمية حسن الصياغة وجمال الاسلوب في النثر العربي ، وهذا ما دعا الى اطلاق الاسم الآخر عليه من بعد وهو " ديوان الانشاء". غير ان هذا التطور لم يتم دفعة واحدة ، بل تدريجيا.

---

[1] يرى لامنس ان العرب حكموا مصر لكنهم لم يتولوا تسيير شؤونها الادارية في القرن الاول للهجرة . ولم يتغير هذا الواقع تغيرا جذريا فيما بعد، ولكن السلطة ظلت تحاول اقامة رقابة مستمرة على جهاز مصر الادارى (انظر H. Lammens, Ommayyades, p. 309 نقلا عن C. Becker, Papyri Schott-Reinhardt, Heidelberg, 1906).

[2] الجهشياري، الوزراء : ٢٠ .

[3] يقول ابن الاثير (الكامل٤ : ١٣) ان"... معاوية ... أول من وضع البريد".

وفي العصر الراشدى كان كاتب الرسائل محدود الصلاحيات، اعني بذلك انه لم يكن مستقلا عن الخليفة او الوالي ، بل كان مرتبطا بالواحد منهما او بالآخر ارتباطا وثيقا ، يمكن ان يطلق عليه - بشيء من التجوز - تعبير " التبعية " ، وتتجلى هذه "التبعية" في علاقة الكاتب بالمادة التي يتعامل معها من جهة ، وبصاحبه من جهة اخرى. فالكاتب كان لا يستطيع ان يتحكم بمضمون الرسالة التي يكتبها ولا بشكلها ، وهو يكتفي بتسجيل ما يملى عليه حرفيا ، وتلك ظاهرة اشار الجهشيارى الى وجودها في قوله : " كان عمر (بن الخطاب) يملي على كاتب بين يديه ، فكتب الكاتب غير ما قال عمر ، فقال زياد (بن ابي سفيان) : يا امير المؤمنين ، قد كتب غير ما قلت، فنظر في الكتاب فكان كما قال زياد ، فقال عمر انّى علمت هذا؟ قال : رأيت رجع فيك وخطه ، فرأيت ما احارت كفه غير ما رجعت به شفتيك"[1]. وهذه الرواية قد تكون غير موثّقة تاريخيا ، الا ان دلالتها هامة ، اذ هي تشير الى ان الكاتب لا يمكن ان يقوم بتحوير المادة التي تملى عليه .فالكاتب اذن لا يتصرف بالمادة المكتوبة ، وهو يخاف من حدوث اى مبادرة تشوّه النص الأصلي المملى عليه .

ان الملكية المطلقة للرسالة اذن تعود للمملي لا للكاتب وجلّ ما يقوم به الكاتب هو مضاعفة مقال المملي بآلة مختلفة هي آلة الكتابة بحيث يكون المكتوب صورة من المنطوق ،

---

[1] الجهشيارى ، الوزراء : ١٩ .

لا اثر فيه لصياغة مستحدثة ، ومن هنا التأكيد على علاقة الاملاء التي تربط الخليفة او الوالي بالكاتب .

غير ان الكاتب كان مقيدا بشكل آخر ، اذ لم يكن يحق له ، في العادة انفاذ الرسائل وتلقيها . فهو فيما يبدو — في العصر الاموي — لا يتسلم الرسائل ولا يطلع على مضمونها ومن هنا جاء مثل قبيصة بن ذؤيب — كاتب عبد الملك — استثناء على القاعدة اذ يروى الجهشياري انه بلغ من لطافة محله (اى قبيصة) منه (اى من عبد الملك) ان كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك[1] . فالأرجح اذن ان الخليفة هو الذى يتسلم الرسائل عادة ويقرأها ، فاذا شاء كلف الكاتب بفتحها وتلاوتها . وقد حدث انه عندما ورد كتاب وفاة عبد العزيز اخي عبد الملك 'ابن مروان لعبد الملك "قرأ قبيصة الكتاب قبل عبد الملك على عادته في امثاله وعزاه بأخيه عبد العزيز"[2] ملخصا بذلك مضمون الرسالة فارضا نفسه حلقة وصل بينها وبين الخليفة ، الا ان فعل قبيصة ومكانته بدعة في الكتابة الرسائلية .

ان علاقة الكاتب بمضمون الرسالة من جهة ، وبصاحبه من جهة اخرى ، هي التي حددت منزلة كاتب الرسائل وجعلتها دون مرتبة كاتب الخراج ، اذ ان كاتب الخراج كان يتمتع بمنزلة مرموقة وصلاحيات اوسع . غير ان مثل قبيصة بن ذؤيب قد يدلنا على بعض المحاولات التي كان الكاتب يقوم بها لتوسيع صلاحياته ، وتلك محاولات سوف تؤدى الى توصل الكتّاب مع الزمن — كما سوف نرى من بعد — الى صياغة المقال المكتوب، فيعتمد الخليفة على كاتبه ويكتفي باعلامه بالمضمون العام للرسالة ، على ان هذه قد تكون قضية معقدة ، العوامل المؤثرة فيها متعددة ، ولكنها دون شك حدثت في العصر الاموى، وأول اشارة اليها نجدها في كتاب الجهشيارى الذى قال ان الصباح بن المثنى ، وقد كتب مرة عن عمر ابن عبد العزيز الى عياض بن المثنى ، قال في آخر الكتاب :"فكتب الصباح بن المثنى يوم الخميس

---

[1] المصدر السابق : ٣٤ .

[2] المصدر السابق : ٣٤ .

لاربع خلون من ذى الحجة سنة تسع وتسعين"[1]. واذا كانت هذه الرواية غير قاطعة الدلالة ، فأن في كتاب الجهشيارى رواية اخرى اشدّ بيانا منها لاستقلال الكاتب في صياغة الرسالة الصادرة عن الخليفة ، وهي ترقى الى النصف الثاني من الخلافة الاموية وقد حدثت مع سالم الكاتب، كاتب هشام بن عبد الملك اذ قال له هشام : "اكتب الى يوسف بن عمر - بشيء امره به - واعرض الكتاب عليّ . فمضى سالم ليكتب ما امربه ... وحضر سالم بالكتاب الذى كتبه ، فعرضه عليه . (اى على هشام)"[2]. هناك رواية ثالثة ترقى الى آخر العصر الاموى حدثت مع عبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني امية ، فقد قال له الخليفة مروان : "اكتب اليه (اى لعامل له اهداه غلاما اسود) فأذمم فعله "[3] ملخصا بذلك مضمون الرسالة ، وتاركا للكاتب حرية انشاء الشكل المناسب ولا يذكر الجهشيارى ان عبد الحميد عرض الكتاب على الخليفة ، ولكننا لا نتصور ان عبد الحميد لم يعرضه على الخليفة ، وكان على الخليفة على اى حال ان يوقعه .

ب - كتابة الخراج

كان كاتب الخراج في صدر الاسلام كما سبق ان اشرت يؤمن استمرار السياسة الضريبية التي كانت قائمة في الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، والتي كانت غريبة الى حد بعيد عن الفاتحين الجدد ، فكاتب الخراج مالك للادوات التي تتطلبها منه مهمته ، وهي بشكل رئيسي الحساب، فهو يملك من ثم المعرفة التي تسمح له بتحديد مبلغ الضريبة في الاحوال المختلفة وكانت هذه المعرفة هي التي تضمن له الاستمرار في وظيفته قبل مرحلة التعريب .

---

[1] الجهشيارى، الوزراء : ٥٤ .

[2] المصدر السابق : ٦٢ .

[3] المصدر السابق : ٨١ .

ولقد وضع معظم الكتّاب الساسانيين معرفتهم الضريبيّة بتصرف الفاتحين، وعملوا في كنفهم، قال زاذان فرّوخ الكاتب، وهو يعني الحجـــــاج واليه :"فأنه احوج اليّ مني اليه ... ولا يجد من يكفيه الحســـــاب"[1]. وبمساعدة كتّاب الخراج المحليّين، اصبح الفاتحون قادرين على تأمين جباية الضريبة، ومن ثمّ على بسط سيطرتهم وتثبيت نفوذهـــم. لقـــد انقطع الكتّاب عن خدمة السلطة الساسانيـة بطبيعـة الامـر وتحالفـوا مـع الفـاتحيـن الجدد، وهذا التحالف هو نوع من انـواع ولاء الموالاة وليس ولاء عتق او خدمة[2]، لأن الكتّـاب لدى السـاسـانييـن

---

[1] الجهشياري، الوزراء : ٣٨ . وليس الكاتب المولى وحده يملك معرفـة يحتاج اليها الفاتحون الجدد. فأن الدهقان كذلك كان يعرف كيفيـة تدبير امور الولاية فيحاول الوالي الجديد ان يفيد من هذه المعرفة. ويورد الجهشياري (المصدر السابق:٤١) رواية بهذا الصدد اذ سـأل عامل الفلوجتين عند ورودها :" هل ها هنا دهقان يعاش برأيه فقيل له : جميل بن بصبهري... فقصده وقال له جميل: احفظ عني خلالا، لا يختلف حلمك على رعيتك... ولا تتخذن حاجبا ليرد عليك الوارد مـــن اهل عملك على ثقة من الوصول اليك، وأطل الجلوس لاهل عملكيتهيبـك عمالك ...، ولا تقبل الهدية..." ان هذه النصيحة التي يدلي بهـا الدهقان هنا نصيحة سياسية لا علاقة لها بكيفية جباية الخراج اوكيفية مسح الاض، لكنها تعالج موضوع التعامل مع العمـال . ونذكر ا ن الفاتحين كانوا حذرين جدا في التعامل مع الدهاقين فـيما يتعلـق بمسح الأرض وتقدير الخراج، يذكر ابو يوسف(الخراج:٤١) ان عمر بـن الخطاب طلب بعض الدهاقين كي يمسحوا له سواد العراق فرفض مساحتهم مما ادى الى خراب الارض ونستطيع ان نتساءل ما اذا كان الكتاب الموالي موضـع ثقة الفاتحين الجدد اكثر من الدهاقين فيما يتعلق بتقرير ضريبة الخراج .

[2] ولاء الموالاة اى التحالف يختلف عن ولاء العتاقة الذى يتم بعـد اعتاق السيد لرقيق له . ويسمى هذا الولاء الاخير ايضا ولاء نعمـة ، انظر حول الموضوع كتاب محمد طيب النجار،الموالي في العصر الاموى (الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٨) ١٣ .

ويذكر الجهشياري — الى جانب سرجون — عددا من الكتاب الذين كانوا في بلاد الشام ، ويلفت انتباهنا فيما قاله ان معظمهم من النصارى الذين لم يتحولوا عن ديانتهم مثلهم في ذلك مثل سرجون[1] .

يبقى ان نعرف موقف السلطة الأموية من الاعتماد على كتبة من الفرس والروم ، يكتبون بلغة اعجمية في دواوينها ، وما هي الاجراءات التي سوف تتخذها لتصبح سيطرتها على الادارة كاملة لأن استمرار الموالي في كتابة الخراج يشكل استمرارا لهيمنة قديمة ستحاول السلطة الجديدة التحرر منها بشتى الوسائل .

جـ — التعريب

من المعلوم ان عبد الملك بن مروان(٦٥ — ٨٥) اول من عرب الدواوين في الادارة الاسلامية وقد خضعت لعملية التعريب الدواوين التي ظلت تستخدم اللغة الرسمية الخاصة بكل بلد قبل الفتح الاسلامي. وأول الدواوين التي عربت دون شك دواوين الخراج. ويظهر من الروايات ان السلطة بدأت تتبرّم من الكتّاب الاعاجم الذين استمدوا من معرفتهم بقضايا الضريبة نفوذا يواجهون به نفوذ اصحاب السلطة في الدولة الاسلامية . وفي هذا الصدد يقول الجهشياري:"كان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولمن تقدمه سرجون ابن منصور النصراني ،فناظره عبد الملك يوما بشيء ،فتثاقل عنه ،وتوانى فيه ، فعاد لطلبه ، وحثّه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لأبي ثابت سليمان بن سعد الخشني — وكان يتقلد له ديوان الرسائل — : " اما ترى ادلال سرجون علينا واحسبه

---

[1] يذكر الجهشياري (الوزراء :٢٧ ، ٦١) من بين الكتّاب النصارى ابن اوثال النصراني ، كاتب خراج حمص ،وتاذرى ابن اسطين النصراني ، كاتب هشام بن عبد الملك، ويذكر البلاذرى (فتوح :١٧) البطريق بن النكا كاتب عبد الملك على الرملة .

قد رأى ان ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟ قال: لو شئت لحوّلت الحساب الى العربية ، فقال: فافعل ، فحوّله"[1]. فالرواية تشير بوضوح الى ان السلطة الأموية ارادت ان تتحرر من استئثار الكتّاب الموالي بالأمر في ناحية هامة من نواحي الادارة وهي الخراج.

من هنا يبدو اجراء التعريب لأول وهلة وكأنه ضربة موجهة الى الكتّاب الفرس والروم ، وقد توجه ابن سرجون بعد ان عرف ان التعريب اصبح واقعا الى الكتّاب الروم قائلا: "اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم"[2]. وقد كانت ردة فعل الكتّاب الفرس مشابهة لردة فعل الكتّاب الروم اذ قال زاذان فرّوخ — وكان يتقلد ديوان الفارسية[3] — لاصحابه : " التمسوا مسكنا غير هذا."[4] ولا بد ان يكون الكتّاب الاعاجم قد حاولوا التحوّل دون عملية التعريب، اذ يروى البلاذرى انه " بذلت لصالح بن عبد الرحمن مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك لكنه ابى ونقله ..."[5]. هذه الروايات مجتمعة تشير الى الخوف الذى اعترى الكتّاب الاعاجم من فقدان مناصبهم ، اذ لا بد ان تكون رافقت عملية التعريب اعادة تنظيم للبنية الادارية بمجملها ، مع ما يتطلبه ذلك من استبدال الكتّاب الفرس بكتّاب يتقنون اللغة العربية. لكن تلك العملية لم تتم دفعة واحدة على الارجح — كما يقول فرانسوا زبال — اعتمادا على انه من الصعب استبدال الكتّاب القدامى بكتّاب جدد لا يملكون معرفة تقنية كافية يستغرق تدريبها واعدادها وقتا طويلا[6]. فالتعريب — يقول زبال — " هو نقطة انطلاق لتحول بطيء ستستمر اثاره في

---

[1] الجهشيارى ، الوزراء : ٤٠ .

[2] الماوردى ، احكام : ١٩٢ .

[3] ديوان الفارسية هو ديوان الخراج الذى كانت تتم الحسابات فيه بالارقام الفهلوية (انظر المصدر السابق :٣٨).

[4] المصدر السابق : ٣٨ .

[5] البلاذرى ، فتوح : ٣٦٨ — ٣٦٩ .

[6] انظر فرنسوا زبال، تكوّن الكتاب العربي (معهد الانماء العربي ،بيروت، ١٩٧٧) ٣٤ .

القـــرن الثانـــي للهجـــــرة"[1].

وفي الحقيقة ، فأنه من الواضح من استقراء كتاب الجهشياري ان التعريب تم على مراحل: تمت المرحلة الاولى منه بتعريب العراق سنة ٧٨[2] ثم بلاد الشام تليهما خراسان ومصر. وقد تأخر تعريب خراسان — حسب قول الجهشياري — حتى مطلع القرن الثاني ، سنة ١٢٤ ، في خلافة هشام بن عبد الملك[3] لكن اللغة القبطية استمرت في مصر لغة الادارة جنبا الى جنب مع اللغة العربية حتى القرن السادس الهجري. وتشير المهارق — بحسب دراسة لامنس — الى ان المراسلة بين جهاز مصـــر الاداري والمركز كانت تتم باللغتين العربية والقبطية ، غير ا ن النص الاصلي الرسمي كان بالعربية ، وكانت تلحق به ترجمة بالقبطية كذلك استمر الكتّاب الاقباط واليهود في الكتابة على الدواويـــن باللغة الاصلية الى جانب اللغة العربية[4].

ولم تنحصر ظاهرة التعريب في نقل الحساب من اللغات المحلية المختلفة الى اللغة العربية بل نراها تتناول ادق التفاصيل ، ومنها "العلامات" التي في المهارق والتي من شأنها ان تثبت اصالة النسخة ،وكانت من قبل تكتب باليونانية ، يقول البلاذري: "وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه الى الربوبية —تعالى الله علوا كبيرا— وتجعل

---

[1] انظر زبال ، تكـــون : ٣٤ .

[2] انظر الجهشياري ، الوزراء : ٣٨ .

[3] المصـــدر السابـــــق : ٦٧ .

[4] انظـــــــر H. Lammens, Ommayyades, pp. 315-317.

ويستمد التعريب اهميته من كونه محاولة اولى لتبني كتابة عربية. ولقد تمت هذه المحاولة في اطار الجهاز الاداري ، بينما استمر ت اللغتان الآرامية والسريانية في العصر الاموي في سيطرتهما علـــى الكتابة الادبية في بلاد الشام وبلاد مابين النهرين ولو الى حين. اما المرحلة الثانية فتكمن بتبني اللغة العربية في الكتابـــة الادبية. وهكذا يكون الاسلام قد انجز في المجال اللغوي ما لم تستطع انجازه بيزنطية او بلاد فارس الا وهو سيطرة لغة السلطة ، لا علـــى الادارة فحسب بل على الانتاج العلمي والادبي عامة.

الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم... فكان عبد الملك اول من احدث الكتاب الذى يكتب في رؤوس الطوامير من :"قل هو الله احد"[١].

ولا بد من الاشارة ايضا الى ان التعريب تخطى المادة اللغوية وتعداها الى مجال السكّة — اى النقد — ويتجلى ذلك في تخلي السلطة الاموية عن الدينار البيزنطي لصالح الدينار المنقوش، وعن الدرهم الساساني لصالح الدرهم المسلم وربطها الاول بالثاني[٢]، وهذا يعني احداث ديوان آخر هو ديوان السكّة[٣].

ولقد اصبحت اللغة العربية بعد التعريب هي لغة السلطة دون منازع، ولايمكن لأى صراع الا ان يتسلح بها، لذلك بادر الموالي الى تعلم هذه اللغة وليس امرا غريبا ان نقع منذ خلافة عبد الملك على كتّاب رسائل هم من الموالي[٤]، لقد ازال التعريب التقسيم الذى تولى بموجبه الموالي كتابة الخراج، واصبحت هذه الوظيفة الادارية مباحة امام العرب

ولم يكن التعريب الذى قامت به السلطة الاموية كافيا للحد من سلطة الكتّاب القدامى، لذا رافقت ظاهرة التعريب اجراءات اخرى ضد الذين ينتمون الى ديانة اخرى غير الاسلام. وملازمة عملية التعريب لظاهرة التقييد الديني واضحة في رواية الجهشيارى اذ يقول:" كان اكثر كتّاب خراسان اذ ذاك (في خلافة هشام بن عبد الملك) مجوس وكانت الحسبانات بالفارسية، فكتب يوسف بن عمر، وكان يتقلد العراق في سنة اربع وعشرين ومئة، الى نصر بن سيار كتابا، انفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار، يأمره الا يستعين بأحد من اهل الشرك في اعماله وكتابته"[٥]. واذا كان القيد قد وضع على "اهل الشرك" من الكتّاب في العصر الاموى

---

[١] البلاذرى، فتوح: ٢٨٣ وانظر ايضا M. Lombard, Monnaie et histoire d'Alexandre à Mahomet (Paris, Mouton, 1971) p. 149.

[٢] يقول الماوردى (احكام: ١٤٨)" اول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان... سنة اربع وسبعين وقال المدائني: بل ضربها الحجاج في آخر سنة خمس وسبعين... وكتب عليها: "الله احد الله الصمد".

[٣] انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 333.

[٤] انظر الجهشيارى، الوزراء: ٣٥.

[٥] المصدر السابق: ٦٧.

فأن هذا القيد قد امتدّ حتى طال اهل الذمة في العصر العباسي من بعد ، وهذا ما يمكن ان نستنتجه منرواية اوردها الجهشياري، قال: "قلد المنصور حمادا التركي تعديل السواد وامره ان ينزل الانبار ولا يدع احدا من اهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين الا قطع يده ، فأخذ حمّاد ما هويه الواسطي جدّ سليمان بن وهب فقطع يده"[١].

على ان هذه الاجراءات لا تعني ان السلطة نجحت في ابعاد اهل الذمة عن ممارسة صناعة الكتابة وتأمين جهاز اداري مكون من المسلمين دون غيرهم. وسوف نرى — فيما يلي من هذه الرسالة — ان السلطة اتجهت الى الاستعانة بالنصارى وغيرهم من اهل الذمة في الكتابة على الدواوين على مرّ العصور وان بصورة متفاوتة.

III - الوضع الاجتماعي السياسي للكتّاب الديوانيين

لقد استعانت السلطة الاموية ، كما سبق ان اشرنا ، بعناصر اعجمية لا سيما في كتابة الخراج ، وكانت العلاقة القائمة بينها وبين الكتّاب الاعاجم تتخذ شكل الولاء. لقد دخل الموالي في نمط تحالفات السلطة الاموية وخصوماتها ، ومن هنا كان طبيعيا الا ينضووا جميعا تحت لواء سيطرة البيت الاموي والبيت المرواني بل منهم من تحالف مع القبائل المناوئة لهما. ولعل سيرة ابن المقفع يمكن ان تعتبر نموذجية من نواح كثيرة في عقده تحالفا مع بني هاشم[٢]. فما هو موقف الكتّاب الذين كان معظمهممن الموالي لدى انتقال الامر الى بني العباس ؟

---

[١] المصدر السابق : ١٣٤ والارجح ان يكون ما هويه كسائر عائلة وهب من النصارى (انظر D. Sourdel, Vizirat Abbasside, Damas, 1959, vol. I, p. 312).

[٢] حول تحالف ابن المقفع مع بني هاشم ، انظر الجهشياري، الوزراء :١٠٢ — ١٠٤ .

ان محور الصراع في هذه الفترة الانتقالية الحرجة لم يكن بالنسبة للكتّاب يدور حول قضية "شرعية الخلافة"[1]، اى هل الامويون احق بالخلافة ام العباسيون، وانما حول قضية لصيقة بالواقع، المسألة الكبيرة فيها: من الذين تكون لهم الغلبة في الوصول الى السلطة. وحيث ان تعذر على الكتّاب الاحرزاق في ظل السلطة الاموية منذ فترة ما بعد التعريب، فقد رأوا — فيما بعد — التحالف مع تكتلات اخرى قد تهيء لهم حيزا في الجهاز الادارى ومن هنا لا يظهر هناك لدى الكتّاب من تعصب لجماعة دون اخرى، وانما همهم الاساسي محاولة استخدام هذه الجماعة او تلك لبلوغ غايتهم، وهي القيام بدور يرون انفسهم مؤهلين له في الجهاز الادارى للدولة الاسلامية. من هنا التقى موقف الكتّاب المتحالفين مع السلطة الاموية مع موقف الكتّاب الذين تعذر عليهم العمل في كنفها، يطالب كلاهما باستقرار الوضع السياسي في ظل اى سلطة تضمن لهم مناصبهم ومرتباتهم، لأنهم فيما اقدر كانوا يتصورون انه ليس للكاتب موقع خارج السلطة وهذا — في رأيي — هو المنطلق الاساسي لأى تحليل يهدف الى تعيين موقع الكاتب من الصراعات القائمة عامة. ان ممارسة صناعة الكتابة تفترض محاذاة الكاتب للسلطة التي تتحكم بالجهاز الادارى، ومن ثم فأن اقصاء الكاتب عن دواوين الادارة يحوله الى شبه عاطل عن العمل الاصيل فهو لذلك يشعر انه ملزم بالسعي لاسترجاع مكانته مهما كان الثمن. ومن هنا يجد الكاتب ان عليه ان يضع جانبا ميوله السياسية ليكون مؤهلا للعمل في ظل اى سلطة كانت، وذلك امر يؤكده الجهشيارى في رواية عن واقعة معينة تشير الى تحالف الكاتب مع السلطة التي تقبل به كاتبا في اجهزتها يقول: " وكان يكتب لعبد الله بن علي[2] يوسف بن صبيح،

---

[1] انظر زبال، تكوّن: ٣٨.

[2] من اعمام الخليفة ابي جعفر المنصور وقد ادعى الخلافة لنفسه لذلك انفذ ابو جعفر ابامسلم يقاتله فهزمه. فأتى الى البصرة واختبأ عند اخيه سليمان سنة ١٣٧ (انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٠٣ — ١٣١).

مولى بني عجل، من ساكني سواد الكوفة. فذكر القاسم بن يوسف بن صبيح ان اباه حدّثه : ان عبد الله بن علي(عم المنصور) لما استتر عند اخيه سليمان بالبصرة ، وعلم انه لا وزر له من ابي جعفر، قال: فلم استتر وقصدت اصحابنا الكتّاب، فصرت في ديوان ابي جعفر،واجرى لي في كل شهر عشرة دراهم... فقال لي (ابو جعفر): كأني بك يا يوسف واانت تقول في نفسك : انا بالامس في ديوان الكوفة اكتب لبني امية ، ثم مع عبد الله بن علي ..."[1]. وتشير الرواية بوضوح الى ان مكان الكاتب هو الى جانب السلطة. فهزيمة صاحب الكاتب تجعله يطلق الصراع وينكفيء تحت لواء السلطة القائمة. فيكون عبد الله بن علي -في الرواية المذكورة اعلاه - لا يشكل بالنسبة للكاتب اكثر من حليف مرحلي مرشح للخلافة ، فليس غريبا ان يكون يوسف بن صبيح الكاتب قد انتقل من خدمة بني امية الى خدمة عبد الله بن علي لينتهي اخيرا في دواوين المنصور.[2] .

غير اننا نقع - بالنسبة لموقف الكاتب- على حالات لم يلجأ فيها الكاتب الى السلطة الجديدة بل لازم صاحبه كما فعل عبد الحميد الكاتب.ولم يكن عداء عبد الحميد للعباسيين هو الذى حال دون انضمامه اليهم ، بل كان السبب في ذلك دفانيه في الاخلاص لصاحبه -مروان بن محمد - والخوف على سمعته من ان تلطخ. فيكون الموقف الاخلاقي ، لا الموقف السياسي ، هو الذى املى على عبد الحميد تصرفه وذلك واضح في رواية الجهشيارى اذ يقول: "فما قوى امر بني العباس وظهر، قال مروان لعبد الحميد : انا نجد في الكتب ان هذا الامر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر اليك هؤلاء القوم ، يعني ولد العباس،

---

[1] المصدر السابق : ١٣١ - ١٣٢ .

[2] ان موقف الخليفة المنصور ايجابي في هذا المثل لانه قبل بيوسف بن صبيح كاتبا في ديوانه. لكن الكاتب (يوسف بن صبيح) لم يكن واثقا من هذا الامر. ويشير الجهشيارى (المصدر السابق: ١٣١) الى خوف يوسف بن صبيح عند التحاقه بديوان المنصور اذ انه لم يفصح عن هويته في بادئ الامر واستتر بالديوان ولم يرد الاحتكاك بالخليفة خوفا من ان يكتشف هويته فيلحق به الأذى.

فصر اليهم فأني ارجو ان تتمكن منهم فتنفعني في مخلّفي ، وفي كثير من اسبابي ، فقال له : وكيف لي بأن يعلم الناس جميعا ان هذا عن رأيك ، وكلهم يقول اني غدرت بك وصرت الى عدوك"[1] . ان عبد الحميد مقتول لا محالة بسبب اعلانه الولاء لصاحبه بعد زوال امر هذا الاخير ، ولا ينبغي ان يتصرف الكاتب قياسا الى ذلك . فالصناعة لا بد ان تستمر ايا كانت السلطة ، والاصول التي بفضلها تصان الصناعة ثابتة لا تتغير مهما تغيرت الاحوال. وذلك واضح في رسالة عبد الحميد الى الكتّاب في لهجة الكاتب المتحفظة وعدم تطرقه لهوية السلطة التي يعمل الكتّاب في كنفها اموية كانت ام عباسية .

ان استمرار الصناعة رهن بالاستقرار السياسي ، ولذلك قد يحاول الكاتب السعي من اجله . فيبادر — ان امكن — لحل التناقضات السياسية وهذا ما حاول عبد الحميد ان يقوم به . يقول الجهشياري :"وكان عبد الحميد ابن يحيى قال لمروان ، حين رأى علو امر بني العباس : اتتهمني يا امير المؤمنين فيك قال : لا ، فقال له : أرأيت ابراهيم بن محمد بن علي ، اليس ابن عمك قال : بلى ، قال : فأني أرى اموره تنبغ عليك ،فأنكحه وانكح اليه ، فأن ظهر ، كنت قد اعلقت بينك وبينه شيئا ، وان كفيته لم تشن بصهره[2]"... فالكاتب يبدو هنا وكأنه يحاول ان يبعد المخاطر المتربصة بالخليفة وبالتالي بالخلافة .

غير ان مبادرة الكاتب لحل التناقضات السياسية لضمان الاستقرار السياسي لم تأخذ دائما شكل "المصالحة" التي ظهرت في المثل السابق بل نرى الكاتب يلجأ الى الحيلة اذا استنفد الوسائل الاخرى من مصالحة او امتناع . ولقد بلغ -مثلا- ابا ايوب، كاتب المنصور ، عزم الخليفة على قتل ابي مسلم الخراساني فقال في نفسه :" انا لله وانا اليه

---

[1] المصدر السابق : ٧٩ .

[2] الجهشياري، الوزراء : ٧٢ .

راجعون طلبت الكتابة حتى اذا بلغت غايتها ، وصرت كاتبا للخليفة ، وقع بين الناس هذا التخليط. والله ما ارانا نسلم ، وما احسب اصحاب ابي مسلم يرضون ان قتل ان يدعوا هذا على الارض ولا احدا من اسبابه"... [1] وكان ان احتال ابو ايوب لقتل ابي مسلم وهو اعزل [2].

ولا يدافع الكاتب في موقفه من الصراعات الا عن منصبه ، ذلك ان الانتماء المذهبي امر غريب عنه . ولا يعني ذلك انه لم تكن للكاتب ميول فكرية او سياسية او انتماءات دينية معينة ، بل تعني ان الكاتب يبذل جهده لكي لا تتناقض معتقداته مع منصبه ، اى مع معتقدات السلطة التي يعمل في كنفها. وهو يسعى دائما من اجل الحفاظ على مركزه بمصالحة السلطة القائمة ، واضعا نفسه في تصرف السلطة الجديدة. فأذا لم تقبله هذه السلطة للتّو اعتصم بالصبر واظهر طيبة الخاطر حتى تغير السلطة رأيها فيه . وهذا ما فعله كتّاب الامويين بعد الثورة العباسية . فقد روى الجهشياري انهم جلسوا تحت شجرة تين وقالوا :" لو اصبحنا رجلا له سلطان انقطعنا اليه وكنا في خدمته ، يرزقنا رزقا نعود به على عيالنا ، فقال بعضهم : عسى الله عزّ وجلّ

---

[1] المصدر السابق: ١١١ — ١١٢.

[2] المصدر السابق: ١١٢.

ان يسبب ذلك لنا او لبعضنا فيفضل علينا"[1] ، وهذا التصرف يعكس حياد الكاتب وعدم لجوئه الى القوة لانتزاع حقه في ممارسة صناعته . ان الصبر والرجاء والانتظار هي صفات مستسلمة لا تهدد السلطة فتطمئن هذه من ناحية الكاتب .

---

[1] الجهشياري ، الوزراء :٩٦ ، ويورد الجهشياري (نصوص ضائعة في كتاب الوزراء ، تحقيق ميخائيل عواد ، بيروت، ١٩٦٤ :٤٢ — ٤٣) رواية اخرى تشير الى سعي الكتاب الى استرجاع مكانتهم بعد الاطاحة بالأمين. يقول: "... ان المأمون لما قدم العراق خطر له ان يقلد الاعمال الى السبعة الذين قدموا معه من خراسان. فطالت عطلة كتاب السواد وعماله ، وكانوا يحضرون داره في كل يوم حتى ساءت احوال اكثرهم".

الفصـــل الثانـي

==========

تطور الجهـــاز الادارى في العصر العباســـــــي
وأثره في ظهـــور المرتبة الثانيـــة (الوزارة).

I - الدواوين الحادثة في العصر العباسي

أ - أتجاه الادارة نحو المركزية

في بداية العصر العباسي برزت مسألة جعل السلطة مركزية عن طريق الادارة ، وهو امر وجد العباسيون تحقيقه ملحا ، بسبب عامل يهدد السلطة ويتعلق بالموارد التي تعتمد عليها ، وهو اختلاس اموال الضريبة الذى كان يقوم به في بعض الأحيان ولاة الاطراف في زمن الدولة الأموية، يساعدهم على ذلك امران ، الاول: استقلالهم عن المركز واطلاق السلطة المركزية يدهم في الولايات[1] ، والثاني : وجود عدد من الكتّاب الموالي واعتماد الولاة عليهم في جباية الضريبة على اكمل وجه ، بسبب اتقانهم ضروب الحساب ويعطي الجهشيارى مثلا واحدا يحث الكاتب فيه الموالي على اختلاس اموال الفيء مع ضمانة سلامته يقول : " كان يكتب ليزيد بن المهلب المغيرة بن ابي قرة - مولى سدوس - فكتب يزيد الى سليمان (بن عبد الملك) يخبره بفتح جرجان ، ويعظّم عنده الامروموقع النعمة في ذلك، ويعرّفه انه قدحصلفي يده من المال مما افاء الله على المسلمين...

---

[1] لقد تمتعت بعض الولايات باستقلال واسع في ظل الدولة الاموية . وكان الولاة يتصرفون بأمور ولاياتهم في العراق مثلا بحرية كبيرة ، نذكر من بينهم : زياد بن ابي سفيان وابنه عبيدالله والحجّاج. وقد حاولت السلطة الاموية الحدّ من سلطة الولاة بتقسيم السلطات المحلية في الولاية الواحدة الى عدّة مسؤوليات تردبط بها مباشرة ، وبتعيين المسؤولين من قبل الخليفة لاالوالي. هذا ما فعله سليمان بن عبد الملك بيوسف بن عمر - والى العراق - اذ فرض عليه دولية قحذم بن سليم الكاتب الخراج والحكم بن ابي الصلت الحرب . (انظر الجهشيارى، الوزراء : ٦٥) .

ستة الاف درهم ، فقال له المغيرة كاتبه : لا تكتب بتسمية مال ، ودعه مجملا ، ولعلّ امير المؤمنين اذا لم يعرف مبلغه ان يسمح به لك ،واذا عرفه استكبره وامر بحمله ، وان امسك عنه بقي ذكر المال مخلدا في الديوان ..." [1] ويعطي ابن الاثير امثلة حول خوف الخليفة من اقتطاع الولاة . اموال الضريبة وعدم تأديتهم مال الجباية الى الادارة المركزية . ومن هؤلاء الولاة زياد بن ابي سفيان الذى تولى فارس في خلافة معاوية وكان استودع ماله عبد الرحمن ابن ابي بكرة و كان عبد الرحمن يلي ماله بالبصرة ، وبلغ معاوية ذلك فبعث المغيرة بن شعبة لينظر في اموال زياد" . ويعطي ابن الاثير مثلا آخر يشير الى خوف الخليفة من الولاة الذين لا يؤدون اموال الضريبة يقول : "واستعمل (معاوية) المغيرة (بن شعبة) على الكوفة ... فدخل (عبد الله بن عمرو بن العاص) على معاوية فقال: استعملت المغيرة على الخراج فيغتال المال ولا تستطيع ان تأخذه منه؛ استعمل على الخراج رجلا

---

[1] الجهشياري، الوزراء : ٤٩ — ٥٠ يعرف الكاتب المولى ان الكتابة تخلد الحدث، وكان مصيبا في رأيه اذ طالب عمر ابن عبد العزيز يزيد بالاموال بعد وفاة سليمان بن عبد الملك (انظر المصدر السابق :٥٠) ، ولكننا نقع على حالات كان الوالي يقترح فيها الاختلاس، يقول الجهشياري (المصدر السابق :٦١) :"كان قد تقبل ضياع هشام (بن عبد الملك) بنهر الرمان رجل يقال له فرّوخ ويكني ابا المثنى ، فثقل على خالد (بن عبد الله القسري والي العراق) امره ، فقال لحسّان (النبطي كاتبه) : اخرج الى امير المؤمنين، وزد على فرّوخ في الضياع الف الف درهم على ان تستوفي حدودها" . والارجح ان يكون خالد راغبا في التصرف بضياع هشام فيتاح له اقتطاع بعض اموالها.

[2] ابن الاثير، الكامل ٣ : ٤٢٢ . ويروى ابن الاثير (المصدر السابق ٣ :٤١٤- ٤١٥) ان معاوية ارسل الى زياد :" ان في يدك مالا من مال الله فأد ما عندك منه . فكتب اليه زياد : انه لم يبق عندى شيء ولقد صرفت ماكان عندى في وجهه ،واستودعت بعضه لنازلة ان نزلت، وحملت ما فضل الى امير المؤمنين رحمة الله عليه" .

يخافـــــك ويتقيك. فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة"[1].

كان يحدث اذن في بعض الاحيان ان الاموال المجموعة من الاطراف لاتصل الى المركز. ولم تكن السلطة تملك دائما وسائل المراقبة كالتدقيق الحسابي والاثبات بالسجلات للحؤول دون تسرب الاموال لصالح الاطـــراف والولاة وكتّابهم. وكانت الخطوة الاولى التي قامت بها بالنسبـــــة للكتّاب هي محاولة تفكيك الفئة المسيطرة على الجهاز الاداري بواسطة التعريب مع ما يرافق ذلك من اجراءات لا مباشرة ضد اهل الذمة من الكتّاب[2]. لكن هذه الامور لم تكن لتكفي اولابسبب ردة فعل الكتّاب على هذه الاجراءات. اذ ان بعض هؤلاء لجأوا الى تعلم العربية والى اعتناق الاسلام لكي لا يذهبوا ضحية الاجراءات التي اتخذتها السلطة. واذا كان تعلم العربية يستغرق مدة غير قصيرة، فأن اعتناق الاسلام ليس امرا عسيرا. ومن النماذج على لجوء عدد من الكتّاب الى اعتناق الاسلام ما ذكره الجهشياري في قوله :" كان في ديوان العراق مع محمد بن المنتشر... من كتّابه ، رجل يقال له : حسّان النبطي ، فكتب هشـــام يأمر الا يستعان بذمي ، فقيل لحسّان في ذلك، فأسلم على يدى محمد بن المنتشر"[3]. هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فأن الولاة احترموا البنى الاجتماعية السائدة في ولاياتهم ولم يعملوا على اعادة تنظيمها ،ومن ضمنهاطاقم الجهاز الاداري. اما المتضرر الاكبر هنا فهو السلطـــة المركزية. ذلك ان اى استيلاء على الاموال يقابله بالضرورة احتكار لجزء من السلطة. واذا كانت السلطـــة لم تقـــف مكتوفة الايدى امام ذلك، الا ان تدخلهـــا في شـــؤون الـــولاية ظـــلّ " فوقيـــــــا" ، يلجأ فيـــه الخليفـــة الى الاخضاع التـــام للولاة وعمالهم ، وقد لا

---

[1] المصـــدر الســـابق ٣ : ٤١٣ .

[2] انظر ما سبـــــــق ص : ١٥ .

[3] الجهشياري، الـــوزراء : ٦١ .

يتورع عن قتلهم وتعذيبهم ، وهذا ما حصل - مثلا - لخالد بن عبد الله القسري والي العراق ، فقد انفذ هشام بن عبد الملك اليه يوسف بن عمر والي اليمن ليعزله ويحل محله بعد ان يستخرج منه الاموال. يقول الجهشياري:" ووافاهم يوسف فمات طارق (بن ابي زياد من عمال خالد وكان على الكوفة) في العذاب، ولقي خالد وجميع عماله كل شيء ، ومات منهم في العذاب بشر كثير... وكان فبلغ ما استخرجه منهم تسعين الف الف درهم"[1].

ولم يكن هذا التدخل نافذ المفعول دائما ، وانما كان نافذا لبرهة وجيزة وحسب فقد يتوصل الخليفة - او مبعوث الخليفة - الى استخراج الاموال من معذبيه ، كما حصل في المثل المذكور اعلاه ، ولكن لا يمكنه الحؤول دون تسرب الاموال مرة اخرى . وقد ظل العزل - اى عزل الوالي عن ولايته - الاجراء الاكثر فعالية لمحاربة الاختلاس وكان غالبا ما يرافقه تعذيب الوالي . وهدف التعذيب التذكير بشأن الخليفة قادر على ان يطيح بمن يريد من عماله ساعة يشاء ، وان كل تطاول على سلطته يجرّ الهلاك على المتعمّد كما حصل لطارق بن ابي زياد عامل خالد على الكوفة. وبسبب عدم فعالية هذا الاجراء لجأت السلطة العباسية - حسب ما يرى كلود كاهن - الى تقوية السلطة المركزية ، ولم يكن ذلك ليتم لها الا بتقوية الجهاز المركزي الاداري لكي تستطيع ان تخضع الاطراف للمركز عن طريق ربط الولايات بالحضرة مباشرة[2] ، وبذلك لم يعد نفوذ السلطة المركزية قاصرا على تعيين الوالي واقالته ،ولم تنحصر اساليبها في التدخل بشؤون الولاية لاستخراج الاموال

---

[1] المصدر السابق: ٦٣ - ٦٤ وكان مبدأ انفاذ الخليفة بعض ثقاته للنظر في اموال الولاة امرا شائعا، انظر ابن الاثير (الكامل ٣: ٤٢٣).

[2] انظر C. Cahen, Islam I, p. 74.

التي جناها العامل بشتى انواع التعذيب، صحيح انها تخلت عن شيء من العنف والحدة في تعاملها مع الولاة ، الا انها بالمقابل اقامت رقابة مستمرة امنّت بها مواردها كما سوف نرى، وفي الوقت نفسه استمرت في اسلوب الاقالة والعزل. وفي هذا المجال يروى الجهشياري ان الرشيد "كان ... قلد فرجا الرخجي الاهواز، فكثّر عليه عنده ...وادعى عليه انه اقتطع مالا كثير من مال البلد فصرفه بمخلدبن ابان الانباري في سنة اثنتين وتسعين ومئة"[1]. وتشير هذه الرواية الى ان السلطة لم تنجح كليا ، على الأقل في خلافة الرشيد ، في تلافي اقتطاع الاموال لصالح الولاة دون المركز.

ونستطيع ان نقول — مع كاهن — ان المحاولات التي قامت بها السلطة العباسية على مر العصور حتى مطلع القرن الرابع لم تبلغ الصورة المنشودة ، لأن ارتباط الاطراف بالمركز ظل في تحول مستمر[2] ،وهذا شكّل عقبة تحول دون بسط السلطة سيطرتها على ارض الخلافة كافة ، ان في خراسان او مصر او المغرب او بلاد فارس[3].

---

[1] الجهشياري ، الوزراء : ٢٧١ .

[2] انظر C. Cahen, Islam I, p. 85.

[3] من اهم العوامل التي ادت الى استقلال الولايات مبادرة السلطة الى تولية قادة من الجيش ناحية من النواحي يجبون خراجها وينفقونه على الجند وبالمقابل تبقى القوات العسكرية بتصرف السلطة المركزية تستعين بها عندما ترى ضرورة لذلك (انظر C. Cahen, Islam I, p. 147.)
ونستطيع ان نعطي مثلا على ذلك ما حصل في اواخر المنتصف الثاني من القرن الثالث للهجرة من تولية ابن طولون مصر (انظر ابن الاثير، الكامل ٧ :١٧٨) وتولية ابي الساج مقاطعة الاهواز (انظر المصدر السابق ٧ :٢٧٦).

ب— تعداد الدواوين

اما الخطة العباسية في اول العصر العباسي ، ولا سيما ابتداء من خلافة المنصور ، فتكمن بأحداث جهاز اداري متشعب في المركز وفي الأطراف بحيث تكون دواوين الأطراف نسخة مصغرة عن ديوان المركز[١] . وقد كانت الدواوين الاساسية في العصر الأموي هي كما سبق واشرنا دواوين الرسائل والخراج والجند والبريد. ولكن السلطة العباسية اتجهت نحو تقسيم الدواوين في مسؤوليات متعددة ومتخصصة معا. وبلغ الجهاز الاداري في كنف السلطة العباسية حجما لم يبلغه في العصر الاموي وتعددت مجالات التوظيف بالنسبة للكتاب وتنوعت وسوف نأتي على ذكر الدواوين المختلفة التي احدثها الخلفاء والوزراء بالتفصيل وتبعا للتسلسل الزمني لنتبين اتجاه الكتابة الديوانية العام وطبيعة الطبقة الادارية التي ارتبطت بها.

ونبدأ بخلافة المهدى الذى احدث سنة ١٦٢ ديوان الازمة والغرض منه مراقبة محصول الضريبة (او القيمة المالية المتحصلة منها) اذا كان موافقا للأصول اى للعمليات الحسابية التي يتم بموجبها تحديد الضريبة نظريا[٢] . ويرجح الجهشيارى ان يكون المهدى احدث ديوان ازمة الازمة وليس الازمة اذ يقول : " واحسب ان من ذكر ان المهدى اول من احدث الازمة انما اراد ازمة على الازمة[٣] ، مما يشير الى ان الزمام كان ملحقا بكل ديوان على حدة

---

[١] يرى كاهن (Islam I, p. 84) انه اذا كان الهدف الأول هو تحصيل الضريبة كاملة ، فأن الاجراءات التي يقتضيها سوف تحقق الهدف الذى ينبغي تفاديه الا وهو استقلال الولاية ، لان توفر الجهاز الاداري الفعال في الاطراف هو العامل وراء سعي الولاية من اجل استقلالها من جديد ، فتعود المشكلة لتطرح ذاتها انما من باب آخر.

[٢] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p. 113.

[٣] الجهشيارى ، الوزراء : ١٦٦.

الى ان اسس المهدى الديوان الجامع لها. ثم عادت الازمة لتنقسم مع مجالس الخراج، فيكون لكل مجلس زمامه اى زمام مجلس المشرق وزمام مجلس المغرب، وزمام مجلس السواد، اصبح هذا التقسيم فاعلا في وزارة عبيد الله بن وهب للمعتضد بالله بين سنة ٢٧٩ و٢٨٩[١]. وقد الحقت بديوان الازمة، دواوين اخرى للهدف ذاته انما بمهمات خاصة، كديوان الاشراف مثلا الذى ظهر متأخرا اى في بداية القرن الثالث[٢]، وهدف هذا الديوان هو تفادى اقتطاع الاموال من قبل العمال[٣].

اما التغييرات الاخرى التي طرأت على الجهاز الا دارى فتكمن في احداث مجلس الدار، او ديوان الدار، بمبادرة من ابي العباس بن الفرات صاحب ديوان الخراج في خلافة المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩). وديوان الدار هو الديوان الجامع لمجالس الخراج انما ليس بصورة مطلقة[٤] والارجح ان يكون احداث هذا الديوان هو رغبة بمراقبة مجالس الخراج. ويضاف الى مجالس الخراج مجلس الاسكدار حيث تصل الخرائط[٥] وتنفذ الرسائل. وتدخر عائدات الضريبة في بيت المال اذا كانت نقدا وفي

---

[١] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 737.

[٢] لا يميز بعض المصادر بين الازمة والاشراف والواقع ان الاشراف على مصر البعيدة كما يتم بصورة متقطعة قبل القرن الثالث بأشارة من الخليفة عندما يجد امر ما. يقول الجهشياري (الوزراء: ٢١٧-٢١٨) "قال الرشيد ليحيى (البرمكي): اطلب لي رجلا كاتبا عفيفا، يكمل لمصر، ويستر خبره، فلايعلم موسى بن عيسى به حتى يفجأه؛ قال: قد وجدته، قال: من هو؟ قال: عمر بن مهران".

[٣] ذهب علي بن عيسى، صاحب الاشراف على مصر في وزارة (ابي) علي الخاقاني للمقتدر سنة ٣٠٠، الى مصر ليحقق في مسألة انفاق مصر مبلغا مرتفعا من عائدات الضريبة. ويفاجأ بأن النفقة على جسر قارون هي عشرة دنانير بينما يحتسب العمال عنه على السلطان ستين الف دينار السنة (انظر الصابيء، تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق امدروز، بيروت ١٩٠٤: ٣١٩-٣٢٠).

[٤] انتزع عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد مجلس المغرب في ديوان الدار وقلده لعلي بن عيسى منفردا حوالي سنة ٢٨٦ (انظر المصدر السابق: ١٣٢).

[٥] الخريطة: مفرد خرائط وعاء مثل الكيس يستخدم لكتب العمال وللاموال (انظر الجهشياري، نصوص: ٣٣).

الخزائن اذا كانت عينا[١]. ولم تكن الضريبة عادة تصل بمجملها عينا الى دار الخلافة وذلك بسبب دور الجهابذة في تحويل المحصول الى نقود[٢]. وقد اصبح للجهابذة في خلافة المقتدر ديوان هو ديوان الجهبذة[٣]. ويلحق بديوان الخراج الذى يجبي الضريبة الخاصة بأراضي الخراج ديوان الضياع اى الضياع الخاصة بالخليفة وهضم الاراضي التي صادرها من بعض الذين ذكرهم ويرقى هذا الديوان الى خلافة ابي العباس السفاح[٤]. اما ديوان الصدقات فهو الديوان المكلف بجباية العشر من الاراضي، وقد ذكر الجهشيارى هذا الديوان في خلافة هشام بن عبد الملك وكان يتولاه قبيصة بن ذؤيب[٥]. وقد اختص هذا الديوان فيما بعد — حسب ما يذكر ابو يوسف في كتاب الخراج — بجباية العشر على الماشية بينما تولى ديوان الخراج جبايتها عن الاراضي[٦]. وثم ذلك ربما في خلافة المهدى[٧]. وهنالك ايضا ديوان الصوافي الخاص بالاراضي التي تملكها الدولة والتي تستطيع ان تتصرف بها

---

[١] انظر EI², " Diwān", vol. II, p. 334.

[٢] الجهبذ اذن من فئة الصيارفة ويأخذ اجرا على عمله وغالبا مايتحمل الفلاح مال الجهبذة (انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 527)، وكان الجهبذ يخصص ما يتحصل لديه من اموال ومحاصيل زراعية في مشاريع تجارية قبل ان يؤديها الى السلطة المركزية، فيحقق ارباحا، ثم كان يحيل السلطة الى قبض الاموال من ممثليه في بغداد. (M. Lombard, Monnaie, p. 160)

[٣] انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

[٤] انظر المصدر السابق : p. 334.

[٥] انظر الجهشيارى، الوزراء : ٦٦، وانظر ايضا Cahen, Islam I, p. 84, EI², "Diwān", vol. II, p. 333.

[٦] انظر ابو يوسف، الخراج : ٨٧.

[٧] انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

من حيث اقطاعها لأحد اصحاب المال والنفوذ[١]. ويتولى دفع ارزاق الكتّاب وسائر من في البلاط ديوان النفقات ويرقى الى بداية العصر الامـــوى واصبح هذا الديوان في اواخر القرن الرابع يهتم بنفقات دار الخلافـة وكان لهذا الديوان زمامه الخاص به[٢]. كما اصبح لكل ديوان مجلس يهتم بنفقاته[٣]. اما الانفاق على الجند فكان يتم بصورة مستقلة ويتـــولاه ديوان الاعطاء او العطاء، وهو الاسم الآخر لديوان الجند[٤]، وكان يؤمـن المراسلة بين المركز والاطراف ديوان الرسائل الذى انجز في خلافـة معاوية[٥]، وتلحق بديوان الرسائل مجالس عدة اهمها: مجلس الفضّ الـذى يعنى بفرز الرسائل ونزع الخاتم عنها عند ورودها، ومجلس الخاتم الذى يعنى بختم الرسائل قبل انفاذها[٦]، ثم ديوان السرّ[٧]، وتكمن مهمته في توزيع الاوامر على الاقسام المتخصصة. وجمع مجلسا الفضّ والخاتم فـي ديوان واحد في مطلع القرن الرابع[٨]، وكان ينقل الكتب الرسميـة والخرائط ديوان البريد المسمى ايضا ديوان الخرائط[٩]. ولا تنحصر مهمة هذا الديوان في ذلك بل اضيف اليها مهمة الاطلاع على اوضاع الامصـار ورفع تقرير بها الى صاحب السلطان، لذلك يمثل صاحب البريد او المتولي للبريد في ناحية ما السلطة المركزية، وينقل المعلومات من الاطـراف اليها.

ولا بد هنا من التمييز بين ديوان البريد وديوان الاشراف لكي لا يقـع الخلط بينهما. يقول الماوردى:" ان للمشرف منع العامل مما افسد فيه، وليس ذلك لصاحب البريد...، والمشرف لا يلزمه الاخبار بما فعله العامل من صحيح وفاسد اذا انتهى اليه ويلزم صاحب البريـد الاخبـار بما فعله العامل من صحيح وفاسد، لان خبر المشرف استعداء، وخبـر

---

[١] انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢٧٧.

[٢] انظر EI^2, "Diwān", vol. II, p. 334.

[٣] انظر EI^2, "Diwān", vol. II, p. 333.

[٤] انظر الصابىء، الوزراء: ١٣.

[٥] انظر EI^2, "Diwān", vol. II, p. 334.

[٦] انظر EI^2, "Diwān", vol. II, p. 334.

[٧] انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٢٤ وايضا D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 623.

[٨] انظر EI^2, "Diwān", vol. II, p. 334

[٩] انظر الصابىء، الوزراء: ١٥٩.

صاحب البريد انهاء ... وخبر الانهاء يشتمل على الفاسد والصحيح، وخبر الاستعداء مختص بالفاسد دون الصحيح"[١].

وغالبا ما يتقلد ديوان البريد احد المقربين من الخليفة، وذلك فأن هذا الديوان مستقل الى حد ما عن الدواوين الاخرى، واحيانا لم يسوّل عليه كاتب، ذلك انه لا يتطلب من متوليه التمرس بصناعة الكتابة، يقول قدامة بن جعفر: "والذي يحتاج اليه في صاحب هذا الديوان ان يكون ثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالامر في وقته لان ليس هذا الديوان فيه من العمل ما يحتاج معه الى الكافي المتصفّح وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ."[٢]

اما ديوان المظالم فهو الديوان المكلف بالنظر في المظالم التي ترفع اليه والتي تكون السلطة قد الحقتها بأحد الرعايا[٣]. فمهمته اذن هي في حماية الضعفاء عندما تتطاول عليهم السلطات المحلية في بعض القضايا كجباية الخراج مثلا. وقد كان يحدث في العصر الاموي ان ينظر الخليفة او احد عماله في المظالم الى خلافة عبد الملك بن مروان[٤]. لكن النظر في المظالم بشكل منظم مكثف يرقى الى العصر العباسي وذلك - كما يقول الماوردي - بسبب كثرة الظلامات في ذلك العصر وانجز الديوان المكلف بذلك في خلافة المهدي حوالي سنة ١٦٣[٦]. واصبح يخصص يوم في الجمعة للنظر فيها في خلافة

---

[١] الماوردي، احكام: ٢٠١ — ٢٠٢. ويؤكد ذلك ما ذكرت من ان السلطة المركزية لم تعد تعتمد على العزل والتنكيل لاصلاح امر الولاية بل اصبح تدخلها في الولاية بناء. يتولى المشرف عادة مهمة مسالمة نرى مثلا ان عمر بن مهران المشرف على مصر في خلافة الرشيد فاجأ موسى بن عيسى الوالي الا انه لم يبادر الى خلعه بل جلس للمظالم وجد في طلب الخراج واصلح امر مصر ثم قفل عائداً (انظر الجهشياري، الوزراء: ٢١٩).

[٢] قدامة بن جعفر، كتاب الخراج وصناعة الكتابة وتحقيق دوخويه في كتاب المسالك والممالك لابن خردذبه، طبعة ليدن ١٣٠٦ هـ) ١٨٥.

[٣] انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

[٤] يقول الماوردي (احكام: ٧٤): "اول من افرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان".

[٥] انظر المصدر السابق: ٧٤ — ٧٥.

[٦] انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

المعتمد (٢٥٦ـ٢٧٩)[١]. كان تولي المظالم من امتياز الخليفة في العصر الاموى الا ان الخليفة كان يجلس لها لكي يحيلها الى القاضي[٢]، ما عدا عمر ابن العزيز الذى كان يعالجها شخصيا[٣]. ونحن نراه في رواية للجهشيارى يشتكي من مراجعة عامل في الكوفة له في شأن المظالم[٤]. وفي العصر العباسي، كان الخليفة هو الذى يجلس للمظالم و ذلك حتى خلافة المهتدى[٥]، اذ تولى الوزير بعد ذلك هذه المهمة يعاونه فيها احيانا بعض الكتّاب الذين يكلّفهم بذلك[٦]. وكان يتولى المظالم احيانا القائد العسكرى كما حصل مع بدر القائد سنة ٢٨٧[٧].

وشبيه بديوان المظالم ديوان العرض على الخليفة وهو ديوان مستقل عن ديوان المظالم، ومهمته عرض الرقاع التي ترد عليه لكي يوقع فيها فيما يراه مناسبا[٨]. وكان يتولى العرض احد المقربين من الخليفة[٩]. ويتولى ديوان المعاون ترتيب امور العامة وضبط التجاوزات

---

[١] انظر الجهشيارى، نصوص : ٨٥ واصبح هذا النهار هو الاحد في خلافة المقتدر (انظر الصابىء، الوزراء : ١٠٧).

[٢] انظر الماوردى، احكام : ٧٤.

[٣] يقول الماوردى (احكام :٧٤): " اول من ندب نفسه للنظر في المظالم عمر ابن عبد العزيز".

[٤] انظى الجهشيارى، الوزراء :٥٥.

[٥] انظر الماوردى، احكام :٧٤ والصابىء، الوزراء :٢٢٢.

[٦] انظر الصابىء، الوزراء :١٠٧ حيث يطلب ابن الفرات الوزير من صاحب ديوان الرسائل وصاحب المظالم الجلوس للمظالم في يوم اضطر لانّ يتغيب فيه.

[٧] يقول الطبرى (تاريخ ١٠:٧٥): " وفي يوم الاحد لعشر خلون من شهر ربيع الاخر قعد بدر مولى المعتضد في داره ونظر في امور الخاصة والعامة من الناس والخراج والضياع".

[٨] يسمى هذا الديوان ايضا ديوان الرقاع (انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

[٩] تولى هذا الديوان احيانا الحاجب لا الكاتب مثل الفضل بن الربيع مع الرشيد (انظر الجهشيارى، الوزراء : ٢٣٣، ٢٦٦).

التي تحصل والتحقيق في الجنايات، وهو بمثابة الشرطة ويرتبط بديوان المظالم [١].

هذا الوصف العام للدواوين ينتمي تقريبا الى ما وصلت اليه البنية الادارية قبل خلافة المقتدر اى حتى سنة ٢٩٥، الا ان انجاز هذا الجهاز بدأ في بداية العصر العباسي وبالتحديد في خلافة ابي جعفر المنصور، وقد خضع لتغيرات عدة قبل ان يبلغ هذا المستوى من التعقيد والتشعب. ونذكر ان هنالك دواوين ظهرت لمدة معينة ثم زالت كديوان الرقيق الذى ظهر في خلافة سليمان بن عبد الملك ثم لم يعد له ذكر [٢]، وديوان الشعر في خلافة الرشيد [٣]. وديوان الغلمان في خلافة المتوكل [٤]. وتمثل خلافة المقتدر مرحلة اخرى تم فيها احداث دواوين جديدة كديوان البرّ الذى احدثه على بن عيسى في وزارته للمقتدر وخصص لحفر القنوات وترميم الابنية [٥] وديوانيّ المرافق والمصادرين، ويهتم ديوان المرافق بتحصيل فائض المال الذى يحتكره العمّال لانفسهم، عن طريق التحقيق في الوثائق [٦]. اما ديوان المصادرين فمهمته تدبير الاموال التي تكون السلطة قد صادرتها من بعض الكتّاب او الوزراء [٧]. ويرقى هذا الديوان الى خلافة المنصور وكان اسمه ديوان المصادرة [٨]. ونذكر انه في بداية القرن الرابع الهجرى اصبح هنالك ديوان خاص بالضياع المقبوضة عن ابن الفرات [٩].

---

[١] انظر البطلوسي، الاقتضاب في شرح ادب الكتّاب (تحقيق عبد الله البستاني، بيروت، ١٩٠١) ٤٩.

[٢] انظر الجهشياري، الوزراء: ٤٩.

[٣] يقول الجهشياري (المصدر السابق: ٢١١) عن ديوان الشعر "وكان يحيى (البرمكي) قلده (اي ابان بن عبد الحميد اللاحقي) ديوان الشعر... فكان الشعراء يرفعون اليه اشعارهم في البرامكة، فيسقط ما يرى اسقاطه، ويعرض ما يرى عرضه...".

[٤] EI², "Diwân", vol II, p. 334.

[٥] انظر الصابيء، الوزراء: ٢٨٦.

[٦] احدثه ابو حسن علي بن الفرات في وزارته الثانية للمقتدر سنة ٢٩٩ (انظر المصدر السابق: ٣١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, VolII, p. 408.)

[٧] انظر الصابيء، الوزراء: ٣١١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, Vol II, p.741

[٨] انظر EI², "Diwân", Vol II, p. 334.

[٩] انظر الصابيء، الوزراء: ٤١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, Vol II, p. 396.

ان تطور الجهاز الاداري يشير الى المرونة التي صار هذا الجهاز يتمتع بها في العصر العباسي وذلك بخاصة باستحداث المجالس والدواوين الجديدة تلبية للحاجة وطلبا للاختصاص الادق.

وكان الكتّاب يتولون هذه الدواوين ونشير الى ان الكاتب كان يتولى احيانا اكثر من ديوان، ونأخذ على سبيل المثال صورة الدواوين في نهاية القرن الثاني، في خلافة الرشيد، كما يعطينها الجهشياري، يقول: "وتوفي الرشيد سنة اثنتين وتسعين ومئة، وعلى نفقاته وتدبير اموره الفضل بن الربيع، وعلى ديوان الرسائل، وديوان السر، وديوان الضياع، وديوان الصوافي، اسماعيل بن صبيح"[1]. مما يشير الى تولي الكاتب اربعة دواوين دفعة واحدة. غير انه — بالمقابل — كان يحدث ان يشترك كاتبان في ديوان واحد اذ كان على ديوان الجند في خلافة الرشيد ابن الشذير الهذلي وعبد الله بن عبدة الطائي[2].

ولم يتسم العمل في الدواوين بالفوضى، بل كان هنالك دوام من المفروض ان يتقيد الكاتب به، ويرقى الالتزام بدوام معين الى العصر الاموي الى خلافة هشام بن عبد الملك[3]، غير اننا لا نعرف على الوجه الصحيح عدد ساعات العمل وما اذا كانت الدواوين ككل تخضع لدوام واحد ام ان الامر كان يختلف باختلاف الديوان والزمان، ولكننا نعرف ان العمل في

---

[1] انظر الجهشياري، الوزراء: ٢٧٧.

[2] انظر المصدر السابق: ٢٧٧.

[3] يقول الجهشياري (المصدر السابق: ٦٤): " ان بعض كتّاب يوسف بن عمر تأخر عن حضور ديوانه يوما، فدعا به، فسأله عن تأخره، فعرّفه ان فرسه ضرب عليه، فقلع له ضرسين". مما يشير الى ان رغبة الوالي بالتزام الكاتب بالدوام بلغت حدّ القسوة، وان المرض لم يكن احيانا عذرا مقبولا للتأخر او للتغيّب.

الديوان كان منظما بحيث سمح للكاتب بأتخاذ عطلة اسبوعية ، والجهشياري يخبرنا انه في خلافة المهدى(١٥٨ - ١٦٩) جعل الخليفة يوم الخميس عطلة للكتّاب،ويوم الجمعة للصلاة[١]. ولكن المعتصم الغى هذا الرسم واقتصرت عطلة الكتّاب على يوم الجمعة. غير ان الصابىء ، يشير الى ان الخليفة المعتضد (٢٧٩ -٢٨٩) ، جعل الثلاثاء عطلة للكتّاب بالاضافة الى يوم الجمعة[٢]. لكنلا بد من التوضيح من ان العطلة لا تعني انه لا يجوز الاستعانة بالكاتب ان جد امر ما ، فأن الجهشياري يشير الى ان موسى ابن ابي الزرقاء (والي فارس في خلافة المأمون) استدعى كاتبه يوم الجمعة لحاجته اليه فلبى الكاتب طلبه[٣].

جـ - نماذج من ترتيب الديوان

لا بد بعد الفراغ من تعداد الدواوين من الاشارة الى طبيعة العمليات الكتابية التي كان يقوم الكتّاب بها ، وذلك لكي نعرف الموضوعات التي تم اثباتها في سجلات الدواوين الرسمية وكيف خضعت للتقيد الكتابي ونعول في هذا الفصل على الماوردى بخاصة ، وهو الذى افرد فصلاكاملا في كتابة "الاحكام السلطانية" لترتيب الديوان.

يشتمل الديوان اولا على تفصيل كامل للاعمال. يقول الماوردى:"واما القسم الثاني فيما اختص بالاعمال من رسوم وحقوق فيشتمل على ستة فصول: احدها تحديد العمل بما يتميّز به من غيره ، وتفصيل نواحيه التي تختلف احكامها ، فيجعل لكل بلد حدا لا يشاركه فيه غيره وتفصل نواحي كل بلد اذا اختلفت احكام نواحيه"[٤]. ويشير الماوردى الى ان

---

[١] انظر الجهشياري ، الوزراء : ١٦٦ .

[٢] انظر الصابىء ، الوزراء : ٢٢ .

[٣] انظر الجهشياري ، الوزراء : ٣٠٢ .

[٤] الماوردى ، احكام : ١٩٦ .

الاعمال المتعلقة بجميع النواحي كانت متوفرة في ديوان السلطنة اى في ديوان المركز. وبعد تفصيل النواحي يأتي تفصيل حكم الاراضي الواقعة في ناحية من النواحي اذا كانت خاضعة لحكم الخراج او لضريبة العشر. فأذا كان جميع الاراضي اراضي عشر" ... لم يلزم اثبات مسايحه لان العشر على الزرع دون المساحة ويكون ما استؤنف زرعه مرفوعا الى ديوان العشر لا مستخرجا منه".

نحن هنا اذن بأزاء نوعين من الكتابة : اخراج الاحوال، اى احوال الارض ، اذا كانت ارض خراج او ارض عشر ، فيكون حكم الديوان هو الشاهد على حال الارض، ولا يعول في ذلك على صاحب الارض. فيعمد كاتب الديوان الى استخراج مسايح الارض فيما يتعلق بأرض الخراج وكذلك مبلغ المقاسمة. وثانيا : اثبات الرفوع ، اى تسجيل ما يرفع الى الديوان من امور تتعلق بالارض. ويتناول الاثبات بالنسبة لارض العشر انواع الزروع ،

---

[1] المصدر السابق: ١٩٦.

وبالنسبة لارض الخراج مقادير الكيول بالنسبة للمقاسمة ، واجناس الزروع اذا كان الخراج رزقا يختلف باختلاف الزروع.

ولا تقتصر مهمة الكاتب على ذلك بل يضيف اليها الماوردى اربعة اشياء : يقول :" فالذى ندب له (كاتب الديوان) ستة اشياء : حفظ القوانين ، واستيفاء الحقوق ، واثبات الرفوع ، ومحاسبات العمال ، واخراج الاحوال ، وتصفح الظلامات "[1]. اما حفظ القوانين فيكمن بالعمل على وصول حقوق بيت المال كاملة ، ويكون ذلك بأثبات حال الارض في ديوان الناحية ، وفي ديوان بيت المال. فيكون اذن في ديوان المركز نسختان عن حال الارض . واما استيفاء الحقوق فيكون على سبيل اقرار العمال بقبضها عن طريق العاملين[2]. واثبات الرفوع يكون بمقارنة ما يرفع الى ديوان الخراج من مساحة ومقارنتها بالاصول ، فاذا كانت

---

[1] انظر المصدر السابق : ٢٠٥.

[2] انظر تعريف العاملين (Collectors) في N.P. Aghnidès, Mohammadean Theory of Finance (New York, 1916) p. 495.

موافقة لها اثبتت في الديوان، وان لم يكن لها اصول بالتحديد، بل كانت اصولها مقدرة، "عمل في اثباتها على قول رافعها"[1]. اما محاسبة العمال فتتم فيما يتعلق بأموال الخراج وليس بأموال العشر حسب مذهب الشافعي لان ابا حنيفة يرى محاسبتهم في اموال العشر. يرفع العامل الحساب اى المقيمة المتحصلة من جباية الضريبة ويتم اثباتها في الديوان[2]. اما اخراج الاحوال "فهو استشهاد صاحب الديوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق فصار كالشهادة ..."[3] ويستشهد صاحب الديوان اذا استدعي لذلك واذا دخلت الاعمال ريبة ويعوّل على السجلات ليثبت وجهة نظره[4].

هذه هي باختصار العمليات الكتابية التي كانت تتم في اطار الديوان وهي خاصة بجباية الخراج. ونذكر ان ديوان الاعطاء - اى ديوان الجند - كانت مهمته نوعا آخر من العمليات الكتابية وقد ذكرها الماوردى كذلك بالتفصيل. فيكون ترتيب الجند على اساس الانتماء القبلي اذا كان الجند عربا، والعرقي اذا كانوا من غير العرب، كالترك والهند، واذا لم يكونوا اجناسا تم ترتيبهم حسب البلدان "واذا تميّزوا بالاجناس او البلدان فأن كانت لهم سابقة في الاسلام ترتبوا عليها في الديوان ان لم تكن لهم سابقة ترتبوا بالقرب من ولي الامر فأن تساووا فبالسبق الى طاعته"[5].

---

[1] الماوردى، احكام : ٢٠٩ .

[2] يرى كاهن (Islam I, p. 84) ان المبلغ المتحصل في الضريبة نادرا ما كان يرسل الى المركز فيلجأ المتعهدون الى ارسال ايصال بقيمة المبلغ يعرف المركز بموجبه الكمية التي يمكن ان يعتمد عليها عند الضرورة. ويشير الصابىء ،(الوزراء :٨١) الى ان استخدام السفاتج كان شائعا وكان يسمح للسلطة المركزية بسحب المبالغ من كبار التجار اذ يستطيع هؤلاء بفضل علاقاتهم التجارية واتساع شبكة اعمالهم ان يستردوا الاموال من الاطراف .

[3] الماوردى، احكام : ٣٠٧ .

[4] انظر المصدر السابق : ٣٠٧ .

[5] المصدر السابق : ١٩٥ .

هذا هو الترتيب العام في الديوان وهو ليس الترتيب الوحيد لأن هنالك ترتيبا خاصا هو، حسب الماوردى، "ترتيب الواحد بعد الواحد، يرتب بالسابقة في الاسلام، فأن تكافئوافي السابقة، ترتبوا بالدين، فأن تقاربوا فيه ترتبوا بالسن، فأن تقاربوا فيها ترتبوا بالشجاعة، فأن تقاربوا فيها فولي الامر بالخيار بين ان يرتبهم بالقرعة، اويرتبهم على رأيه واجتهاده."[1]. اما تقرير الاعطاء فيكون حسب الكفاية. ويقول الماوردى :" والكفاية معتبرة في ثلاثة اوجه، احدها عدد من يعوله من الذرارى والمماليك، والثاني عدد ما يرتبطه من الخيل والظهر،والثالث الموضع الذى يحلّه في الغلاء والرخص"[2]. وتكون هذه الامور مثبتة في سجلات الاعطاء.

ولا تقتصر العمليات الكتابية على هذين الديوانين، اى الخراج والاعطاء لكن الماوردى اقتصر على ذكرهما لسبب معالجة احكام الشرع لهما من حيث تعريفهما واقامة الحدود في ذلك[3].

اخيرا تتطلب هذه العمليات الكتابية كتّابا متخصصين يمارسون صناعتهم حسب قواعد تقنية وبلاغية يتفردون بمعرفتها ويحتكرون بفضلها صناعة الكتابة، وهذا ما سوف نفصل فيه القول في الفصل الرابع وانما علينا قبل ذلك ان نبحث في اثر تطور الجهاز الادارى في ظهور منصب ادارى جديد يتولى رئاسة هذا الجهاز وهذا ما نعنيه بالمرتبة الثانية.

---

[1] المصدر السابق : ١٩٥ .

[2] المصدر السابق : ١٩٥ .

[3] انظر المصدر السابق : ١٩٣ .

II — المرتبة الثانية (الوزارة)

تأتي المرتبة الثانية بعد مرتبة الخليفة، وتعني بها في المرحلة الاولى — اى في مطلع العصر العباسي — معاونة الخليفة في تسيير الامور الادارية[1]، وفي مرحلة متأخرة نسبيا، رئاسة دواوين الادارة. وكان لقب صاحب هذه المرتبة يختلف باختلاف المرحلة التاريخية، كان يشار اليه في البداية بعدّة تسميات منها: المدبر للامور والمكلّف بالعرض على الخليفة، وكاتب الخليفة ووزيره، ثم تغلب لقب الوزير على التسميات الاخرى واصبح يطلق على صاحب المرتبة الثانية بصورة مستمرة كما سوف نبين. وقد فضلنا استخدام عبارة صاحب المرتبة الثانية على لفظة وزير لان الاولى اكثر شمولا من الثانية بالنسبة لمختلف الفترات التاريخية التي يغطيها هذا القسم.

أ — الالقاب المتنافسة على المرتبة الثانية

كان يدور حول المرتبة الثانية صراع بين عدة اطراف، والالقاب الاساسية المعنية بالصراع هي، حتى مطلع القرن الرابع الهجرى، الكاتب والحاجب والقائد العسكرى. ونستثني من هذا الصراع القاضي، ذلك ان القاضي لم يحتل رئاسة الدواوين ولم يتولّ مهمات ادارية ولم يطلق عليه ابدا لقب الوزير ولا يذكر التاريخ حتى العصر الذى ندرسه

---

[1] ترقى معاونة الخليفة في تدبير شؤون الادارة الى العصر الاموى اذ كان الخليفة عادة يعيّن كاتبا يكتب بين يديه يلازمه ويشير عليه بالعمل الصواب بمنزلة عبد الحميد الكاتب من مروان بن محمد (انظر الجهشيارى، الوزراء: ٧٢).

ان قاضيا استطاع ان يصبح من الكتّاب[1]. وهذا لايعني انه لم يكن للقاضي نفوذ واسع فاق احيانا نفوذ الوزير وذلك لاسيما في خلافتي المعتصم والواثق عندما تمتع القاضي احمد بن ابي دؤاد بملازمة الخليفة بصفته مستشارا في الامور السياسية[2]، والارجح ان نفوذه كان اقوى من نفوذ الوزير الذى كان آنذاك محمد بن عبد الملك الزيات لكن الصلاحيات التي تمتع بها هذا القاضي — اعني ابن ابي دؤاد — كانت مؤقتة وقد شغل هذا المنصب لحاجة المأمون اليه في تطبيق المحنة. وقد ازال المتوكل سيطرته بعد العودة الى التسنن اى حوالي سنة ٢٣٣[3].

---

[1] يورد الصابئ (الوزراء : ٣٢٢) مايؤكد ذلك يقول : "قال ابو قاسم الخاقاني في وزارته (٢٩٩ — ٣٠١) : اشرت على المقتدر بالله بتقليد ابي الحسن علي بن عيسى الاشراف على مصر والشام فرأيته متكرّها ... فاقبلت أصفه بالموالاة والثقة... فقال: هو كما تصف ولكن احفظني عليه ان سمته تقلّد وزارتي في أيام حامد بن العباس فامتنع وثقل علي امتناعه وشاورته فيمن يراه لهذا الامر فقال: ابو عمر محمد بن يوسف القاضي. فعلمت انه غشّني ولم ينصح لي. فقلت : وما لمحمد بن يوسف يا أمير المؤمنين ؟ فقال: لعمرى انه عالم ثقة الا انني لو فعلت ذاك لافتضحت عند ملوك الاسلام والكفر لانني كنت بين امرين: اما ان تتصور مملكتي بانها خالية من كاتب يصلح للوزارة فيصغر الامر في نفوسهم، او اني عدلت عن الوزراء الى اصحاب الطيالس فانسب الى سوء الاختيار".

[2] انظر التنوخي، الفرج بعد الشدّة (تحقيق عبّود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨) ١ : ٣٩٣ و ٢ : ٦٠-٦٥.

[3] انظر ابن الاثير، الكامل ٧ :٥٩ وأيضا C. Cahen, Islaml, p.7.

١ — الكاتب

ان الكتّاب هم المعنيون مباشرة بالصراع على المرتبة الثانية ، ذلك بعد ان تمّ تحييدهم بالنسبة للصراع على المرتبة الاولى — اى الخلافة — لان هذا الصراع — كما مرّ معنا — يعني تكتلات أخرى تطالب بالخلافة على اساس الشرعية[١] . وكان الكتّاب يطالبون — كما سبق ورأينا — باستقرار السلطة المتمثلة بالخلافة ايا كانت وذلك في مرحلة مبكرة ، أى في نهاية العصر الأموى وبداية العباسي[٢] . ولقد حاولوا في هذه المرحلة المحافظة على الجهاز الادارى لانه الحيّز الوحيد الذى يسمح لهم بممارسة صناعتهم. لقد حاول الكاتب احتلال المرتبة الثانية بصفته رئيسا للدواوين وقيما على الجهاز الادارى عامة. لكنه لم يتوصل الى هذه المرتبة الاّ بعد تطورات عدّة سوف نعرض لها مباشرة.

أ — الكاتب رئيس الدواوين

كان كاتب الخليفة في بداية العصر العباسي هو الشخص المقرّب منه ، الملازم له الذى تتعدى مهماته الشؤون الادارية الصرف الى امور اخرى تتعلق بمعاونته ومشاركته النظر في القضايا السياسية واليومية ،وافضل عبارة تفيد هذا المعنى هي عبارة خصّ او اختصّ فلان بالخليفة اى افرده به دون غيره[٣] ، ويأتي هذا المعنى على سبيل تأكيد ما ذكرناه من ان الملازم للخليفة لايداوم في الدواوين ومحله ابدا الى جانب صاحب السلطان. وفي هذا

---

[١] انظر ما سبق ص : ١٧.

[٢] ونرى ان هذا الامر استمر حتى اواخر القرن الثالث الذى شهد حياد الكاتب نسبيا بالنسبة للصراع على الخلافة. لكن نرى سنة ٢٩٦ الكتّاب يشاركون في الانقلاب القنائي الذى كان هدفه تنصيب ابن المعتز بدل المقتدر في الخلافة. لكن الكتّاب سرعان ما انكفأوا وتراجعوا عن موقفهم. (انظر عريب ، الصّلة في تاريخ الطبرى ، تحقيق دوخويه ، ليدن ، ١٨٩٧ : ٣٠).

[٣] انظر الجهشيارى، الوزراء :٥٣ .

المجال يحدثنا الجهشياري ان كاتب المنصور كان عند توليه الخلافة عبد الملك بن حميد [1]. وقد كان ذلك رسما لدى الخلفاء ، اذ هم يبادرون الى اختيار من يلازمهم على ان يكون هذا الذي يختارونه هو كاتبهم. فاذا عجز كاتب الخليفة عن ملازمته فلا بد للخليفة من الاستعانة بغيره. وقد حدث انه عندما تعذّر على عبد الملك بن حميد — كاتب المنصور — التفرغ للخليفة امره الخليفة باتخاذ من ينوب عنه اذا غاب عن حضرته" ... واتخذ ابا ايوب السوريانيّ". فاصبح ابو ايوب هذا هو الشخص الملازم للخليفة دون منازع. ويقول الجهشياري: "واعتل عبد الملك (بن حميد) من نقرس كان به ، فلم يزل امر ابي ايوب يعلو ، ومحله من ابي جعفر يزيد حتى قلّده وزارته ، وفوض اليه امره كله" [2].

مما يشير الى ان مهمة ابي ايوب لم تنحصر في ملازمة الخليفة بل انه كان يقوم بالمهام الادارية. لكن عندما نكب المنصور ابا ايوب سنة ١٥٣ وزع مسؤولياته على عدد من الاشخاص، يقول الجهشياري ان المنصور قلد كتابه الرسائل والسر ابان بن صدقة ، وقلد ضياعه صاعدا مولاه ، كما انه قلد الربيع بن يونس — مولاه — نفقاته

---

[1] انظر المصدر السابق: ٩٦.

[2] المصدر السابق: ٩٧.

والعرض عليه "[1]. واصبح على الارجح الاشراف على الدواوين والفصل في القضايا الادارية ، بصورة نهائية ، عائدا الى الخليفة المنصور وذلك وفقا لما يرويه الجهشياري حول اصرار المنصور على معالجة الشؤون الادارية وتردده باستمرار على الديوان[2]. ذلك كله يشير الى ان الوزارة لم تكن ركنا ثابتا من أركان السلطة. وقد عرف المنصور أركان السلطة على انها متمثلة بالقاضي وصاحب الشرطة وصاحب الخراج وصاحب البريد دون أن يأتي على ذكر رئاسة الدواوين او الوزارة[3].

---

[1] المصدر السابق: ١٢٥.

[2] انظر الجهشياري، الوزراء : ١٣٩ — ١٤٠.

[3] يقول ابن الاثير (الكامل ٦ : ٢٦) :" كان المنصور يقول: ما احوجني ان يكون على بابي نفر لا يكون على بابي اعف منهم هم اركان الدولة ولا يصلح الملك الاّ بهم. اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية. ثم عضّ على اصبعه السبابة ثلاث مرّات يقول في كل مرة : آه ، آه. قيل: ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحّة".

اما في خلافة المهدى فنرى تطورا في مفهوم المرتبة الثانية التي احتلها ابو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار من سنة ١٥٩هـ بصفته كاتبا حائزا على لقب الوزارة ومدبرا لشؤون الادارة العامة ، وكان يتولى بنفسه تقليد الكتاب والعمال الاعمال [1] مما يشير الى سعة نفوذه. ثم استوزر المهدى بعده كاتبا آخر هو يعقوب بن داود سنة ١٦٣ [2] واستوزر ايضا الفيض بن ابي صالح وهو رجل يشير الجهشيارى الى كرمه وغناه لكنه لايشير الى حظه من الكتابة [3].

وترقى الخطوة الحاسمة بالنسبة لنمو المرتبة الثانية الى خلافة الرشيد عندما تولاها يحيى بن خالد البرمكي الوزير سنة ١٦١ [4]، فاصبح صاحب الامر والنهي [5] وانتقل جانب من السلطات الادارية فعليا من الخليفة الى الوزير. ويروى الجهشيارى ان "كانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد وكان ابو العباس الطوسي (صاحب ديوان الخاتم) يتعقد في ختم الكتب، فشكا يحيى الى الرشيد تأخر الكتب فأمره ان يكاتب العمال عن نفسه ،

---

[1] يقول الجهشيارى (الوزراء :١٤١) :"ولما تقلد المهدى الخلافة قلّد اباعبيد الله معاوية وزارته ودواوينه ... وكان من كتّاب ابي عبيد الله عبيد الله بن عمران مولى مذحج ،ويزيد الاحول... ومحمد بن سعيد بن عقبة ،قلده الخراج بمصر ، وغيرهم".

[2] انظر المصدر السابق : ١٥٨-١٥٩.

[3] انظر المصدر السابق :١٦٤.

[4] انظر المصدر السابق :١٧٧.

[5] يقول الجهشيارى (المصدر السابق :١٧٧) : "وكانت الدواوين كلها الى يحيى بن خالد مع الوزارة ، سوى ديوان الخاتم فانه كان الى ابي العباس الطوسي". وكان الرشيد يخاطب يحيى قائلا :"يا أبة ، انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك". كذلك كان لابناء يحيى منزلة من الرشيد" فكان الرشيد يسمي جعفرا (بن يحيى) أخي ، ويدخله معه في ثوبه ..." (المصدر السابق :٢٠٤).

وأمر كاتبه ان يكتب عنه في المهم ، وان يؤرخ الكتب باسم الكاتب"[1]. وهذه الرواية تشير بوضوح الى ان مكاتبة العمال انتقلت من الخليفة الى الكاتب الوزير بارادة الخليفة نفسه ، وان كاتب الرسائل أفاد شخصيا من انتقال المسؤوليات هذا اذ اصبح يؤرخ الكتب ويكتب عن الخليفة في المهم. لقد افاد آل برمك عامة لاسيما الذين احتلوا مراكز ادارية[2] من نمو صلاحيات الوزير يحيى وحصل مع الكتاب العاملين في دواوينهم ما حصل مع كتاب يحيى من اتساع في النفوذ والصلاحيات[3] — لكن المرتبة الثانية

---

[1] المصدر السابق : ١٧٨.

[2] تولى جعفر (بن يحيى) المظالم (انظر المصدر السابق: ٢١٠ — ٢١١) وكان يتقلد ايضا المغرب كله وقلده الرشيد بريد الآفاق ودور الضرب والطرز في جميع الكور ثم قلده خاتمه (انظر المصدر السابق: ١٩٠، ٢٠٤، ٢٠٧).

[3] يورد الجهشياري رواية اخرى تشير الى توسع صلاحيات الكاتب الذي يكتب بين يدي صاحب ديوان المظالم ، يقول (المصدر السابق: ٢١٠-٢١١): "لم يكن للكتاب في ذلك الامر (اي التوقيع) شيء اكثر من ان يكتبوا تلك الجملة من التوقيع الفاظا تشرحها ويقرب فهمها من العامة ، ولاتخرجها عن معنى قصد الرئيس، الى أيام الرشيد فان المتظلمين كثروا على باب جعفر (بن يحيى) وتأخر جلوسه اياما ، ثم جلس وكانت القصص قد كثرت فنفض اكثرها ، وجاءه رسول الرشيد يأمره بالمصير اليه. فقال للرسول: قل له : يا سيدي الساعة اجيء ، ونظر فيما بقي فجاءه الرسول ثانية يستحثه وكان في القصص قصة طويلة ، دقيقة الخط ، رديئته ، فوافاه الرسول وهي في يده ... وكره ... ان تطرح فيما لم ينظر فيه فوقع على ظهرها : يعمل بذلك بما يعمل في مثله على سنن الحق وقصده وجهة الانصاف وسبيله انشاء الله. فورد على الكتاب ذلك ما لم يرد مثله وامتثلوه ثم صار ذلك رسما للرؤساء." وتشير هذه الرواية بوضوح الى تحول الكاتب في ديوان المظالم من كاتب لفظ الى كاتب حكم ينظر في الرقاع ويطبق الاحكام الخاصة بها.

المتمثلة برئاسة الدواوين لم تعد منصبا ثابتا بعد نكبة البرامكة سنة ١٧٨ اذ نرى الرشيد بعد هذا التاريخ يقسم مسؤوليات الوزير السابق يحيى فيما بين الكتّاب دون ان يوكل امره كله الى احدهم. والجهشياري يعلمنا ان الرشيد قلد اسماعيل بن صبيح ديوان الرسائل وديوان السرّ ودواوين اخرى[١].

وقد حلّ في المرتبة الثانية في خلافة المأمون الفضل بن سهل — كاتب المأمون — وقد تمتع بلقب ذي الرياستين، "رياسة الحرب ورياسة التدبير"[٢]، وتعتبر هذه المسؤولية المزدوجة محاولة لضم المسؤوليات العسكرية الى المسؤوليات الادارية. وتأمير الكاتب لم يكن امرا جديدا اذ يروى الجهشياري ان يحيى البرمكي"... أول من أمّر من الوزراء"[٣]. غير ان محاولة ضمّ هاتين المسؤوليتين انتهت بمقتل الفضل بن سهل وعاد لقب الوزير يطلق على صاحب المرتبة الثانية دون ان يكون له صفة عسكرية وذلك على الاقل في الفترة التي تلت مقتل الفضل[٤].

وتميّزت خلافة المعتصم والواثق والمتوكل بظهور الوزير الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات الذي تولى شؤون الادارة من سنة ٢٢٢حتى سنة ٢٣٣. ولم يكن الوزير يحظى بملازمة الخليفة اذ كان القاضي ابن ابي دؤاد يتمتع بهذا الامتياز كما سبق ورأينا. ونشير الى انه تمت في خلافة المتوكل قفزة الى الامام في الفصل بين

---

[١] انظر المصدر السابق : ٢٥٧ ، ٢٧٧.

[٢] المصدر السابق : ٣٠٥ — ٣٠٦.

[٣] المصدر السابق : ١٧٧.

[٤] يعود ضم الامارة الى الكتابة ليبرز مع عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل سنة ٢٣٧ اذ يذكر ابن الاثير (الكامل ٧ : ٤٨) ان عبيد الله كان قائد عدد من الجند الشاكرية.

ملازمة الخليفة والاشراف على الدواوين، فقد كان الفتح بن خاقان سمير الخليفة وحظيّه، ولم يتول له شؤونا ادارية هامة. ويشير الطبرى الى ان الفتح بن خاقان "... تقلد بريد سامّراء وقهرمة بلاط الهاروني"[1]، اما كاتب الخليفة فكان عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وذلك سنة ٢٣٦[2].

وتلي هذه الفترة مرحلة من عدم الاستقرار السياسي والنفوذ العسكرى تحجمت فيه رئاسة الدواوين وافل نجم الوزارة بسبب تغلّب العنصر العسكرى كما سوف نرى، واستمر ذلك حتى تولي المقتدر بالله الخلافة سنة ٢٩٦.

ولقد بلغت المرتبة الثانية اوجها في خلافة المقتدر مع ابن الفرات وعلي بن عيسى ابن الجراح الوزيرين. واصبح لقب الوزارة يطلق باستمرار على صاحب المرتبة الثانية. ولقد انعكس هذا الوضع على الجهاز الادارى وعلى الكتّاب الذين توسعت صلاحياتهم. ونذكر مثلا ان الجهاز الادارى المكوّن من الكتّاب اصبحت له صفة استشارية وصلاحية تقرير امور مهمة كالغاء ضريبة ما مثلا: يذكر الصابىء ان علي بن عيسى الوزير شاور الكتّاب وجمعهم الى القضاة لمناقشة مسألة الغاء ضريبة التكملة[3]،وهي الضريبة التي فرضها المهدى على اهل الخراج في فارس ويروى الصابىء ان الكتاب

---

[1] الطبرى، تاريخ ٩: ١٨٤، ٢٢٤ — ٢٢٥. وبلاط الهاروني :يقع على طريق مكة (انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ٣٠).

[2] انظر ابن الاثير الكامل ٧: ٥٦.

[3] ضريبة التكملة ضريبة خاصة ببلاد فارس وهي الزيادة التي وقعت على اهل الخراج لان بعض ارباب الخراج تركوا البلاد لثقله عليهم فوزع خراج هؤلاء على الباقين واضيفت قيمته على خراجهم سوى ارباب الشجر اى الاشجار المثمرة فانه قد تم اعفاؤهم من الخراج والتكملة بمبادرة من الخليفة المهدى واستمر الامر على هذه الحال حتى خلافة المقتدر اذ تذمر اهل فارس من وطأة التكملة وعرضوا على الوزير علي بن عيسى اعفاءهم منها بان يفرض الخراج من جديد على ارباب الشجر (انظر الصابىء، الوزراء: ٣٤٠ — ٣٤٢ والجهشيارى الوزراء: ١٥١).

قرروا الغاء الضريبة فتم ذلك[1].

ولابد ان نذكر ان المرتبة الثانية شهدت ازمة في خلافة المقتدر مصدرها عدم توفر كاتب قادر على تولي المهمات الادارية راغب في المرتبة الثانية معا، وذلك بسبب تعقد الاوضاع الادارية السياسية التي يصعب النهوض بها. هذا ما حصل سنة ٣٠٧ اذ لجأ الخليفة المقتدر الى تعيين وزير ليس كاتبا هو حامد بن العباس وقد تم على اساس ذلك الفصل بين المرتبة الثانية (الوزارة) ورئاسة الدواوين اذ لم يكن الوزير هو المتولي للشؤون الادارية بل علي بن عيسى الكاتب[2]. وكان لعلي بن عيسى بن داود بن الجراح صلاحيات واسعة في اتخاذ القرارات الادارية لكنه لم يكن وزيرا ولم يحلّ في المرتبة الثانية. ان هذه المرتبة بحاجة الى صاحب كفاية وهذا لم يكن متوفرا دائما. وحتى في حال كان صاحب المرتبة الثانية كاتبا فقد كان يقع احيانا في التقصير بالنسبة لضبط الامور فتسود الفوضى. قد يبلغ هذا حدا بعيدا كما حدث سنة ٢٩٩ مع محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الكاتب (وزير المقتدر)، اذ يروى الصابيء انه (اى عبيد الله) "بسط يده وايدى اولاده وكتّابه بالتوقيعات والصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف [illegible] المعاملات واخذ المرافق على اضاعة الحقوق فسخفت الوزارة."[3]

---

[1] يقول الصابيء: (الوزراء :٣٤١ — ٣٤٢) :"قال الكتّاب: ان كان المهدى شرط شرطا لمصلحة رآها في الحال ثم زالت سقط الشرط ورجع الحكم الى الاصل". (والاصل عدم فرض التكملة).

[2] ابن الاثير، الكامل ٨ :١١٢.

[3] الصابيء، الوزراء :٢٦٣، يصف الصابيء (الوزراء :٢٣٨) علي بن محمد بن الفرات الذى كان صاحب كفاية، يقول: ومن رسمه (اى علي بن الفرات) ان يغدوا اليه الكتّاب فيوافقهم على الاعمال ويسلم الى كل منهم مما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به. ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعمالهم فيوافقهم عليها وعلى ما اخرجوه من الخروج وامضوه من الامور ويقيمون الى بعض من الليل واذا خفّ العمل وقد عرضت عليه في اثنائه الكتب بالنفقات والتسبيبات والاطلاقات والحسبانات نهض من مجلسه وانصرفت الجماعة بعد قيامه".

ب— كاتب ولي العهد

كانت هناك عدة عوامل جعلت الكاتب اوفر حظا من غيره في احتلال المرتبة الثانية من هذه العوامل جعل هذه المرتبة — اي الوزارة — تعود تلقائيا لكاتب ولي العهد. ونحن نعرف ان معاوية عين ابنه يزيد خليفة من بعده ووضع بذلك الاسس البدائية لنظام وراثي. وقد يكون معاوية قام بهذه المبادرة لاحباط محاولة الاستيلاء على الخلافة من قبل فرقاء عدة[1]. وبعد معاوية اتّبع الخلفاء رسميا يقضي بتعيين ولي عهد لهم، او حتى اولياء عهد، يعتلون سدّة الخلافة بعدهم. فهارون الرشيد عقد لاولاده الثلاثة من بعده وهم محمد (الامين) وعبد الله (المأمون) والقاسم (المعتصم)[2]. انولّي العهد هو — من حيث المبدأ — خليفة المستقبل ولايمكن شرعا — من حيث المبدأ — خلعه ولا حمله قسرا على التنازل.

وقد نشأت في بداية العصر العباسي ظاهرة ضمّ كاتب الى ولي العهد، يرافقه ويخص به على ان يتدرب ولي العهد على الخلافة والكاتب على تدبير الشؤون الادارية، حتى اذا صار ولي العهد خليفة انتقل كاتبه الى رئاسة الدواوين مباشرة كما سوف نرى. ونشير الى ان هذه الظاهرة ترقى في الزمن الى خلافة المنصور[3]، وليس الى الفترات السابقة، اذ لايشير الجهشياري اليها في العصر الاموي،

---

[1] هذا مايرجحه لامنس (Mo'âwia, p. 283) في قوله ان معاوية رأى انه لايمكن القبض على زمام الحكم في الدولة الاسلامية الا عن طريق تعيين خليفة له.

[2] انظر الجهشياري، الوزراء : ٢٦٥.

[3] انظر المصدر السابق : ١٢٦ — ١٢٩.

وكل ما كان ولي العهد يحظى به في العصر الاموى على حسب قول لامنس — هو ان يقوم مؤدب بتلقينه الآداب على انواعها ، كما حدث مثلا مع يزيد بن معاوية[1] . وذلك امر لنستدل على وجوده في رسالة عبد الحميد الى ولي العهد والتي فيها اتى على ذكر المؤدبين[2] .

ويضع الجاحظ عبد الحميد الكاتب في فئة المعلمين[3] ، وهذا امر لافت للنظر اذ نعلم ان عبد الحميد كان يكتب للخليفة مروان بن محمد. وفي جميع الاحوال كان يحدث في العصر العباسي ان يتحوّل المعلم الى كاتب كما حصل مع كاتب المهدى وهو ولي عهد ، اعني معاوية بن عبيد الله بن يسار. وينقل الجهشيارى تلاسنا حدث بين معاوية بن عبيد الله هذا والشقفي البصرى الذى كان في صحابة المهدى، قال:"فتكلم الشقفي يوما (في مجلس الخليفة المهدى) فلحن، فقال له ابو عبيد الله : اتجالس امير المؤمنين بالملحون من الكلام ؟ اما كان يجب عليك ان تقوّم من لسانك فقال له الشقفي : انما يحتاج الى استعمال الاعراب في جميع الكلام ، يا ابا عبيد الله المعلمون، لينفقوا عند من التمسهم لتعليم ولده ، يعرّض بأبي عبيد الله ، لانه كان معلما في اول امره"[4] . وتشير هذه الرواية الى ان تحوّل المعلم الى كاتب

---

[1] انظر H. Lammens, Mo'âwia, p.350 ولم يصلنا اسم المؤدب الذى خصّ به يزيد بن معاوية ونستطيع ان نتساءل ما اذا كان العرب اخذوا مبدأ الحاق مؤدب باولادهم عن البيزنطيين.

[2] يقول عبد الحميد في الرسالة الى ولي العهد (في رسائل البلغاء : ١٧٣ — ١٧٤) : "لو كان المؤدبون اخذوا العلم من عند انفسهم ، او لقنوه الهاما من تلقائهم ، ولم نصبهم تعلموا شيئا من غيرهم ، لتحلناهم علم الغيب". ويشير لامنس (Mo'âwia, p. 236) الى ان المؤدبين في العصر الاموى كانوا من اهل الذمة او من الموالي وكانت مهنتهم تعتبر مهينة بالنسبة للفاتحين.

[3] انظر الجاحظ ،البيان والتبيين(تحقيق عبد السلام هارون ،الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٩) ١ :٢٥١.

[4] الجهشيارى ، الوزراء :١٤٥.

كان يعتبر ترقيا في المنزلة الاجتماعية وهذا امر يشير الى تمايز الوظيفتين [١].

ونذكر ان مبدأ تعيين كتاب يكتبون لاولاد الخليفة لم يقتصر على اولياء العهد بل تعدّاهم الى غيرهم من اولاد الخليفة ، ونذكر مثالا على ذلك ان الخليفة المنصور قلّد معاوية بن عبيد الله بن يسار كتابة المهدى [٢] وعيّن فضيل بن عمران [٣] يكتب لابنه جعفر ويقوم بامره بمنزلة ابي عبيد الله مع المهدى [٤].

ولقد كان كاتب ولي العهد يعتبر مرشحا للمرتبة الثانية ، وهذا على الاقل ما يشير اليه الجهشيارى في رواية يستنكر فيها خالد ابن برمك خوف ابي عبيد الله معاوية من مواجهة الخليفة المنصور قائلا:" انت ترشّح نفسك لتدبير الخلافة وقد حيّرك هذا الامر الصغير."[٤] وفعلا اعتلى ابو عبيد الله منصب الوزير. ويشير الجهشيارى الى انه "لما تقلّد المهدى الخلافة قلّد ابا عبيد الله وزارته ودواوينه في سنة تسع وخمسين ومائة"[٥]. وهكذا حدث مع يحيى بن خالد بن برمك ،

---

[١] كانت وظيفة المعلم تعتبر مهينة عند العرب وكان لدى العامة مثل يقول:"فلان احمق من معلم كتّاب" (انظر الجاحظ ،البيان والتبيين ١ :٢٤٨).
ويذكر الجاحظ بيتين في هجاء المعلمين
"وكيف يرجى الرأى والعقل عند من يروح على انثى ويغدو على طفل"

[٢] انظر الجهشيارى، الوزراء : ١٢٧.

[٣] المصدر السابق: ١٢٩.

[٤] وكان سبب خوف ابي عبيد الله انفاقه مبلغا هائلا من المال عند انفاذه الى الرى مع المهدى ولي العهد وطلب المنصور برفع الحساب اليه (انظر المصدر السابق: ١٢٧).

[٥] المصدر السابق: ١٤١.

فانه كتب لهارون الرشيد وهو ولي عهد[1] ثم احتل المرتبة الثانية في خلافته.

واول مهمة يوكل بها كتّاب اولياء العهد هي تنفيذ الوصية التي يكون الخليفة قد وضعها والتي يصبح بموجبها ولي العهد خليفة. ونقع في امثلة معيّنة على سعي كاتب ولي العهد الى تنصيب صاحبه في الخلافة. هكذا نرى ابا عبيد الله معاوية، كاتب المهدي ولي عهد المنصور، يجهد لينتزع من ولي عهد ابي العباس السفاح عيسى بن موسى تنازلا يتولى المهدي بموجبه الخلافة قبل عيسى بن موسى، ويقول الجهشياري: " روى ان عيسى بن موسى لما اجاب المنصور الى ان يخلع نفسه من التقدم في ولاية العهد، وان يقدم المهدي على نفسه، امره ابو جعفر ان يخرج الى الناس فيخاطبهم بذلك، فخرج ومعه ابو عبيد الله كاتب المهدي: فدخلا المقصورة في المسجد الجامع، فقال عيسى: اني قد سلمت ولاية العهد للمهدي محمد بن امير المؤمنين وقدمته على نفسي، فقال عبيد الله: ليس هكذا ايها الامير ولكن قل لحقّه وصدقه. واخبر بما رغبت فيه وأعطيت، فقال: نعم، قد بعت نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبد الله امير المؤمنين لابنه محمد المهدي امير المؤمنين بعده بعشرة آلاف الف درهم." [2]. ففي هذا المثل نرى كاتب ولي العهد يدافع عن صاحبه المهدي لكي يصير الخليفة التالي مباشرة. ولاشك ان تقديم المهدي على عيسى بن موسى كان امرا في صالح كاتبه الذي كان من المتوقع ان يحتل المرتبة الثانية. وتصب جهود كاتب ولي العهد اجمالا في اتجاه ضمان بلوغ ولي العهد الخلافة، ويشير الجهشياري الى ان موسى الهادي "... تنكر لهارون الرشيد (ولي عهد المهدي من بعده)، وعمل على خلعه وتقليد ابنه جعفر بن

---

[1] يقول الجهشياري (المصدر السابق: ١٥٠): "اغزى المهدي ابنه هارون الصائفة في سنة ثلاث وستين ومائة، وانفذ معه خالد بن برمك، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير امر عسكره يحيى بن خالد".

[2] المصدر السابق: ١٢٦ — ١٢٧، وحصل ذلك سنة ١٤٦.

موسى وهو طفل ، فعزم هارون على اجابته ، فمنعه يحيى بن خالد (كاتبه)... ولم يزل به حتى ثبته" [1] . ان يحيى بن خالد هو هنا بمثابة المسؤول عن تنفيذ وصية الخليفة التي تنص على ان يتولى هارون الرشيد الخلافة ، واليه يعهد باتمام التعيين. واذا سعى كاتب ولي العهد الى نقض وصية سابقة ، كما فعل ابو عبيد الله معاوية بعيسى بن موسى ، فانه يعمل ضمن الحدود المشروعة ، على الاقل ظاهريا ، بجعل عيسى بن موسى يعلن تقديمه المهدى على نفسه في الخلافة . [2] .

غير ان هذا الاسلوب الذى اتبعه الكتّاب لبلوغ المرتبة الثانية ، وهو الكتابة لولي العهد ، لم يكن يشكل ضمانة تامة للكاتب في انه سوف يستمر في هذه المرتبة لدى تولي ولي العهد الخلافة . ونذكر في هذا الصدد ان جعفرا بن يحيى البرمكي كتب للمأمون وهو ولي عهد لكنّه لم يحتل المرتبة الثانية [3] . ونذكر كذلك ماحدث لابي عبيد الله معاوية (وكان كاتبا للمهدى عندما كان المهدى وليا للعهد) فان المهدى استوزره اول الامر ثم مالبث ان استبدل به يعقوب بن داود سنة ١٦٣ [4] ، ومثل ذلك ما حدث ليحيى البرمكي عندما نكبه الرشيد على ما كان عليه من منزلة وسلطة [5] .

---

[1] المصدر السابق : ١٦٩ — ١٧٠.

[2] انظر المصدر السابق : ١٢٧.

[3] انظر المصدر السابق : ٢١١ ،وقد احتل هذه المرتبة بدل جعفر الفضل ابن سهل (انظر المصدر السابق : ٢٩٢).

[4] انظر ما سبق ص: ٤٦.

[5] انظر المصدر السابق : ٢٣٤.

لكن الى جانب ذلك برزت عوامل اخرى عملت على تقويض هذا الاسلوب منذ خلافة المتوكل وهي عوامل تتصل بنمو نفوذ القادة الاتراك وتدخلهم في مسألة تنصيب الخلفاء وخلعهم كما حصل مع الخليفة المتوكل الذى قتل على يد احدهم [1] ، يضاف الى ذلك تدخلهم في شؤون الادارة ومحاولتهم الحلول محل الكاتب في تصريفها كما سوف نرى ، بل ان الكتابة لاحد القادة العسكريين اصبحت في بعض الاحيان كفيلة بان تجعل الكاتب المذكور وزيرا اكثر من الكتابة لولي العهد ، فبهذه الطريقة احتل سليمان بن وهب كاتب القائد التركي ايتاخ المرتبة الثانية في خلافة المعتمد سنة ٢٦٣ [2] . وحتى عندما قويت المرتبة الثانية المتمثلة بالوزارة في اواخر القرن الثالث وبداية الرابع فان استقلالها عن الخلافة بصورة نسبية جعل مسألة تنصيب الوزير لاتخص الخليفة وحده ، فيمكنه بالتالي توليتها كاتبه وهو بعد ولي للعهد ، وانما تخص ايضا عددا من القادة العسكريين المتنفذين ومن المقيمين في دار الخلافة كما سوف نرى.

٢ — الحاجب

نافس الحاجب [3] الكاتب على المرتبة الثانية ذلك انه لم يتم تحييد الحاجب بالنسبة للصراع على المرتبة الثانية قبل خلافة الامين كما سوف نرى. يروى الجهشيارى ان المنصور استوزر الربيع بن يونس — مولاه — وقد تمتع بلقب الوزارة مع انه ليس كاتبا بل حاجب [4] . ثم عزل موسى الهادى الربيع عن الوزارة منذ توليه الخلافة

---

[1] انظر ابن الاثير ، الكامل ٧ :١٣٧ .

[2] انظر المصدر السابق : ٧ :٣١٠.

[3] انظر مقال D. Sourdel, "Hadjib", in EI^2, vol.III, p.47.

[4] انظر الجهشيارى ، الوزراء :١٣٥ ، وانظر ايضا D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p.98.

سنة ١٦٣ واقره على دواوين الازمة وجعل وزيره ابراهيم بن ذكوان الحرّاني الاعور [١].

ونشير كذلك الى ان الرشيد استعان بعد نكبة البرامكة بالفضل ابن الربيع الحاجب [٢]. والظاهر ان تولي الحاجب للمرتبة الثانية قد ادى نوعا ما الى انحطاط المناصب الادارية الاخرى، اذ لم يعد القيمون عليها من الكتّاب بل من الخدم الذين لم يكونوا مهيئين لتصريف الامور الادارية [٣]، مما يشير الى ان الحاجب عندما احتل المرتبة الثانية لم يستطع ان يملأ فراغ الكاتب وان الدواوين ظلّت تفتقر الى رأس مدبر لها يكون قادرا شأن يحيى بن خالد البرمكي. لقد استمر الفضل بن الربيع في المرتبة الثانية الى خلافة الامين سنة ١٩٨. ويرى دومينيك سورديل ان استمرار الفضل في هذه المرتبة ليس ـ كما يراه البعض ـ انتصارا للتيار العربي على التيار الفارسي. ويرى سورديل كذلك ان العداء بين الفضل بن الربيع والبرامكة ليس خلافا على لون الجهاز الاداري ـ هل هو فارسي ام عربي ـ بل انه استمرار للعداء القائم بين الحاجب والكاتب وان حلول الفضل في هذه المرتبة هو انتصار للحجابة على الكتابة [٤]. ويروى الجهشياري في هذا المجال ان الخليفة الامين كان يحطّ من قدر كاتبه يحيى بن سليمان ويرفع من قدر حاجبه، وقد قال مرة مخاطبا كاتبه (اي يحيى بن سليمان): "... انت رجل مهذار لست بذي رأي مصيب، والرأي الى الشيخ الموفق

---

[١] انظر المصدر السابق: ١٦٧.

[٢] انظر المصدر السابق: ٢٣٣، ٢٧٧.

[٣] يقول الجهشياري (المصدر السابق: ٢٦٥) "وذكر الفضل بن مروان ان امور البريد والاخبار في ايام الرشيد (بعد نكبة البرامكة) كانت مهملة، وان مسرورا الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال: فحدثني ثابت ان الرشيد توفي وعندهم اربعة آلاف خريطة لم تفض".

[٤] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol.I,p.177.

والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك واقلامك. يعني محمد (الامين) بهذا القول الفضل بن الربيع" [١].

ولقد ازداد نفوذ الحاجب بشكل ملحوظ بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧. وأصبح الحاجب ينتمي الى فئة الجند ويمثل السلطة العسكرية في دار الخلافة. لكن تولي الحاجب شخصيا للمرتبة الثانية لم يعد امرا واردا واتخذ تدخله في الصراع على المرتبة الثانية شكلا آخر اشبه بالتدخل العسكري في الشؤون الادارية كما سوف نرى [٢]. وقد برز للكاتب منافس آخر على المرتبة الثانية في شخص القائد العسكري.

٣ — القائد العسكري

أ— حلول القائد العسكري في المرتبة الثانية

لابد قبل التطرق الى دور القائد العسكري في الصراع على المرتبة الثانية من ذكر التحولات التي اصابت القوات العسكرية.

نعرف ان القوات العسكرية كانت تتشكل في خلافة المنصور من عناصر خراسانية في الاغلب وكانت آنذاك بقيادة ابي مسلم حتى مقتل ابي مسلم في خلافة المنصور [٣]. ونعرف ان المأمون استعان بجيوش طاهر ابن الحسين الخراسانية للهجوم على بغداد والاستيلاء على الخلافة من الامين اخيه [٤]. ويروى الجاحظ ما يشير الى ان الجزء

---

[١] الجهشياري، الوزراء :٢٩٢.

[٢] لايعني تحديد مسؤوليات الحاجب و تنحيته جانبا بالنسبة للمرتبة الثانية انه قد تم تحييده بالنسبة للصراع القائم. وقد ظل الحاجب يسعى لتقوية نفوذه انما من موقعه حاجبا من دون ان يسعى لانتزاع المرتبة الثانية. واذا حاول ذلك فانه ينتزعها لكاتب من الكتّاب يكون موواليا له (انظر ما يلي ص:٦٣).

[٣] انظر ابن المقفع، رسالة الصحابة في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٥٤: ١١٩.

[٤] انظر ابن الاثير، الكامل ٦: ٢٦٤— ٢٦٥، ٢٧٨ —٢٨١.

الاساسي من القوات المسلحة في خلافة المأمون كان من خراسان [1]. ويروى ابن الاشير ان المأمون كان يسعى في اواخر خلافته الى تشكيل جيش ينتمي عناصره الى عدة بلدان. يقول :" في هذه السنة (٢١٨)... وجه (المأمون) ابنه العباس الى طوانة [2] وامره ببنائها... وكتب الى البلدان ليفرضوا على كل بلد جماعة ينتقلون الى طوانة واجرى لهم لكل فارس مائة درهم ، ولكل راجل اربعين درهما" [3]. لكن المأمون توفي قبل ان يستطيع بناء جيشه ، ولما تولّى المعتصم الخلافة ، "امر ... بخراب ما كان المأمون امر ببنائه في طوانة... وحمل ما اطاق من السلاح والآلة التي بها ، واحرق الباقي ، واعاد الناس الذين بها الى البلاد التي لهم ، وانصرف الى بغداذ [4]". لقد تخلى المعتصم عن فكرة بناء جيش متنوع العناصر واستعان لا بمرتزقة خراسانيين بل بغلمان من الاتراك. وهذا امر اشار اليه ابن الاثير عندما قال : "... ان المعتصم كان قد اكثر من الغلمان الاتراك" [5]. ويروى كلود كاهن ان المعتصم كان يبحث عن العنصر المثالي الذى بامكانه ان يخدم الخلافة والذى يحول اصله الاعجمي دون تورّطه في

---

[1] انظر الجاحظ ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب في رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٥) ٣ : ٢٠٧.

[2] طوانة : بلد من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس (انظر ياقوت، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت، ١٩٥٧، ٤ : ٤٥ - ٤٦).

[3] ابن الاثير ، الكامل ٦ : ٤٤١.

[4] المصدر السابق ٦ : ٤٣٩.

[5] المصدر السابق ٦ : ٤٥٢.

الصراعات القائمة ، وقد رافق ظاهرة الاستعانة بغلمان اتراك قرار الخليفة اتخاذ سامرّاء عاصمة له وانتقاله من بغداد اليها [١].

ولقد ادى تدخل الغلمان الاتراك في الامور السياسية والادارية الى ضعف الوزارة وعلى سبيل المثال نذكر ان اتامش — وهو قائد من الغلمان الاتراك — تقلد الوزارة في خلافة المستعين(٢٤٨-٢٤٩) [٢] ، ولكن الصراع لم يحسم كليا لصالح القائد العسكرى اذ نرى المستعين يستوزر بعد أتامش عبد الله بن محمد بن يزداد ثم محمد ابن الفضل الجرجرائي الكاتب (٢٥٠) [٣]. لكن نذكر ان وصيفا هو الذى كان قيما على امور الخلافة عامة بصفته حاجبا وقائدا عسكريا [٤]. ورغم ان وصيفا كان يدبّر شؤون الادارة بواسطة كاتبه احمد بن صالح بن شيرزاد [٥] ، الاّ ان هذا الاخير لم يكن يعتبر من الجهاز الادارى لان تبعيّته هي للقائد العسكرى، وكانت سلطته تزول بزوال سلطة قائده [٦].

---

[١] انظر المصدر السابق: ٤٥١. ويروى ابن الاثير (المصدر السابق ٦: ٤٥٢) ان سكان بغداد تذمروا من الغلمان الاتراك ومن عسفهم فقرر المعتصم الانتقال الى سامرّاء. لكن كاهن يرى ان هذا الانتقال هو رغبة في الابتعاد عن الصراعات القائمة والتي ضاق بها الخليفة ،وان ابتعاده عن الحضرة يشبه ابتعاد لويس السادس عشر عنها قبيل الثورة الفرنسية (انظر C.Cahen, Islam I, p.146).

[٢] انظر ابن الاثير، الكامل ٧ : ١١٧— ١١٩.

[٣] انظر المصدر السابق ٧ : ١٢٣.

[٤] انظر المصدر السابق ٧ : ١٣٣ —١٣٨.

[٥] انظر المصدر السابق ٧ : ١٣٣.

[٦] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol.I,p.304.

وقد استمرت منافسة القادة العسكريين للكتّاب على تدبير شؤون الادارة حتى خلافة المعتضد، فكان بدر القائد سنة ٢٨٧ " ...ينظر في امور الخاصة والعامة من الناس والخراج والضيّاع" [١]، بينما الوزير آنذاك هو عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب. على ان عوامل اخرى ادت — بعد خلافة المعتضد — الى تغيير الوضع حين واجه القادة العسكريون مشكلة ملحّة لها علاقة بتأمين ارزاق جندهم، اذ ان اى تقصير في تأمين الارزاق يؤدى بالجند الى العصيان المسلّح. وقد حدث فعلا ان ثار الجند عدّة مرّات في خلافة المستعين، اذ يروى ابن الاثير في حوادث سنة ٢٤٩"... فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير، وانضمّ اليها الابناء والشاكرية، تظهر انها تطلب الارزاق " [٢]، كما تمرّد بعضهم غير مرّة في خلافة المعتز سنة ٢٥٣ [٣]. ويروى كلود كاهن انه حيث ان قيمة المبالغ الموضوعة بتصرف القادة لكي ينفقوها على جندهم كانت تبلغ نصف ميزانية الدولة احيانا (وهو مبلغ ليس من السهل توفيره)، رأى القادة العسكريون انه لابد من تهيئة الجهاز الادارى ودعمه لكي يستطيع — بفضل اتقانه ضروب الجباية وتصريف الاعمال — تأمين المبالغ المطلوبة [٤]، وذلك يتطلب

---

[١] انظر الطبرى، تاريخ ١٠: ٧٥ ونذكر ان القادة العسكريين لم يكتفوا بهذا القدر بل انهم كانوا ينصّبون الخلفاء ويخلعونهم على هواهم ويروى ابن الاثير (الكامل ٧: ٩٧ — ٩٩) تفاصيل مقتل المتوكل على يد بغا الشرابي.

[٢] ابن الاثير، الكامل ٧: ١٢٢.

[٣] انظر المصدر السابق ٧: ١٧٨.

[٤] يرى كاهن(Islam I, p. 147) ان هذه الميزانية بلغت ١٤ مليون دينارا في القرن الثالث.

نظاما اداريا فعّالا يستطيع ان يفرض نفسه على الاطراف، كما انه يتطلب وجود رأس مدبر له يكون صاحب كفاية[1].

وقد ساعد هذا الوضع على جعل الكاتب هو المتولي لشؤون الادارة وصار اختياره يتم من بين كبار الكتّاب. من كل ذلك نرى الابعاد المتناقضة التي حملها تكاثر الغلمان الاتراك ونمو نفوذ قادتهم العسكريين، اذ ادى ذلك في البداية الى تقويض نفوذ الكاتب وانحلال المرتبة الثانية. ثم ما لبث ان تحوّل هذا الضعف الى مصدر قوة وعادت لصاحب المرتبة الثانية قوته ونفوذه في خلافة المقتدر كما سبق ورأينا. ان الفصل بين المسؤوليات الادارية والعسكرية تم لصالح الكاتب وكان من اثره اقصاء القائد العسكري بعد الحاجب عن المرتبة الثانية.

غير ان اقصاء القائد العسكري لم ينه الصراع على هذه المرتبة بل حصره في فئة الكتّاب وكان للقائد العسكري دور يلعبه في هذا الصراع ايضا.

ب - دور القائد العسكري في الصراع القائم في فئة الكتّاب

يرقى الصراع بين كاتب وآخر على المرتبة الثانية - حسب الجهشياري - الى خلافة المنصور، اذ يشير الى منافسة كاتب ابي ايوب - وزير المنصور - لأبي أيوب على المرتبة الثانية[2]. وقد افاد كاتب ابي ايوب - واسمه ابان بن صدقة - من نكبة صاحبه واستقلّ من بعده بديوان الرسائل[3].

---

[1] وقد نرى ان تطوير الجهاز الاداري، بجعل المرتبة الثانية ثابتة، يؤدي الى استقلاله نوعاما عن الخليفة بحيث يخدم مصالح كبّار القادة.

[2] يقول الجهشياري (الوزراء : ١١٥) : "كان ابان بن صدقة يكتب لأبي ايوب، فسعى به الى ابي جعفر".

[3] انظر المصدر السابق : ١٢٤.

لكن الصراع في فئة الكتّاب تبلور ابتداء من منتصف القرن الثالث ولم يعد شأن افراد بل شأن تكتلات قائمة في قلب طبقة الكتّاب. ويحدث هذا الصراع في ان يلتف بعض الكتّاب حول كاتب مرشح للمرتبة الثانية ويلتف آخرون حول مرشح غيره. وقد شهدت طبقة الكتّاب انقساما من هذا النوع في نهاية القرن الثالث بين الكتّاب الموالين لابي الحسن بن الفرات والآخرين الموالين لعلي بن عيسى ابن داود بن الجرّاح[1]. وكانت هذه التكتلات تقيم تحالفا مرحليا مع بعض الاطراف العسكرية. وقد حدث في خلافة المقتدر مثلا ان كان الجهاز العسكري منقسما حول وزارة ابن الفرات سنة ٣٠٦، فكان مؤنس القائد يؤيد علي بن عيسى الوزير، بينما يؤيد ابن الفرات نصر القاشوري الحاجب[2] — وكان قائد عشرة آلاف من الرجالة —[3] لكن مثل هذه التحالفات كانت عرضة لان تنقلب في اية لحظة، وقد يصبح حليف الامس عدّو اليوم، وقد حدث فعلا ان نصرا الحاجب انقلب على ابن الفرات في وزارته الثالثة (٣١١)[4].

---

[1] اما الكتّاب المتحالفون مع علي بن عيسى الوزير فهم: سليمان بن الحسن — صاحب ديوان المشرق — وعلي بن الحسن الباذبيني — صاحب ديوان الضياع المقبوضة — وابن الحوارى — صاحب الطراز — والنعمان بن عبد الله، وابن مقلة — الكاتب على ديوان الزمام — (انظر الصابىء، الوزراء: ٣٨ — ٣٩، ٤١).

[2] يقول الصابىء (الوزراء: ٣٠)" :فاذا شاور (المقتدر) مؤنسا فيه (اى في علي ابن عيسى الوزير) مدحه ووصفه بالامانة والكفاية عنده الى ان خرج مؤنس الى مصر لمحاربة العلوى فقام غريب الخال ونصر الحاجب بامر ابن الفرات قياما تمّ على علي بن عيسى الصرف معه".

[3] انظر المصدر السابق: ٤٩.

[4] انظر المصدر السابق: ٣٣.

واذا كانت هذه التحالفات الواهية تدل على شيء ، فانها تدلّ على استقلال الكاتب وعدم تبعيته بصورة كاملة للقادة العسكريين ،لكنها تشير ايضا الى ضرورة ان يكون للكاتب تأييد من جانب احد القادة العسكريين البارزين ، يقف الى جانبه وهو مرشح للمرتبة الثانية ، فلا يحصل له ما حصل لابن الفرات عندما حاول ان يتحرر من وصاية نصر الحاجب [1].

ولم يكن القادة العسكريون وحدهم متورطين — وان بشكل غير مباشر — في الصراع بين الكتّاب البارزين ، بل ايضا في ذلك عدد من المقيمين في دار الخلافة من خدم ، واقرباء الخليفة. وقد كانت لبعض هؤلاء يد في خلع الوزير وتنصيبه في بعض الاحيان اذ يذكر الصابيء ، انه كانت لزيدان — قهرمانة دار الخلافة في خلافة المقتدر — يد في محاولة تنصيب المحسّن بن علي بن محمد بن الفرات في الوزارة سنة ٣١١ [2]. ويروى الصابيء كذلك ان السبب في تقليد محمد الخاقاني المرتبة الثانية في خلافة المقتدر سنة ٢٩٩ "... ان دستنبويه ام ولد المعتضد بالله قامت بامره مع المقتدر لانه بذل لها مئة الف دينار" [3]. وكان اذن اقرباء الخليفة والمقيمون في دار الخلافة يفيدون من تنصيب وزير يحظى بتأييدهم بسبب ما كان الوزير يحصله في ايديهم من مال واقطاعات وتسويغات كما حصل في وزارات ابن الفرات [4].

---

[1] انظر المصدر السابق: ٤٧ — ٤٨.

[2] انظر المصدر السابق: ٢٤٤.

[3] المصدر السابق: ٢٦٤.

[4] يقول الصابيء (الوزراء :٣١) : واقطع (اى ابن الفرات في وزارته سنة ٣٠١) زيدان (القهرمانة)... ضياعا بنواحي كسكر ومستغلّات بالبصرة لها ارتفاع وافر. ووقّع لجماعة من اصحاب السلطان بتسويغات واقطاع وحمالات وبسط يده في كل ما فعله من ذلك وادرّ على المقتدر بالله ماوعده به وللامراء والسيدة (ام المقتدر) من الف وخمسمائة دينار منسوبة الى رسم الخريطة".

وبسبب تورط هؤلاء في الصراع على المرتبة الثانية انتقل هذا الى قلب دار الخلافة حيث اصحاب النفوذ الذين يؤثرون على الخليفة لصالح هذا الكاتب او ذاك. لقد اصبح الكتّاب المرشحون للمرتبة الثانية — حسب رأي سوردیل — هم من بين الكتّاب الذين نشأوا في دواوين المركز [1]، في الحضرة (بغداد او سامرّاء) حيث يستطيعون بلوغ ذوي النفوذ وتنفيذ خطة حلفائهم للاستيلاء على المرتبة الثانية، وتلك امور لايمكن ان تتم بعيدا عن مركز الخلافة [2].

ب — شكل الصراع على المرتبة الثانية : حيلة الكاتب

لقد سبق ان رأينا انه كان يدور حول المرتبة الثانية صراع بين عدة أطراف. يبقى ان نعرف الشكل الذى كان يتخذه هذا الصراع [3]. ونحن نعرف يقينا ان هذا الصراع لم يتخذ شكل الصراع المسلح وانما شكل التواطؤ السرى والمؤامرات المحاكة ضدّ طرف من الاطراف.

كانت بيئة الكتّاب حافلة بالصراعات، وكان الكاتب وبالاخص الوزير، شخصا مهددا باستمرار في المركز والثروة والسلامة. ولعل ابن المقفع كان يستقرئ التاريخ عندما قال:" اعلم ان اكثر الناس عدوا مجاهرا حاضرا جريئا واشيا، وزير السلطان ذو المكانة عنده، لانه منفوس عليه بما ينفس على السلطان ،ومحسود كما يحسد،

---

[1] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol.II, p.566.

[2] لاتعود اذن مسألة تكليف احد الكتّاب في الامصار البعيدة امرا محتملا كما حصل مع سليمان بن وهب الذى قلده المعتمد وزارته سنة ٢٦٣ ولم يكن مقيما في سامرّاء ولم يأتها الا سنة ٢٦٤ اى بعد سنة من تكليفه تقريبا (انظر ابن الاثير، الكامل ٧ : ٣١٠، ٣١٦).

[3] ان العصيان المسلح امر خاص بالعامة والجند الذين تمردوا احيانا على السلطة طلبا للارزاق وانضمت اليهم العامة لتعبر عن استيائها من الاوضاع. والصراع المسلح هذا غريب عن الكتّاب الذين لم يعرف عنهم انهم انضموا الى العامة في ثوراتها او انهم دعموها في مطالبها (انظر ابن الاثير، الكامل ٧ : ١٢٢).

غير انه يجترأ عليه ولايجترأ على السلطان، لان من محاسديه احبّاء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حضّاره، وليسوا كعدوّ من فوقه النائي عنه المتكتم منه، وهم لاينقطع طمعهم من الظفر به، فلا يغفلون عن نصب الحبائل له".[1] ويشير هذا الكلام بوضوح الى ان الصراع الذى يدور بين الطامعين في الوزارة كان هدفه الايقاع بالوزير، وان الصراع على منصب الخلافة لم يكن يخص الكتّاب كما سبق ورأينا.

ويتفق موقف ابن المقفع مع موقف الجاحظ الذى ندد بالصراع القائم فعلا في ايامه وقبل ايامه كذلك في فئة الكتّاب في قوله مخاطبا هؤلاء :" لاأعلم اهل صناعة الا وهم يجرون في ذلك (اى في التعاطف) الى غاية محمودة، ويأتون منه آية مذكورة، الاّ الكتّاب، فان احدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجح رأيه اذا بلغ في نكاية رجل من اهل صناعته"[2]. ففئة الكتّاب بالنسبة للجاحظ تفتقر الى التعاطف. ولابد من الاشارة في صدد ذلك الى ما قاله عبد الحميد الكاتب في مناشدة الكتّاب التضامن والتواصل فيما بينهم[3]، فان هذا القول قد يدل على تمنّي هذا التضامن وذلك التواصل، لاعلى وجودهما بين الكتّاب بالضرورة.

وتقوم خطة الكاتب للايقاع بنظيره على مبدأ الحيلة، وتتجلى الحيلة بالسعاية، والسعاية هي العمل بهدف انتقاص نفوذ شخص ما للحلول محلّه او من اجل الحماية الذاتية، وسوف أتعرض لهذه الامور بالتفصيل.

---

[1] الادب الكبير في رسائل البلغاء : ٥٩.

[2] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ٢٠٠.

[3] انظر الجهشيارى، الوزراء : ٧٥.

لقد أورد الجهشياري عدداً من الامثلة التي تدور حول الصراع على المرتبة الثانية وذلك منذ نشأة تلك المرتبة ، ونذكر عن الجهشياري الامثلة التي تحمل دلالة معينة من حيث اسلوب الحيلة وكيفية نجاحها او اخفاقها. ويدور المثل التالي حول محاولة ابي ايوب المورياني ، وزير المنصور ، الايقاع بكاتب من اجل حماية منصبه. يقول الجهشياري "وكان ابو جعفر (المنصور) لما صرف خالد بن برمك عن الديوان[1] ، وقلده ابا ايوب، قلّد خالدا فارس، فأقام بها خالد سنين ، وأبو أيوب يسعى عليه ، ويحضّ ابا جعفر على مكروهه ، ويسعى به ليسقط من عينه ، لانه كان يعرف ما فيه من الفضل ويتخوفه على محله ، وان يرده ابو جعفر الى الديوان الذى كان يتقلده .فلما كثر ذلك على ابي جعفر ، صرف خالدا عن فارس وتكبه ، وألزمه ثلاثة آلاف الف درهم ، ولم يكن عنده الاّ سبع مائة الف درهم ، فصدقه عن ذلك ، فلم يصدّقه ، وأمر بمطالبته بالمال. فاسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين الف دينار ، واسعفه مبارك التركي بالف الف درهم ، ووجهت الخيزران بجوهر قيمته الف الف درهم ومئتا الف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين هارون ابنها. واتصل ذلك بابي جعفر ، فتحقق عنده قوله انه لايملك الا ما حكى فصفح له عن المال ، فشق ذلك على ابي ايوب، واحضر له بعض الجهابذة ، ودفع اليه مالا ، وامره ان يعترف انه لخالد.ودسّ على ابي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ فسأل عن المال فاعترف به ، فاحضر خالدا فسأله عن ذلك ، فحلف بالله انه لم يجمع مالا قط ، ولا ذخره ولايعرف هذا الجهبذ ، ودعا الى كشف الحال ، فتركه ابو جعفر بحضرته ، واحضر النصراني ، فقال له : اتعرف خالدا ان رأيته قال: نعم يا أمير المؤمنين ، اعرفه ان رأيته ، فالتفت الى خالد وقال :قد اظهر الله براءتك. وهذا المال اصبناه بسببك ، ثم قال للنصراني :

---

[1] يشير الجهشياري (المصدر السابق :٨٩) الى ان خالدا البرمكي تولى في خلافة ابي العباس السفاح ديوان الخراج وديوان الجند.

هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين ، وأخبره الخبر ، فكان لايقبل من ابي ايوب بعد ذلك شيئا في خالد"[1] . وتشير هذه الرواية الى خوف الوزير من اصحاب الكفاية من الكتّاب المؤهلين للحلول في منصب المرتبة الثانية . ويرى ان ابا ايوب لجأ الى جميع الوسائل لينجح في التضييق على خصمه . لكن الحيلة لم تنطل على الخليفة فاستطاع ان يفضح الفاعل ، وكان ان نجا خالد ابن برمك من السعاية .

لكننا نقع على امثلة اخرى تشير الى نجاح الساعي في تحقيق غرضه . ويدور هذا المثل حول ابي عبيد الله معاوية بن عبيد الله وزير المهدى ، يقول الجهشياري : " ولم يزل ابو عبيد الله في خلافة المهدى الى سنة ثلاث وستين ومائة مستقيم الامر ، ثم سعى عليه الربيع (بن يونس الحاجب) ، وحمل المهدى على مكارهه فصرفه في سنة ثلاث"[2] . اراد الربيع اذن حسب الجهشياري ، ان يسعى بأبي عبيد الله ، فقصد رجلا اسمه القشيري ، وكان ابو عبيد الله اساء به وحجبه — فسأله الربيع : فهل عندك في أمره (اى امر ابي عبيد الله) حيلة ؟ قال له : ليس بجاهل في صناعته وانه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعفّ الناس ، حتى لو كان بنات المهدى في حجره لكان لهنّ موضعا ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس يتهم في دينه ، لان عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع اليك في ابنه ، فقام الربيع فقبل عينه ، وما زال يدسّ الى المهدى من يخبره خبر عبد الله بن ابي عبيد الله ، وكان المهدى قد جدّ في طلب الزنادقة ... وممّن ... يعتقد الزندقة قوم يرون ان جحد ما يدينون به محظور ، وان التقية غير جائزة ،

---

[1] المصدر السابق : ٩٩ — ١٠٠ .

[2] المصدر السابق : ١٥١ .

وقد دل هذا الخبر على ان عبد الله بن ابي عبيد الله منهم... ولما قتل المهدى عبد الله بن ابي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدم المهدى: لك علي ثلاثة آلاف دينار ، ان فعلت شيئا لايضرّك. قال له : وما هو ؟قال: اذا دخل ابو عبيد الله الى المهدى، فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت الى جانبه فسينكر ذلك عليك امير المؤمنين فتقول: يا امير المؤمنين قتلت ابنه بالامس، فكيف آمنه عليك ان يخلو بك ومعه سيفه اليوم ففعل ذلك الخادم ، فكان ذلك مما اوحش المهدى من ابي عبيد الله "[1]. بحث الساعي — اى الربيع — في هذا المثل عن نقطة الضعف في خصمه ، وكانت نقطة ضعف ابي عبيد الله في ابنه عبد الله ثم عمل الساعي على رشوة الخادم [2] كي يثير حذر الخليفة المهدى من ابي عبيد الله ونجح الساعي في تحقيق غرضه في هذا المثل ، أولا بسبب اثبات تهمة الزندقة على عبد الله بن ابي عبيد الله ، وثانيا بسبب ضياع ثقة الخليفة بوزيره بعد ان قتل ابنه .

ونعرض كذلك لحيلة لجأ اليها الكاتب ابو علي الخاقاني الذى

---

[1] المصدر السابق : ١٥٣ — ١٥٤.

[2] ان الخدم في موضع متميز عادة لبلوغ الخليفة وغالبا ما كان يلجأ الكاتب الى برّهم لانجاح حيلته يذكر الجهشيارى (المصدر السابق: ٦١) حادثة في العصر الاموى لجأ فيها حسان النبطي الكاتب الى الايقاع بصاحبه خالد بن عبد الله القسرى والي العراق فذهب الى الحضرة وقال لخادم من خدم هشام بن عبد الملك:" هل لك في الفي دينار على ان تتكلم بكلمة حيث يسمعها امير المؤمنين ؟ قال (الخادم) : عجّل علي بالالفين وأقول ما شئت ، فعجلها له ، وقال له : بكّ صبيا من صبيانه ، فاذا بكى فقل له : اسكت، فأنك في صلفك وعزّتك ابن خالد القسرى لما بلغت غلته ثلاثة عشر الف الف درهم. ففعل الخادم وسمعها هشام...".

استوزره المقتدر بالله سنة ٢٩٩ بعد ان نجح في الايقاع بالوزير ابن الفرات وخلعه يقول الصابيء بهذا الصدد : " حدثنا ابو علي... الخاقاني قال : لما تمادت الايام بما وعدنيه المقتدر من القبض على ابي الحسن ابن الفرات وتقليدى الوزارة استعظم الحال في نكبته واشفق من حادث يحدث بذلك في دولته وعملت انه لاينفع في ذاك الا اعمال الحيلة . وكنت اتتبّع الاخبار في استتارى فجاءني في بعض الايام امرأة من عجائزنا وقالت: رأيت الساعة عمارية على بغال وجندا وغلمانا يمضون الى باب الكناس يريدون الكوفة وربما كان ذاك لخارجي خرج وفتق حدثه فكتبت الى ابي عيسى يحيى بن ابراهيم المالكي أسأله عن هذا الامر وكان ظاهرا متصرّفا فأجابني بأن ملاحاة جرت بين هشام بن عبد الله وعبد الله بن جبير كاتبي ابن الفرات فيما يحتاج اليه من الابل والبقر والغنم للاضاحي في عيد النحر... قال الخاقاني فتأتت لي الحيلة في الحال وكتبت رقعة الى ام موسى القهرمانه اقول فيها : قد احضر ابن الفرات رجلا علويا... وعزم على اجلاسه في الخلافة يوم عيد النحر ، والجند والناس متشاغلون بصلاة العيد . وان من الدليل على ذلك انفاذه عاملا من ثقاته الى الكوفة ومعه عمارية خرجت فارغة ظاهرا لم يخف خبرها لركوب العلوى فيها متخفّيا ليحصل بالقرب من بغداذ .
قال (ابو علي الخاقاني) : وعظمت القصة وقلت: ان لم يعاجل ابن الفرات تمت الحيلة الموضوعة ثم سألها (اى القهرمانة ام موسى) مطالعة الخليفة والسيدة (ام المقتدر) بذلك وكتمانه عن كل احد بعدهما..." لئلا ينم الحديث الى ابن الفرات فيبطل ما رتبته ". لقد بلغ الخبر الخليفة فانفذ خادما له ليدقق بالامر ، ورأى الخادم الرجل المتخفّي ، فخاف الخليفة واقتنع بان ابن الفرات يريد خلعه .[1]

---

[1] الصابيء ، الوزراء : ٢٦٥ — ٢٦٧ .

ونستطيع ان نستخرج بعض اصول السعاية وشروط نجاحها من الامثلة التي سبق ذكرها. فالسعاية تتوجه نحو شخص معين هو خالد بن برمك في المثل الاول وابو عبيد الله معاوية بن عبيد الله الوزير في المثل الثاني وابو الحسن علي بن محمد ابن الفرات في المثل الثالث. لكن السعاية لابد ان تمر بواسطة طرف ثالث هو الخليفة صاحب السلطان — والسبب في ذلك هو ان الخليفة هو صاحب الامر والنهي وصاحب القرار الفصل في قضايا الصرف والخلع والاعفاء. وقد استمر هذا الواقع حتى بعد الانحلال الجزئي الذى اصاب الخلافة وانتقال جزء من السلطات الفعلية الى القادة العسكريين والوزراء. وظل الخليفة محتفظا لنفسه بصلاحية العزل والتعيين والعقاب والصفح. وان استمرار الخليفة في هذا الموقع لهو الامر الذى عمل على دعم مبدأ الحيلة والسعاية ، ولولا ذلك لم تكن هنالك ضرورة للعمل بهما ولسلك الكتاب والوزراء في ذلك مسلكا آخر اقرب الى تصفية الاعداء منه الى التآمر عليهم بصورة خفية.

ونرى في الامثلة السابقة — ولا سيما في المثل الاخير — ان الحيلة ينبغي ان تتم بسريّة تامة لان الجهر بالامور قد يظهر للخصم ما يحاك ضده فيعمد الى اتخاذ الاجراءات اللازمة ليبطل مفعول الحيلة [1]. وتقوم الحيلة كذلك على عنصر المفاجأة ، ونجاحها مرهون به. وتتطلب المفاجأة الاسراع في بلوغ صاحب السلطان واشراكه في الايقاع بالمسعي به كما فعل محمد الخاقاني في المثل السابق

---

[1] كان الساعي يبذل جهده كي لايعرف خصمه انه يضمن له السوء ويذكر الجهشياري (الوزراء :١١٦) ان ابان بن صدقة كاتب ابي ايوب المورياني وزير المنصور سعى بصاحبه لدى الربيع الحاجب وعلم ابو ايوب بالامر فقال له :" قد جاءني اليقين انك تأتي الربيع كل ليلة ... فلماذا تريد قتلي ؟ فعلتها ، اخرج فلا تقربني " ... وخرج حتى أتى الربيع ، وكاشف ابا ايوب. وكاشفه اى اظهر له العداوة وباداه بها لأنه افتضح لديه امره ولم يعد بوسعه ان يخفي حقيقة الامر.

فان عدم الاسراع قد يتيح امام الخليفة فرصة التحقيق في الامر ومعرفة الفاعل او قد يتركه عرضة لتأثيرات اخرى تكون وراء عدوله عن انزال العقوبة في المسعى به. ولو ان الخليفة المقتدر استطاع ان يتحقق من هوية العلوى، او لو ان ابن الفرات علم بالامر واحتاط له، لما نجحت حيلة ابي علي الخاقاني في الايقاع به. من هنا تستمد مسألة التوقيت اهميتها، لا سيما ان الخليفة لم يكن باستطاعته ان ينتظر طويلا لان الانتظار في مثل هذه الحالة يعني المخاطرة بحياته وبالخلافة بدليل انه أخبر بأن العلوى آت لخلعه منها.

والعامل الثاني الذى كان يساعد في انجاح الحيلة هو اظهار الخصم على انه متعد على الخلافة وذلك واضح في جميع الامثلة التي مرت معنا، اذ أظهر ابو ايوب المورياني خالداً متعديا على اموال الخليفة، واظهر الربيع بن موسى ابا عبيد الله قادرا على التعدى على حياة الخليفة، وكذلك الحال مع ابي على الخاقاني الذى ادعى ان الوزير ابن الفرات اراد خلع المقتدر. ولا ينجح الساعي عادة في تحقيق غرضه اذا اظهر للخليفة ان خصمه يريد الحاق الأذى به هو (اى بالساعي)، او انه يدافع في اظهار عداوته لاحدهم عن مصلحته الشخصية، بل ينبغي ان يظهر الساعي للخليفة ان ما يقوم به هو لصالح صاحب السلطان. ولا بدّ ان يقدم له الحجّة على خيانة المسعى به لان الخليفة لا يقدم عادة على خطوة ما الاّ اذا تحقق — ولو جزئيا — من صحة ما يقوله الساعي، ولهذا السبب حاول المنصور التحقق مما ادعاه الجهبذ بشأن اموال خالد بن برمك بان استحضره وسأله ما اذا كان يعرفه اذا رآه، وللسبب ذاته انفذ الخليفة المقتدر خادمه لكي يتحقق من وجود العلوى الملثّم.

يفيد صاحب السعاية عادة من رغبة الخليفة الدائمة بمعرفة ما يجرى في داره او خارجها. وبما ان الخدم والكتّاب والوزراء والجواسيس وغيرهم هم الذين يتولون اعلام الخليفة عن مجريات

الامور هذه ، فانما الخليفة قلما يرد ساعيا او يمتنع عن سماع ما لديه . ويدخل اتهام الوشاة في مهام الوزير بالذات اذ يقول الجهشياري: للوزير على الملك وللكاتب على الصاحب ثلاث خصال: رفع الحجاب عنه واتهام الوشاة عليه ، وافشاء السرّ اليه ."[1]

وقد تتخذ السعاية شكل التعريض المباشر بالخصم في حضرة الخليفة كما حدث بين الفضل بن يحيى بن برمك واخيه جعفر في حضور الرشيد ، يروى الجهشياري "ان جعفرا كان اوصل الاصمعي الى الرشيد. فقال له الرشيد يوما : أخبرني من أم فلان لانسان من العرب؟ فقال له الاصمعي : على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين ! فقال له الفضل : اسقط الله انفك وعينيك ! هكذا تخاطب الخلفاء ! وانما اراد الفضل بذلك مساءة جعفر والقصد له ."[2]

وكان التعريض يبلغ احيانا حد التلاسن بين المعرِّض والمعرَّض به ، يقول الجهشياري:" تنازع الفضل بن الربيع (حاجب الرشيد) وجعفر بن يحيى يوما بحضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يالقيط ، فقال له : اشهد يا أمير المؤمنين. فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين وأنت حاكم الحكام."[3] ففي هذه الرواية نرى ان المواجهة بين الخصمين كانت تؤدى الى الجهر بالعداوة بدل التكتم والسكوت عنها. وليس هدف المواجهة في المثلين السابقين هو جعل الخليفة يحكم بين المتخاصمين لأن المقصود من التعريض في حضرة الخليفة هو تقويض نفوذ

---

[1] الجهشياري، الوزراء : ٠١٠.

[2] المصدر السابق: ٠١٨٩.

[3] المصدر السابق: ٠٢١٦.

الخصم وليس استرداد حقوق ما او تقويم سلوك الآخر.

غير ان اظهار الخصومة او التلاسن لم يكن امرا مستحبا في حضرة الخليفة من قبل الذين شرعوا للكتابة ولادب الكتّاب على المستوى النظري[1]. وينصح ابن المقفع من يتعرض للاهانة في حضرة الخليفة باظهار عدم الاكتراث، يقول: "وان ذكرك ذاكر عند ولي الامر بسوء في وجهك، او في غيبك، فلا يرين منك الولي ولا غيره اختلاطا لذلك ولا اغتياظا ولا ضجرا، ولايقعن ذلك في نفسك موقع ما يكرثك، فان وقع منك ذلك الموقع ادخل عليك امورا مشتبهة بالريب مذكرة لما قال فيك العائب"[2]. ويضيف ابن المقفع مخاطبا الوزير:"... البس لهؤلاء القوم الذين هم اعداؤك سلاح الصحة والاستقامة، ولزوم الحجة فيما تسرّ وتعلن، ثم روّح من قلبك كأن لاعدوّ لك ولا حاسد"[3].

ان خوف الوزير من السعاية قد يكون دليلا على ان الساعي غالبا ما كان ينجح في الايقاع به. ونشير الى ان ضعف الخليفة المتزايد ابتداء من اواسط القرن الثالث كان عاملا في تنشيط السعاية، لان فلتان الامور من يده جعله اكثر عرضة من ذي قبل لاصحاب السعايات. وقد نقل الصابيء بهذا الصدد رواية عن

---

[1] يقول الصابيء في رسوم دار الخلافة (تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، ١٩٦٤: ٣٤- ٣٥):"وسبيله (اي الحاضر في مجلس الخليفة) ان لا يخاطب من يخاطبه في تعرف امر منه، او اقامة حجة عليه الا بأخف الالفاظ وأشد الاستيفاء".

[2] الادب الكبير: ٥٩ — ٦٠.

[3] المصدر السابق: ٥٩.

ابن الفرات شديدة الدلالة على هذا : قال : دخل ابن الفرات يوما على كتّابه وهو مغموم فسأله كتّابه عن الامر فقال :" ويحكم قد علمتم اني اشكو اليكم نقصان هذا الرجل (يعني المقتدر) دائما وشدة تلوّمه واختلاف رأيه ... فقلت له اليوم في امر رجل كبير... : يا امير المؤمنين ان فلانا قد فسد علينا وليس مثله من اخرج عن ايدينا. وقد رأيت ان اقلده كذا واقطعه واسوغه كذا... قال : افعل. ثم حدثته طويلا وخرجت من امر الى آخر وقرب وقت انصرافي فقلت له : يامولانا عاودت الفكر في امر فلان... وقد رأيت رأيا آخر في امره. قال : ما هو ؟ قلت: ان نقبض عليه ونخلّده الحبس ابدا. قال : افعل. فقلت: وا ويلاه كذا والله تجرى حالي معه. يقال له ان ابن الفرات الكافي الناصح وهو وطأ لك الامر واقامك في الخلافة وهو... هو... فيقول : نعم. ويقرّبني ويقدمني ثم يقف غدا بين يديه رجل فيقول : قد سرق ابن الفرات الاموال ونهب الاعمال وفعل وصنع والوجه ان يقبض عليه ويصرف ويقيّد ويحبس ويقلّد وزير آخر، فيقول : نعم."[1]

ان هذه الرواية تعكس مخاوف الوزير من تقلّب الخليفة وخضوعه للسعاية دون النظر واعمال الرأى. ولاشك ان تأثر الخليفة المتزايد بآراء الآخرين عامل من عوامل تفشي السعاية. لكن منذ اواخر القرن الثالث ومطلع الرابع برزت عوامل اخرى عملت على تطوير اسلوب آخر غير السعاية يلجأ اليه الكتّاب والوزراء للايقاع بخصومهم. ومن هذه العوامل ضرورة تأمين المبالغ الضخمة لتغطية نفقات الخليفة والجند ووقوع السلطة في عجز مالي. وقد ادى طلب الاموال بصورة ملحّة الى تبني الكاتب او الوزير خطة اخرى في إلحاق الاذى بالخصم. وهذه الخطة لا تحتاج الى حياكة معينة للحيلة اذ اصبح يكفي ان يضمن الكاتب او الوزير للخليفة

---

[1] الصابىء ، الوزراء :١١٨ — ١١٩.

استخراج مبلغ من المال من احد خصومه لكي يطلق الخليفة يده بعمل ما يشاء من قتل وصرف وتعذيب على ان يحصل على المبلغ اللازم الذى وعد به وهذا ما سوف نبحثه فيما بعد في الكلام عن مبادرة الخليفة الى صرف الوزير والاستغناء عنه او حتى الانتقام منه ، انما علينا قبل ذلك ان نصف مكانة الوزير عامة من صاحب السلطان ودوره في عملية المشورة .

جـ — دور الوزير : المشورة والنصيحة للامام

لقد رأينا ان دور صاحب المرتبة الثانية — اى الوزير — كان في الفترات التاريخية المختلفة اما في معاونة صاحب السلطان على تصريف الامور الادارية وملازمته او في رئاسة دواوين الادارة . لكن صاحب المرتبة الثانية كان في كلتا الحالتين يقوم بدور آخر لايقل اهمية عن الدورين السابقين وهذا الدور هو دور المستشار . والمشورة هي طلب الامام النصيحة من احد المقربين اليه . النصيحة تأتي اذن بعد المشورة . ولابد قبل ان نبحث في المشورة من ان نعرض للفروقات القائمة بين السعاية التي مرت بنا في فصل سابق والنصيحة لكي لايقع الخلط بينهما ، ذلك ان السعاية قد تتخذ شكل النصيحة ظاهريا . لكن النصيحة تتعدى مصلحة المدلي بها المباشرة والشخصية لتصب عادة في مصلحة الأمّة ، ولذلك تدور معظم النصائح حول تفادى ما من شأنه ان يحدث بلبلة اجتماعية تهدد السلطة والخلافة بالذات، بينما هدف السعاية هو احداث الانشقاق ليس في صفوف الامة بل بين الفئات المتصارعة لاسيما على المرتبة الثانية اعني الكتّاب وغيرهم من الطامعين في هذه المرتبة .

ويبادر الخليفة عادة الى المشورة قبل اتخاذ قرار معين حيال حدث من الاحداث التي يتعرض لها حكمه او قبل الاقدام على تعيين

اصحاب الاعمال في مناصبهم او عزلهم عنها.[1] تسبق المشورة اذن القرار. ونستدل على قيام الخليفة بالمشورة منذ بداية العصر الاموى ويشير الجهشيارى الى ان الكاتب كان يستشار في الامور المهمة وذلك قبل ظهور المرتبة الثانية[2]، اذ يروى ان يزيد بن معاوية شاور سرجون ابن منصور — وكان يكتب على الخراج — فيمن يولي العراق[3]. ونرى كذلك عبد الملك يشاور قبيصة بن ذؤيب — كاتبه — في العهد لأبنيه الوليد وسليمان[4]. ويروى ايضا ان عبد الملك لما "عزم على تقليد (الوليد) العهد، "... شاوره (اى كاتبه ربيعة الجرشي) وقال له: اني قد عملت على توليته شيئا من النواحي اولا، فاذا مرّت له مدّة قلّدته، فقال: امهلني سنة، فابى عليه، فقال له: يا امير المؤمنين، انك لو بعثت الوليد يقسم الاموال بين الناس ما رضوا عنه، فكيف ببعثه جابيا، ان احتاط ذمّ وان رفق عجز.[1] ولكن ولّه المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفا وذكرا[5].

---

[1] قد تتعلق النصيحة ايضا بامور حياتية كالأكل مثلا، يروى الجهشيارى (الوزراء :٣٥) كيف طلب عبد الملك بن مروان من كاتبه ابي الزعيزعة نصيحة تتعلق باتقاء التخمة.

[2] ويتفق ذلك مع ماورد على لسان عبد الحميد اذ يقول في رسالته الى الكتّاب: "والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره ويناظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته اولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم اوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا، ولا تعرف خطأ ولا صوابا الا بمقدار ما يصيره اليها سائسها او صاحبها الراكب لها"، (المصدر السابق: ٧٧).

[3] انظر المصدر السابق: ٣١.

[4] انظر المصدر السابق: ٣٤.

[5] المصدر السابق: ٣٧.

ان طلب الامام النصيحة لايعني انه عاجز عن تدبير امور ولايته بل يعني ان المشورة اصبحت جزءا من المهام التي يقوم بها الخليفة [١]. ونذكر انه حتى بعد نشأة المرتبة الثانية لم تكن الاستشارة قاصرة على صاحب هذه المرتبة وحده دون المقربين من الخليفة بل ظلت المشورة موزعة على الاشخاص المحيطين بصاحب السلطان يشاور احدهم عندما يرى ضرورة لذلك. وهؤلاء الاشخاص هم الكاتب والقاضي والعامل وغيرهم من خواص الخليفة [٢].

ويعمل المستشار بالتأثير على الامام واذا كان هذا التأثير سلبيا أدّى الى فساد الامور وهذا ما حصل في خلافة المهدي. يقول الجهشياري: "كان ابو عبيد الله معاوية (بن عبيد الله بن يسار وزير المهدي) يضبط امور المهدي، ويشير عليه بالاقتصاد وحفظ الاموال. وكان ابو جعفر (المنصور) خلف في بيوت الاموال عند وفاته تسع مئة الف درهم وستين الف الف درهم. فلما صرف المهدي ابا عبيد الله عن وزارته، وقلّدها يعقوب (بن داود) زيّن له هواه، فانفق المال واكبّ على اللذات والشرب" [٣].

---

[١] ينصح الادب الكبير صاحب السلطان بالمبادرة الى المشورة بقوله: "ولاتقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر منك الحاجة الى رأي غيرك فانك لست تريد الرأي للافتخار به، ولكنك تريده للانتفاع به. ولو انك مع ذلك اردت الذّكر كان احسن الذكرين وافضلهما عند اهل الفضل ان يقال: لايتفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي." (الأدب الكبير :٤٧).

[٢] يذكر الجهشياري (المصدر السابق:١٠١) ان الخليفة المنصور كان يشاور وزيره ابا ايوب الموريياني في تقليد الكتّاب الدواوين لكنه يذكر (المصدر السابق:٣٧) انه كان يشاور ايضا المقربين منه في مسألة توليه ابنه المهدي السواد وكور دجلة. والذين شاورهم هم عمه عيسى بن علي وكاتبه ابي العباس الطوسي والعباس بن محمد.

[٣] المصدر السابق:١٥٨ — ١٥٩، يقول الادب الكبير:٦٨ :"واعلم ان الملوك يقبلون من وزرائهم التبخيل ويعدونه منهم شفقة ونظرا ويحمدونهم عليه وان كانوا اجوادا".

ويستطيع المستشار ان يؤثر على الخليفة وان يغيّر نظرته الى الامور وتصرفاته وقد يكون هذا ما جعل عبد الحميد يشبه صاحب السلطان بالبهيمة التي "... لاتحير جوابا ولا تعرف خطأ ولا جوابا الا بقدر ما يصير اليها سائسها الراكب لها" [1]، (اى الكاتب)، لكن ينبغي الاشارة الى ان المسؤولية لا تقع كاملة على عاتق المستشار اذ قد يكون هذا الاخير ناصحا صائبا في رأيه دون ان يلقى تجاوبا من جانب الخليفة. ويعطي الجهشياري مثلا على ذلك في خلافة الامين اذا اخفق مستشار الخليفة ووزيره الفضل بن الربيع في اقناع الخليفة بالعدول عن الاستهتار ومعالجة الاوضاع الداخلية للحؤول دون هجوم المأمون على بغداد. ويروي الجهشياري ان الفضل بن الربيع استعان باسد بن يزيد بن مزيد [2] لاقناع الامين بالرأي الصواب وقال له: "انما نحن وانت يا ابا الحارث شعب من أصل، ان قوى قوينا، وان ضعف ضعفنا وان هذا الرجل (يعني الامين) ... يشاور النساء، ويخلد الى الرؤيا، وهو يتوقع الظفر، ويتمنى عقب الايام، والحتف اسرع اليه من السيل الى قيعان الرمل، وقد خشيت والله ان نهلك لهلاكه، ونعطب بعطبه، وقد فزعت اليك في لقاء هذا الرجل لأمرين، احدهما: صدق طاعتك، وفضل نصيحتك، والثاني يمن نقيبتك، وشدة بأسك، والاقتصاد رأس النصيحة" [3] وتشير هذه الرواية بوضوح الى انحطاط الاستشارة في خلافة الامين اذا اصبحت شأن النساء، كما انها تشير الى عجز المستشار الصالح عن انقاذ الامة اذا ابتلى بخليفة لا يعمل

---

[1] الجهشياري، الوزراء: ٢٧٠.

[2] هو ابن القائد العسكري في خلافة الهادي وكان ايضا قائدا (انظر الجهشياري الوزراء: ١٧٤).

[3] المصدر السابق: ٢٩٤.

بنصيحته ، لان الخليفة هوالذى يقرر في المطاف الاخير الامور السياسية وليس المستشارالذى لا يتمتع في نهاية المطاف بغير السلطة التنفيذية.[1]

وتكمن سلطة المستشار بقدرته على اقناع صاحب السلطان بالرأى الصواب . ورأى ابن المقفع ان الاقناع يخضع لاصول معينة ، اذ يقول مخاطبا المستشار:" وانك قلّما تقدر على ردّ رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة ، والمناقضة ... ولكنك تقدر ان تعينه على احسن رأيه وتسدّده فيه وتزينه وتقوّيه عليه ، فاذا قويت منه المحاسن كانت هي التي تكفّه عن المساوى"[2] . وهذه النصيحة النظرية من جانب ابن المقفع طبقها يحيى بن خالد بن برمك اذ يروى الجهشياري ان يحيى "كان ... اذا رأى من الرشيد شيئا ينكره لم يستقبله بالانكار ، وضرب له امثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما انكره ، ويقول: في النهي اغراء ، وهو من الخلفاء احرى ، فانك وان لم تقصد اغراءه ، اذا نهيته اغريته"[3] . ورأى الصابىء كذلك ان يكون لاضفاء النصيحة اصول معينة يلتزم بها المستشار ، وتكمن في عدم مبادرة المستشار الى تقديم النصيحة للخليفة قبل ان يبدر من الامام ما يشير الى انه يريد سماعها ، ومعنى ذلك ان المستشار لا يجيب الا عما سئل عنه"... اذ ليس للوزير ولا حاضر في ذلك الموقف ان يذكر شيئا الاّ ما يسأل عنه ، او يورد قولا

---

[1] ويستمر واقع الامر هذا حتى نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع اى بعد ان اصاب الخلافة ما اصابها من انحلال سبّبه نمو نفوذ القادة العسكريين ويروى الصابىء (الوزراء :١١٨ — ١١٩) ان ابن الفراتالوزير خاطب الخليفة المقتدر قائلا :"يا امير المؤمنين ، ان فلانا قد فسد علينا وليس مثله من اخرج عن ايدينا ، وقد رأيت ان اقلده كذا واقطعه واسوغه كذا...ولم يجز ان افعل امرا الا بعد مطالعتك ، فما تأمر ؟ ".

[2] الادب الكبير: ٥٦ — ٥٧.

[3] الجهشياري: الوزراء : ٢٠٣.

في اخبار او مطالعة الاّ ما استأذن فيه"[1]. ان ما يقوله الصابيء يشير الى ضرورة احتراس المستشار من وقع كلامه على صاحب السلطان اذ ان اعطاء النصيحة قد يهدد سلامة الناصح. وفي هذا الموضوع يورد الجهشياري مثلا حول لجوء موسى الهادي الى مناظرة يحيى البرمكي كاتب ولي عهد الرشيد في خلع الرشيد. فقال له يحيى: "يا امير المؤمنين، انك ان حملت الناس على نكث الأيمان، هانت عليهم أيمانهم، وجرّأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الامر في بيعة اخيك بحاله، وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. فقال له: صدقت ونصحت"[2]. لقد اقتنع موسى الهادي لبرهة ثم عاد ليستنكر ما بدر من يحيى وما كان منه الا ان حبسه.[3] لهذا السبب كان الناصح يحترس قبل الادلاء برأيه او نصيحته بان يلجأ الى طلب الأمان من الخليفة على نفسه، وكانت استجابة الخليفة لهذا الطلب تعتبر ضمانة لسلامة الكاتب او الناصح[4]. فالخليفة كان في معظم الاحوال لايستطيع ان يرى النصيحة التي ينصح بها مجردة عن شخص صاحبها، واذا حدث ان وجدها مما لا يتفق

---

[1] الصابيء، رسوم: ٣٣.

[2] الجهشياري، الوزراء: ١٧٠.

[3] قد يكون الحافز وراء تغير رأى الخليفة شعوره بان يحيى يخدم في نصيحته نفسه وصاحبه الرشيد وليس الخليفة لان ليحيى كل المصلحة في ان يعتلي الرشيد سدة الخلافة لانه سوف يحل بذلك في المرتبة الثانية بصفته كاتب ولي العهد. لكن الرأى الصواب هو في جميع الاحوال رأى يحيى اذ ليس مشروعا خلع ولي العهد ولا حمله قسرا على التنازل.

[4] يروى الجهشياري (المصدر السابق: ٢٧٠): ان الخليفة الرشيد استشار رجلا ينسب الى علي بن ابي طالب لم يذكر اسمه وقال له: "فما عندك فيما كان من امير المؤمنين (الرشيد) من العهد الذي عهده الى ولاة العهد ؟ فاستعفاه (الرجل) من الجواب فلم يعفه، وقال له: انت آمن، فقل بكل لسانك كل ما عندك، فقال: يا امير المؤمنين، رأيتك قد اخذت ثلاثة اسياف مشحوذة فجعلتها في غمد واحد، فانظر ما يكون بينها".

ورأيه او مصلحته فانه قد يسيء الى صاحبها كما مرّ معنا في المثل السابق. وهذا هو بالذات مصدر الخطر، لان الامام لا يتوقع احيانا من الذين يستشيرهم ان يكون لهم رأى مغاير لرأيه واذا رأى ذلك منهم حمله الذى رآه الى الانتقام منهم، وفي جميع الاحوال[1] ينبغي ان تصبّ النصيحة دائما في الكلام عن مصلحة الخليفة او الخلافة[2].

على ان النصيحة وان كان يفترض فيها/ ان تخدم مصلحة الخلافة فانها تخدم ايضا مصلحة المستشار لان مصير الناصح قد يكون مرتبطا بمصير الخليفة الى درجة كبيرة، وزوال الخلافة عن خليفة يهدد منصب المستشار بالذات، ويذكر الجهشيارى عددا من النصائح التي تصب في مصلحة الخلافة فيقول ان الرشيد امر "يحيى بن خالد في التقدم في هدم ايوان كسرى، فقال: لا تهدم بناء دلّ على فخامة شأن بانيه الذى غلبته واخذت ملكه، قال: هذا من ميلك الى المجوس، لا بدّ من هدمه، فقدّر للنفقة على هدمه شيء استكثره الرشيد، وأمر بترك هدمه، فقال له يحيى: لم يكن ينبغي لك ان تأمر بهدمه، واذا قد أمرت فليس يحسن بك ان تظهر عجزا عن هدم بناء عدوك، فلم يقبل

---

[1] ويورد الجهشيارى (المصدر السابق:٥) قصة من التاريخ الفارسي تفيد هذا المعنى يقول:"جمع انوشروان كتّابه ليستشيرهم فيما قرره من وضع الخراج على ما مسح من الارض وما عدّه من الشجر..وما احصى من الناس وان يجبي ذلك في ثلاثة انجم، في كل اربعة اشهر الثلث، واستشارهم، فلم يشر احد منهم بشيء، فاعاد القول ثلاث مرات والناس صموت. فقام رجل في عرض الناس فقال: ايها الملك اتضع الخراج الباقي على الانسان الفاني، وعلى كبد تموت، وعلى زرع يجف... فقال كسرى:... من اى طبقات الناس انت؟ فقال: انا رجل من الكتّاب، فقال كسرى لكتّابه: ضربوه بالدوى حتى يموت".

[2] ويقول صاحب الادب الكبير:(٦٨-٦٩):"فالرأى لك(للمستشار) تصحيح النصيحة على وجهها والتماس المخرج... بان لا يعرف منك فيما تدعوه اليه ميلا الى شيء من هواك ولا طلبا لغير ما ترجو ان يزينه وينفعه".

قوله ولم يهدمه"[1]. ان هدف يحيى من النهي عن هدم الايوان واضح لان هدمه دليل على ان الخليفة لم ينتصر على اعدائه الفرس كليا بل انه لم يزل يسعى لازالة سيطرتهم ولم يقبل الخليفة نصيحة يحيى لانه رأى فيها ميلا من يحيى الى المجوسية وقرر الهدم ثم عدل عن ذلك، والعدول عن هدم البناء بعد ان عبّر الخليفة عن رغبته بذلك دليل على عجزه امام عدوه.

المستشار اذن — على الاقل من الناحية المثالية — هو بمثابة المدافع عن الخلافة ولا يكفي بالنسبة لابن المقفع ان يكون المستشار مدافعا عنها بل ينبغي عليه ان يسلك في ذلك مسلك التستّر والتكتّم وان لا يفصح عما فعله وعما قاله، ويقول في الادب الكبير:" تنكّب فيما بينك وبين الوالي... خلقا قد عرفناه في بعض الوزراء والاعوان والاصحاب من ادّعاء الرجل عندما يظهر من صاحبه من حسن أثر أو صواب رأى انه هو عمل في ذلك أو أشار به، و اقراره بذلك اذا مدحه مادح، بل وان استطعت ان يعرف صاحبك انك تنحله صواب رأيك فضلا عن انك تدعي صوابه وتسند ذلك اليه وتزيّنه فافعل"[2].

ويظهر من الامثلة السابقة ان المشورة كانت تخضع لبعض الاصول التي يمليها احتراس المستشار من صاحب السلطان والتي هدفها وقايته من اى ردة فعل سلبيّة تصدر عن صاحبه، ذلك ان المستشار

---

[1] الجهشياري، الوزراء :٢٢٩، ونلاحظ ان هذه النصيحة مخالفة في روحها للنصيحة التي سبق ذكرها ص:٨٠ ، فيحيى هنا يدلي بنصيحته مباشرة دون ان يسلك في ذلك مسلك التضمين ورواية المثل وانه ينهي الخليفة عن هدم ايوان كسرى.

[2] الادب الكبير: ٦٢.

وان قوى نفوذه وكان من كبار الوزراء فانه يظلّ تحت رحمة صاحبه الذى تخوّله سلطاته ان يسيء اليه وان ينكبه ، وهذا ما سوف نراه في الفصل التالي.

د ـ مصير الوزير: الصرف والنكبة

ان للخليفة عادة ملء الحرية في صرف كاتبه او وزيره ساعة يشاء ولا يحتاج الى تفسير فعلته امامه وليس للكاتب او الوزير المخلوع مطالبة الخليفة بتسويغ ما فعله. وقد يطلب الوزير من الخليفة ان يعفيه من الوظيفة لكن الخليفة يستطيع ان يرفض استعفاءه وغالبا ما كان يرفض فعلا ، روى الجهشيارى ان ابا ايوب، وزير المنصور ، طلب من الخليفة ان يقيله فاجاب المنصور :"لايسعني مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، اقالتك ، ولا العفو عنك..." [1] فالخليفة المنصور كان ساخطا على وزيره من فعل أتى به لكن هذا لم يدفعه الى اعفائه من وظيفته.

ويعطي الجهشيارى مثلا آخر حول رفض استعفاء الوزير يدور حول حادثة وقعت في خلافة المهدى ، وهي ان يعقوب بن داود ـ وزير المهدى ـ قال للخليفة المهدى "فأعفني ، وولّ من شئت فاني احب ان أسلم عليك انا وولدى. والله اني لا تقرّع في الليل منذ وليّتني امور المسلمين ، وليس دنياك بعوض عن آخرتي... فكان المهدى يقول له : اللّهم غفرا اللّهم اصلح قلبه" [2]. ويذكر الجهشيارى ايضا ان يحيى بن خالد البرمكي خاف على ابنه جعفر من ملازمته الرشيد وقال للخليفة : "يا امير المؤمنين ، اني اكره مداخل جعفر ولست آمن ان ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك ، فلو اعفيته... لكان احبّ الي واولى بتفضلك ، وآمن عليه عندى. فقال له الرشيد : ليس بك هذا ولكن

---

[1] الجهشيارى ، الوزراء : ١٢٠.

[2] المصدر السابق : ١٦٠.

بك ان تقدم عليه الفضل(اخا جعفر)"[1].

وكان الكاتب او الوزير دائما لا يواجه اجراء الصرف بالتحدى، بل يمتثل له. ولا يحدثنا التاريخ عن اى نماذج تشير الى ان الكاتب تمرّد على صاحب السلطان، وذلك لان التمرد على السلطة هو نوع من التشكيك بها فالكتّاب- كما يرى زبال - اعتبروا انفسهم من صلب السلطة واصحاب المصالح الحقيقية فيها، ولذلك لم يشكّلوا في وقت من الاوقات جسما معارضا لها[2]. ولا نرى في تاريخ الكتابه ان الكتّاب المقالين تآزروا وتعاضدوا ليواجهوا اجراء الصرف. وتدور رسالة عبد الحميد في هذا الاطار، فهو يصف كيفية تلافي ضربات صاحب السلطان ولكنه لا يتكلّم عن امكانية الردّ على هذه الضربات بالاسلوب نفسه[3].

كان الكاتب اذن يواجه مصيره وحيدا وقد يرفض مساندة باقي الكتّاب له. وفي هذا الصدد يورد الجهشيارى رواية شديدة الدلالة

---

[1] المصدر السابق: ٢٢٥.

[2] انظر زبال، تكون: ٧٢.

[3] يقول عبد الحميد(الوزراء: ٧٦ - ٧٧): "فقد عرفتم ان سائس البهيمة، اذا كان حاذقا بسياستها، التمس معرفة اخلاقها، فاذا كانت رموحا اتقاها من قبل رجليها، وان كانت جموحا لم يهجها اذا ركبها، واذا كانت شموسا توقاها من ناحية يدها، وان خاف منها عضاضا توقّاها من ناحية رأسها، وان كانت حرونا لم يلاحها، وتتبع هواها في طريقها، وان استمرت عطفها، فيسلس له قيادها".

تدور حول يحيى بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ، بعد ان نكبه ، اذ بادر احد الكتّاب الى مصافحته فصرخ يحيى قائلا : "ايّاك ، ايّاك..." ثم اضاف مخاطبا الكاتب:" اسمع منّي وافهم عنّي. ان هذا الامر لو بقي فيمن كان قبلنا لم يصل الينا ، ولو بقي فينا ، لم يصل بعدنا ، ولا بد للاعمال من تصرف وللامور من تنقّل ، وقد كنّا قبل اليوم دواء فاصبحنا داء فلا تعد"[1]. ان لموقف يحيى وفلسفته دلالة رمزية لانه دعوة موجهة الى سائر الكتّاب لكي ينضووا تحت لواء السلطة ، اذ لا ينبغي ان يتحالف كاتب مع آخر مقصي من الادارة . ويلاحظ في هذه الرواية ايضا ان يحيى لم يتساءل ما اذا كانت السلطة محقّة في اقصائة ام هي غير محقّة ، انما يهمّه الاّ يبدر من الكاتب ما يظهر انه لا يتقيّد بقرار صاحب السلطان. غير ان هذا لا يعني ان لا ينبغي ان يمدّ الكاتب يد العون لكاتب منكوب، لكن هذا العون يجب ان لا يتم ابدا على حساب الخليفة ، ويقتصر في معظم الاحيان على مدّ الكاتب المنكوب بالاموال. يروى الصابيء ان "علي بن عيسى (الوزير) لم يقبل لاحد من الكتّاب في نكبته هذه معونة مع بذلهم ذلك له الا ابن فرجويه (كاتب ابن الفرات) فانه حمل اليه الف دينار"[1]. وتدخل معاملة الكاتب المنكوب في اطار رسالة عبد الحميد الذى يقول مخاطبا الكتّاب " وان نبا الزمن برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه"[2]. ولكن مفهوم المواساة هنا لا يدخل فيه ابدا مفهوم المساندة والتضامن ، والكاتب يحسّ الكاتب المنكوب على التعامل مع نكبته وكأنها امر واقع لا يمكن تغييره .

ولقد ذهب عدد كبير من الكتّاب والوزراء ضحية الصرف على مرّ العصور وقد سبق ان ذكرنا ان السعاية الناشطة في فئة الكتّاب كانت مسؤولة عن ذلك الى حد ما. ونستطيع ان نقول انه حتى

---

[1] المصدر السابق : ٢٥٨.

[2] المصدر السابق : ٧٥.

عندما ما لم يكن في الامر سعاية كان اجراء الصرف قائما في الدواوين بمبادرة من صاحب السلطان. وكثيرا ما كان صرف الوزير يتم عند تغيّر العهد وتبدل الخليفة[١].

لم يكن مجرد الصرف الاجراء الوحيد الذى كان صاحب السلطان يلجأ اليه للايقاع بالوزير وكتابه وعماله ، بل كان يرافقه اجراء ات اخرى تضيّق على الكاتب، ومن هذه الاجراء ات: الاعتقال والحبس في المطبق ومداهمة الدور والمصادرة على الاموال[٢]. وهذا كله يفسّر خوف الوزير او الكاتب من انقلاب الامور عليه ، حتى ان ابا ايوب وزير المنصور كان يمتقع لونه كلما استدعاه الخليفة لانه كان يخاف من الاعتقال، كما روى الجهشيارى[٣]. وقد اصبح لمبدأ اعتقال الوزير في بداية القرن الرابع اصول معيّنة كانت تنصّ على عدم القبض عليه وهو منصرف عن الخليفة... ايجابا لحق الوصول وحرمته انما يقبض عليه في بعض الممرات عن دخوله من قبل ان تقع عينه عليه[٤]. وكما ان الصرف كان يتجاوز الوزير الى افراد عائلته لاسيما الذين يتولون منهم شؤونا ادارية كذلك كان الاعتقال يتجاوزه اليهم وفي هذا المجال يذكر الجهشيارى ان المنصور حبس وزيره ابا ايوب "وحبس اخاه خالدا وبني اخيه وهم مسعود وسعيد ومخلد ومحمد"[٥]. ولم يكن لمحمد حظ من امرهم.

---

[١] انظر المصدر السابق: ٩٩.

[٢] وكانت هذه الاجراء ات تبلغ احيانا حد القتل كما حصل مع جعفر ابن يحيى البرمكي (انظر الجهشيارى،الوزراء :٢٣٤).

[٣] انظر المصدر السابق: ١٠٢.

[٤] الصابىء ، الوزراء : ٢٦٨.

[٥] الجهشيارى، الوزراء : ١٢٠ — ١٢١.

اما المصادرة فكانت تتم بان تضع السلطة يدها على املاك الكاتب او الوزير. ويشير الجهشياري الى ان الرشيد عندما نكب البرامكة "... ارسل مسرورا والحسن الخادمين، وابا صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب، وابراهيم بن حميد الكاتب، فقبض مالهم وعقاراتهم وضياعهم في العراق"[1]. والملاحظ هنا ان الذين كلّفوا بمصادرة اموال البرامكة هم من الكتّاب يرافقهم بعض الخدم، ونرجح انّ وجود الكتّاب كان الغرض منه تسهيل عملية احصاء الاملاك وتسجيل الاموال. ولا بد هنا من التذكير بما سبق ان اشرت اليه وهو انه اصبح للمصادرة ديوان خاص بها منذ آخر القرن الثالث الهجري، وذلك ديوان اوجده محمد الخاقاني الوزير (٢٩٩- ٣٠١)، بالاضافة الى ديوان الضياع المقبوضة الذى كان يدير شؤون عقارات الوزراء المنكوبين وضياعهم. اما الاموال المصادرة من الكاتب والوزير فكانت تؤخذ احيانا الى بيت مال الخاصة واحيانا الى بيت مال العامة[2]. وكانت مصادرة الوزير على امواله تتم بهدف تقويض نفوذه، لان المنصب والنفوذ رهن بثروة الوزير المالية الى حدّ بعيد، يأتي تجريد الوزير من املاكه وثروته محاولة لاقصائه من بين المرشحين لاحتلال الوزارة مرة اخرى، اذا كان وزيرا، او رئاسة ديوان من الدواوين اذا كان رئيسا

---

[1] المصدر السابق: ٢٣٥.

[2] انظر الصابئ، الوزراء: ٧٩، غير انه لم يكن هنالك فصل بالمعنى الحرفي للكلمة بين بيت مال الخاصة وبيت المال ذلك انه كان يقع عجز احيانا في بيت المال فيبادر الوزير الى الاستعانة بأموال الخليفة لتمويل بيت المال بقروض معينة يفيها في الوقت المناسب كما فعل ابن الفرات في وزارته (انظر المصدر السابق: ٢٦٢).

للدواوين. ولهذا السبب بالذات عمد المقتدر بالله عند صفحه عن ابن الفرات بعد اعتقاله سنة ٣٠٤ الى ردّ... عليه ما كان قبض عنه وعن اهله وكتّابه واسبابه من الضياع والاملاك[1] ..." ثم سلّمه الوزارة.

ولم تكن المصادرة قاصرة على الوزير بل كانت تتعداه الى عدد من كتّابه وعمّاله. ويذكر الصابيء اسماء عدد من الكتّاب الذين صودروا على اموالهم في وزارة ابن الفرات سنة ٣١١ بعد ان انقضت وزارة حامد بن العباس والكتّاب الذين صادرهم ابن الفرات هم من انصار علي بن عيسى الذي تولى رئاسة الدواوين في وزارة حامد[2]. وكان الايقاع بالكاتب المخلوع يؤدي احيانا الى تجريده الكامل من امواله. وكان العمال يخضعون للاجراء ذاته[3] ويروى الصابيء ان العمال كانوا كذلك يعذّبون بشتى الوسائل وكان صاحب الاستخراج هو الذي يبادر الى تعذيب العامل باشارة من الوزير[4].

---

[1] المصدر السابق: ٣١.

[2] انظر المصدر السابق: ٣٨ — ٤١.

[3] انظر المصدر السابق: ١٢١.

[4] يروى الصابيء ان ابن الفرات عندما اراد تعيين مستخرج قال: "اريد رجلا لايؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني..." (المصدر السابق: ١٢٢).

وغالبا ما كان يؤدى تعنت الكاتب، او الوزير، في عدم تسليم الاموال الى هلاكه كما حدث مع ابن الفرات الوزير الذى لم يقرّ بأمواله فقتل.[١] وكانت تستخدم عبارة "الطّ" للاشارة الى الكاتب الذى لم يؤد الاموال رغم توفرها لديه[٢]. اما عبارة "بلّح" فانها تستخدم للاشارة الى الكاتب الذى أقرّ بجميع امواله ولم تبلغ قيمتها المبلغ الذى قرره عليه الوزير وطالبه به صاحب الاستخراج، فلم يبق لدى الكاتب المنكوب ما يدفع عنه اذى المطالبة[٣].

وقد ازداد اللجوء الى التعذيب مع ازدياد الصعوبة في الحصول على الاموال واستخراجها، لان الوزير او الكاتب اخذ يحتاط لعملية المصادرة بان يعمد الى توظيف الاموال المتحصّلة لديه في مشاريع تجارية. ويذكر لومبار ان كبار التجار الذين كانوا على اتصال بدار الخلافة كانوا يسهّلون هذه المشاريع التجارية[٤]، وكان يتم تجيير الاموال احيانا بسرية تامة بحيث لايدرى احد بها. يذكر الصابىء انه (أى ابن الفرات الوزير) نصب يوسف بن فيجاس وهرون بن عمران الجهبذ فلم يدع مالا لابن

---

[١] انظر المصدر السابق: ٦١.

[٢] انظر المصدر السابق: ١٠٤.

[٣] انظر المصدر السابق: ٤١.

[٤] انظر M. Lombard, Monnaies, p.177

المعتز والعباس بن الحسن ومن نكب وقتل في الفتنة (اى انقلاب ٢٩٦) وما صحّ من مال المصادرين وغيرهم من يجرى مجراهم الاّ اجراه على ايديهما دون يدى صاحبي بيت المال الخاصة والعامة ، وافرد ابن فرجويه كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما ، فكان يحاسبهما ولا يرفع الى الدواوين شيئا من حسابهما... وفاز ابن الفرات بالمال ولم يقم به حجّة عليه"[1].

وكانت مصادرة الاموال تتخذ احيانا شكل التضمين. والتضمين شبيه بالمصادرة لان هدفه هو تحصيل الاموال من المنكوب باللجوء الى شتى انواع التعذيب. ويتم التضمين بان يضمن احد الكتّاب او الوزير من خصم له مبلغا من المال يسلّمه الى الخليفة على ان يسلّمه الخليفة خصمه ويطلق يده في التصرف بحياته. وفي هذا المجال يذكر الصابىء ان المحسّن بن علي بن محمد بن الفرات اشار على والده وهو محبوس بان يضمن حامدا (وزير المقتدر آنذاك اى بين سنة ٣٠٦ و ٣١١) وعلي بن عيسى واسبابهما... وقد عرض عليه المقتدر بالله الشيء ذاته[2]. مما يشير الى ان التضمين كان اجراء يلجأ اليه الوزير المنكوب للايقاع بالوزير القائم وكان يستغل فيه حاجة الخليفة الملّحة الى الاموال. والمتصوّر ان هذه الحاجة هي التي ادت الى تفشي ظاهرة التضمين في مطلع القرن الرابع.

---

[1] الصابىء ، الوزراء : ٧٩.

[2] انظر المصدر السابق : ٦٩.

غير ان استخراج الاموال بالقوة والمصادرة والتضمين لم تكن الاساليب الوحيدة المتبعة لوضع اليد على اموال الكاتب او الوزير المخلوع. ولابد هنا من التمييز بين نوعين من المطالبة : الأولى هي التي سبق ذكرها والتي تسلك سبيل العسف والتنكيل، والثانية تسمّى مطالبة الكتّاب، ويتبع فيها اسلوب الكلام والتحقيق الشفهي، ولا يكون لصاحب الاستخراج دور يلعبه فيها. فالصابيء يروى ان ابا الحسن بن الفرات الوزير قلّد ابا سهل النّوبختي اعمال المبارك، وابا العلاء محمد ابن علي البزوفري اعمال الصلح والمزارعات ووافقهما على مطالبة حامد (بن العباس وزير المقتدر) بالمال المذكور (سنة ٣١١) فطالبه النوبختي مطالبة الكتّاب وسلك البزوفري معه سبيل العنت والارهاق"[1]، مما يشير الى تميّز المطالبتين. ويدخل في اطار مطالبة الكتّاب عملية المناظرة. والمناظرة نوع من المحاكمة يخضع لها الكاتب او الوزير بعد صرفه وهدفها استحصال فائض الاموال التي يكون قد اقتطعها لنفسه والتي تعتبر السلطة ان لها حقا فيها. وترقى المناظرة في الزمن الى بداية العصر العباسي وكانت تسمّى المحاسبة، ويذكر الجهشياري ان الخليفة المنصور امر وزيره ابا ايوب بمحاسبة طريف صاحب ديوان البريد[2]. وقد تطورت المناظرة

---

[1] المصدر السابق : ٣٤ — ٣٥.

[2] انظر الجهشياري، الوزراء : ١٠١.

في نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع لتصبح نوع من المحاكمة يخضع لها "المتهم".

وقد أورد الصابيء عددا من المناظرات التي خضع لها الوزراء المنكوبين ووجوه الكتّاب، نذكر من بينها على سبيل المثال مناظرة ابن الفرات لعلي بن عيسى سنة ٣٠٦. " قال: (ابن الفرات لعلي بن عيسى) قد أمر أمير المؤمنين بأن تطالب بالأموال التي اقتطعتها وجمعتها وينبغي ان تعطيها عفوا وتصون نفسك عن المكروه. قال: لست من ذوى الاموال وما لي قدرة على اكثر من ثلاثة آلاف دينار. فقال له ابن الفرات: تقول هذا وقد وجد لك عند عيسى الناقد سبعة عشر الف دينار وأخذ خطّه بها وديعة كانت لك عنده. فقال: هذا رجل قلدته مال ضياع البر والجهبذة وعنده أموال حاصلة. فاما ان يكون هذا المال منها او تكون قد اخذت ماله ونسبته اليّ واكرهته على ان كتب خطّه بذلك"[1].

وهذه الرواية تشير بوضوح الى هدف المناظرة الكامن هو استرجاع الاموال.

بقي ان نذكر ان المناظرة كانت تتم على مراحل. اما المرحلة الاولى فهي مرحلة وضع المؤامرة[2]، ويتولى ذلك الوزير يعاونه عدد من الكتّاب فيراجعون السجلات المتوفرة في الديوان ويستخرجون منها الوثائق التي لها دلالة معينة من حيث اقدام الكاتب او الوزير على سلب الاموال. وتنقسم المؤامرة في ابواب ولا تتناول فقط المبالغ التي اقتطعها الوزير لنفسه، بل احيانا تهما سياسية دينية يرمى

---

[1] الصابيء، الوزراء: ٢٩٠ — ٢٩١.

[2] انظر حول المؤامرة مقال Amedroz, Abbassid administration and its decay in The Journal of the Royal Asiatic Society, 1913, p.835.

بها الوزير، هكذا اتهم ابن الفرات الوزير عليّ بن عيسى بالقرمطة [١]. يتلو الوزير المؤامرة ويتتبعها المتهم بابا بابا وذلك بحضور كبار الكتّاب والقضاة واصحاب النفوذ والقادة العسكريين [٢] واحيانا بحضور الخليفة مستترا [٣]. وكان يحدث ان يطلب الوزير ان يختلي "بالمتهم". ويتقدم الوزير بعد الانتهاء من قراءة المؤامرة من "المتهم" ليأخذ خطّه. وأخذ الخطّ هو تعهد "المتهم" بدفع المبالغ المطلوبة منه او التنازل عن بعض الاملاك، او الاعتراف بالخيانة.

ويكمن امتياز المناظرة في انها تحافظ على حياة المتهم وترأف به وتستخدم معه الاساليب "الرفيقة المترفقة". وتأتي المناظرة لتحدّ نوعا ما من التنكيل والتعذيب، وهي اساليب كانت تستلزم اراقة الدماء، وبالتالي امكان زعزعة الوضع الامني، عدا عن انها تقوم على مبدأ اطلاق يد الوزير في العمل اى توسيع نفوذه. كذلك تأتي المناظرة محاولة تضمن استخراج الاموال بتجنّب اراقة الدماء والفوضى المترتبة عليها. لكن ذلك لايعني ان المناظرة حلّت كليا محلّ العسف والتنكيل. والاحداث التاريخية تدلّ على ان المناظرة غالبا ما كانت مجرد مقدمة للتنكيل "بالمتّهم"، لاسيما اذا رفض الكاتب او الوزير المنكوب تسليم الاموال المطالب بها. يروى الصابىء في حديثه عن نكبة ابن الفرات الثالثة سنة ٣١٢"... انهما (اى ابن الفرات وابنه المحسّن) لما رأيا ان قد سلّما الى اصحاب السيوف وعدل بهما عن الكتّاب خافا القتل وضنا باموالهما [٤]".

---

[١] الصابىء ، الوزراء : ٢٩٢ — ٢٩٣.

[٢] انظر المصدر السابق: ٢٩٢.

[٣] المصدر السابق: ٢٩٣.

[٤] المصدر السابق: ٦٠.

ولم يكن يخضع للمناظرة سوى الوزراء ووجوه الكتّاب وليست المناظرة محاكمة بالمعنى المعاصر للكلمة ، ولايمثل الكاتب امامها لانه متّهم بجناية معيّنة تكون هذا الاختلاس كما انه ليس اقتطاع مبالغ ضخمة هو الذى يحيل الوزير او الكاتب على المناظرة وليس سببا في نكبة الكاتب او الوزيرفي استخراج الاموال منه ، بل السبب في ذلك هو انقلاب الامور عليه وسعاية الآخرين به ثم حاجة الخليفة الملحة الى التزوّد بالاموال كما سبق ورأينا. وكانت هذه العوامل مجتمعة تؤدى الى نكبة الكاتب او الوزير واحالته على المناظرة حيث تثار مسألة اختلاس الاموال ، فتتم مناظرة الكاتب او الوزير اى استجوابه كما مرّ معنا. ولا يستطيع الكاتب او الوزير في المناظرة ان يثبت براءته لان المناظرة تنطلق من مبدأ ضرورة استخراج الاموال من "المتّهم" ، لا من مبدأ صحّة التهمة المنسوبة اليه. لذلك لم يكن دفع "المتّهم" للاموال المطالب بها يأتي محاولة للتعويض عن ذنب ارتكبه ، بل كضرورة يستلزمها تجريده من نفوذه وتمويل بيت المال. ولم يكن يطلق سراح المتهم في حال عدم اعترافه بالاموال التي لديه وغالبا ما كان يقتل اذا أصرّ على عدم الاعتراف كما حدث لابن الفرات الذى كان يأبى تسليم أمواله ، او يرمى بالسجن او المطبق ، واحيانا كان ينفى الى ناحية بعيدة رغبة بتحييده وعدم السماح له بترشيح نفسه كما حصل مع علي بن عيسى الذى أخرج الى مكّة[1].

وكان تقلب الاحوال ونكبة الكتّاب والوزراء يؤثر سلبا على فعالية الجهاز الادارى ، اذ صار هذا الجهاز غير قادر على ان يسير بمعزل عن التحوّلات السياسية الناتجة عن انتقال العهد او تبديل الوزراء. ونرى ان الوزارة تغيّرت في خلافة المقتدر أى بين سنة ٢٩٢ و ٣١٩ احدى عشرة مرة ، كان يتم في كل مرة تغيير الكتّاب الذين على رأس الدواوين ، وكان يعمد هؤلاء الى تعيين كتّاب من خواصهم يكتبون لهم. وهكذا لم تستطع المسؤولية الادارية ان تصمد امام التقلبات الثانوية. ولقد جرت محاولات عدة لجعل الوزارة اكثر

---

١ انظر المصدر السابق : ٣٠٧.

ثباتا ومن ثم المسؤوليات الادارية المتعلقة بها ، نذكر من بينها : محاولة الوزير المحتضر تعيين خليفة له كما فعل القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة المكتفي سنة ٢٩١ فقد عيّن العباس ابن الحسن خليفة له على الوزارة وقد ألتزم الخليفة بوصيّة وزيره [1] ونصب العباس بن الحسن وزيرا وعمد الى تقرير اصحاب الدواوين على دواوينهم كمحاولة للحؤول دون تبديلهم [2] . لكن هذه المحاولة فريدة من نوعها ولم يكن لها صدى فيما بعد ، اذ عادت الخلافات التي تمزّق فئة الكتّاب لتبرز من جديد بصورة مضاعفة في خلافة المقتدر ، وكانت فتن العامة وعصيان الجند من العوامل التي زادت الوضع توترا ، ذلك ان البيئة المدينيّة كانت بيئة حافلة بحركات التمرد التي عبّرت فيها العامة عن استيائها وسخطها .

على اية حال افادت السلطة المتمثّلة بالخليفة والقادة العسكريين من هذا الوضع بان اعلنت الوزير المخلوع مسؤولا الى حدّ ما عن الحرمان الذى كان العوام يعانونه في فترات كثيرة . وهكذا كانت نقمة هؤلاء تصبّ على الوزير بدل ان تصب على صاحب السلطان . وفي هذا المجال يذكر الصابىء ان نازوك ، صاحب الشرطة ، عندما اعتقل ابن الفرات في وزارته الثالثة سنة ٣١١ "اخرج ابن الفرات وابنيه وكتّابه الى شاطىء دجلة فلما شاهدهم العامة رجموهم [3] ". وقد شارك العوام ايضا الى جانب ذلك في مداهمة دور الوزير المنكوب يقول الصابىء ان العوام تسرعوا الى دور ابن الفرات في نكبته الاولى سنة ٢٩٩ "فنهبوها واخربوها واخذوا ساجها وسقوفها وعظم الامر بالنهب حتى ركب ابو القاسم الخال (خال المقتدر) بعد

---

[1] اورد الصابىء (المصدر السابق : ٣٦٠ - ٣٦١) وصية القاسم بن عبيد الله التي يقول فيها : "ولم اطب نفسا مع ما آلت اليه الحال بان امسك من النصح لمولانا حيا كنت ام ميتا ولا بد ان يقوم لخدمته من يصلح لها ويجرى مجراى في حراستها والذب عنها ... " .

[2] انظر المصدر السابق : ٣٦٣ .

[3] المصدر السابق : ٥٢ .

العصر في القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوما منهم ، فقامت الهيبة وسكنت الفتنة"[1]. ويشير المثل المذكور اعلاه الى ان الفتنة كانت تبلغ احيانا حدّا يستدعي تدخّل السلطة العسكرية لتضبط الامور وللحؤول دون تحول النقمة على الوزير واستباحة امواله الى فتنة حقيقية تهدد الخلافة بالذات . وتدل هذه الرواية كذلك على ان السلطة لم تكن تفيد من نكبة الوزير على صعيد تحصيل الاموال فحسب بل ايضا على صعيد امتصاص نقمة العوام فيستتب الأمن ولو لفترة وجيزة .

III — دور الجهاز الاداري في التوازن الاجتماعي

لقد سبق ان رأينا في الفصل السابق ان تقلب الاحوال ونكبة الوزراء والكتّاب كانا من العوامل المؤثرة على فعالية الجهاز الاداري وعلى منصب الوزارة عامة . ويبقى ان نعرف الاسباب العميقة التي زعزعت الجهاز الاداري وادت تدريجيا الى ضعف الوزارة في مطلع القرن الرابع .

لقد استطاع الكتّاب كما مرّ معنا احتلال المرتبة الثانية في السلطة بصورة عامة كما انهم استطاعوا رفع مستوى الجهاز الاداري الى ما يشبه المجلس الاستشاري. غير ان القادة العسكريين استمروا في محاولتهم السيطرة على الجهاز الاداري، وحسم الصراع بين الفريقين لصالح القوات العسكرية بدليل ان امير الامراء احتل المرتبة الثانية في الدولة البويهية . وكان الصراع القائم بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية يستمد جذوره من عوامل اجتماعية سياسية لابد من الاشارة اليها. اهمها العامل الذى ورد معنا في فصل سابق

---

[1] المصدر السابق : ٢٨ — ٢٩.

وهو ضرورة تأمين الارزاق للجند. وكانت تأتي تسوية مشكلة الارزاق احيانا بان يقلّد الخليفة قائدا عسكريا ناحية من النواحي يكون عاملا عليها ويتصرف بمداخيلها فينفق على جنده من خراجها كما حدث مع القائد التركي ايتاخ الذي ولاّه المعتصم اليمن سنة ٢٢٥[١]، ومع احمد ابن طولون الذي تقلّد مصر في خلافة المعتز سنة ٢٤٥[٢]. وكانت تولية القادة العسكريين اعمال النواحي وجباية الخراج تؤدي الى زيادة نفوذهم والى نضوب مصدر الضريبة لان اموال هذه الضريبة لم تعد تصل كاملة الى المركز. لقد ادى استيلاء الجند على مرافق الدولة الحيوية الى انحلال الوزارة وضعف الجهاز الاداري، لأن هذا الجهاز يستمد فعاليته وسلطته من قدرته على التحكم بموارد السلطة المالية واهمها ضريبة الخراج.

ونذكر ان الجهشياري وعى خطورة تقليد القادة النواحي اذ انه يقول في مقدمته مخاطبا صاحب السلطان:" واحذر ان تستعمل على الارض الكثير خراجها الا البعيد الصوت، العظيم شرف المنزلة. ولا تولين احدا من قادة جندك، الذين اتخذتهم عدة للحرب، وجنّة من الاعداء، خراجا، فلعلّك ان تهجم من بعضهم على خيانة للاموال وتضييع للعمل. فان سوغّته المال واغضيت له على التضييع كان ذلك هلاكا للمال..."[٣]. ويضيف الجهشياري مستشهدا بملوك فارس:" وكان ملوك فارس اذا انفذوا جيشا انفذوا معه وجها من وجوه كتّابهم، وامروا صاحب الجيش الا يحلّ ولا يرتحل الاّ برأيه، يبتغون بذلك فضل رأي الكاتب وحزمه"[٤]. ونرجح ان الجهشياري يلوح هنا بالانموذج

---

[١] انظر ابن الاثير، الكامل ٦ :٥١٦.

[٢] انظر المصدر السابق ٧ :١٨٧.

[٣] الجهشياري، الوزراء :٧ وانظر ايضا ابن المقفع ،رسالة الصحابة :١٢٢.

[٤] الجهشياري،الوزراء :٤ ويذكر الصابيء (الوزراء :٧٢)عن ابن الفرات ما يشبه هذا القول:"قال ابن الفرات:السيف تابع والقلم متبوع وقلّ سيف غلب القلم الاّ كان داعية الخراب".

الفارسي رغبة بجعل صاحب السلطان يحتذي حذو ملوك فارس ويعطي للكاتب — اي السلطة الادارية — الافضلية على السلطة العسكرية. ويتفق ما ورد على لسان الجهشياري مع ما ذكره ابن الفرات يقول الصابيء : عن ابي الحسن بن قرابة :" سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول لكاتب نجح وقد سأله تضمينه الصدقات بفارس، انما يرغب في عقد الضمان[1] على تاجر مليء. او عامل وفيء. او تان غنيّ. فاما اصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من اموالها تستدعي منهم العصيان وخلع طاعة السلطان"[2]. وتشير هذه الروايات مجتمعة الى خوف السلطة الادارية من تنامي نفوذ القادة العسكريين وتصرفهم باموال الدولة.

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد اذ برز عامل آخر هدد اموال السلطة هو توزيع القطائع على القادة اصحاب النفوذ. والقطائع هي اصلا الصوافي التي لم تكن في يد احد عند الفتح الاسلامي والتي استطاع الخليفة ان يتصرف بها من حيث اقطاعها لاحد المقربين اليه[3]. وكان اقطاع القطائع ينقل ملكية الارض بصورة فعليّة الى صاحب القطيعة اذ ليس للخليفة حق انتزاع قطيعة من شار او وارث وليس له ان ينقلها الى آخر[4]. ولقد أدى اقطاع الخليفة الصوافي الى نفاذها حتى اصبح الاقطاع يعني تحويل

---

[1] عقد الضمان او التضمين يتم بان تعهد السلطة الى احد التجار بجباية ضريبة الخراج من ناحية من النواحي. فيتقدم الضامن بتأمين المبالغ قبل موعد الجباية على ان تكون قيمة الاموال المدفوعة للسلطة اقل بقليل من القيمة الاصلية المجباة من ناحية معينة. هكذا يؤمن الضامن لنفسه الربح وتكون السلطة قد لبت حاجتها الملحة الى الاموال وكان التضمين يتم من سنة الى ثلاث سنوات وهو قابل للتجديد (انظر C.Cahen, Islam I, p. 81.)؟

[2] الصابيء ، الوزراء : ٧١.

[3] انظر ابو يوسف ، الخراج : ٦٢.

[4] انظر المصدر السابق: ٦٦.

اراض من اراضي الخراج الى صواف وانتقالها من رسم ضريبة الخراج الى رسم ضريبة العشر[1]. ونرجح ان السبب في تفشي ظاهرة اقطاع القطائع في بداية القرن الرابع يعود الى رغبة السلطة في ارضاء القادة العسكريين وصعوبة تلبية مطالبهم في الآن نفسه. ويورد الصابىء في هذا الصدد رواية شديدة الدلالة تدور في وزارة القاسم بن عبيد الله سنة ٢٨٨ — ٢٨٩ ، تقول الرواية :" جاء ابن سمعان صاحب بدر المعتضدى (وهو قائد عسكرى) الى ابى النجم بدر (من القادة ايضا) وقال له : ايها الامير، احمد بن محمد بن الفرات (صاحب ديوان الخراج آنذاك) لا يزال يستخفّ بنا ويستهين برسلنا ويجبههم بالقبيح فيما يوصلونه اليه ويعرضونه عليه من التوقيعات باقطاعاتك وهو عدو مكاشف لهذه الدولة... فقال له بدر:... امض الى ديوانه وجئني به. فجاءه به فلمّا رآه قال له : أمسيطر انت على مولاى ام شريك له يقطعني الاقطاعات فتمتنع منها وتعترض فيها. فقال له : اسمع ايها الامير قولي ، فان ثبتت عندك حجّة لي فخفّض من لومي والا عملت بعدها ما رأيت. انت تعلم ان قوام الملك بالمال، وان الجند لايسمعون ولا يطيعون الّا ان اعطاهم ، وان عدموا المال كان ذلك الداعية القوية الى ذهاب الملك وسفك الدماء وانقطاع السبل وانتهاك المحارم. وجميع المال في عنقي وعليّ فاذا خرجت الضياع من الاقطاع تبعها الخراج فتحيّفت الحقوق وأضيف الى كل ناحية ما يجاورها وكان في ذلك ما لا خفاء به مما اعوذ بالله منه"[2].

ان اقطاع القطائع ادى حسب رأى كاهن الى نشوء فئة من الارستقراطية المتملكة "والاقطاع" الناشىء بين كبار القادة العسكريين[3]. بينما شكّل الكتّاب فئة البرجوازية المدينية

---

[1] انظر المصدر السابق : ٦٣.

[2] الصابىء ،الوزراء : ١٧٩ — ١٨٠.

[3] انظر C. Cahen, Islam I, p. 147.

وكانوا يتعاطون العمليات التجارية او يوظفون اموالهم فيها. نذكر مثلا ان ابا ايوب المورياني الوزير اشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة في خلافة المنصور طامعا في الربح. ويذكر الصابيء ان ابن الفرات اودع ماله بعض الجهابذة في وزارته الاولى كي يوظّفوه في بعض المشاريع فيجني ارباحا من ذلك.[١]

وكان الكتبة بالاضافة الى ذلك مرتبطين بفئة التجار، اذ كان التجار دعامتهم في السلطة، فيبادرون الى مدّ الوزراء بالاموال عند اللزوم. او يبيعون المحصول الزراعي ويدفعون اموال الضريبة الى الوزير ويجنون من ذلك الارباح. يروى الجهشياري ان "كان التجار في بغداد قد انفذوا وكلاءهم ورسلهم الى الفضل بن سهل (ذي الرياستين في خلافة المأمون) ليناظروه عنهم في غلّات السواد، واعطوه عطايا لم يجبهم اليها فقال لي (والمتحدث هو الحسن بن سهل اخوه): قد علمت ما دار اليوم بيني وبين وكلاء تجار السواد وأني تأبيت قبول ما بذلوه، فاحضرهم وامض البيع لهم..."[٢]. ويعطي الصابيء صورة عن ارتباط التجار بالجهاز الاداري وبالاخص بالوزير، فيقول:" وكان علي بن عيسى اذا حلّ المال وليس له وجه استسلف من التجار على سفاتج وردت من الاطراف لم تحلّ عشرة آلاف دينار بربح دانق ونصف فضة في كل دينار يلزمه في كل شهر الفان وخمسماية درهم ارباحا. فلم يزل هذا الرسم جاريا على يوسف بن فيجاس وهرون بن عمران (وهما من الجهابذة) ومن قام مقامهما مدة ست عشرة سنة"[٣]. وقد ورد على لسان ابن الفرات ما يشير الى انه كان يحبّذ عقد ضمان الارض على الاغنياء من التجار[٤]. غير ان تعاطي الكتّاب والوزراء الاعمال التجارية وارتباطهم بالتجار لايعني قط انه لم يتملّكوا

---

[١] انظر الجهشياري، الوزراء: ١١٧، والصابيء، الوزراء: ٧٩.

[٢] الجهشياري، الوزراء: ٣١٩.

[٣] الصابيء، الوزراء: ٨١.

[٤] انظر المصدر السابق: ٧١.

الاراضي. لقد افاد الكتّاب عامة من عملية التلجئة[١] أو الالجاء ،وهي نوع من الوصاية يقوم بها احد وجوه الكتّاب على ضيعة ما استجابة لطلب صاحبها ، وكان هذا الاجراء يؤدي الى انتقال ملكية الارض من المتملك الى صاحب النفوذ بصورة تدريجية كما سوف نرى. لكن تملك الاراضي من قبل الكتّاب لم يكن يتم بالسرعة التي تم بها اقطاع الاراضي وتوزيعها على كبار القادة ، اذ لا بد ان تمضي بضعة سنوات قبل ان يحصل الكاتب على امتيازات تصبح الارض بموجبها ملكا له .

ويرى بلانول ان تملك الاراضي في المجتمع الاسلامي كان خاصة البرجوازية المدينية التي لم تر ضرورة الاقامة في الاراضي التي تملكها والابتعاد عن الحضرة[٢]. وتشير هذه الروايات الى ان القادة العسكريين والكتّاب الاداريين كانوا ينتمون الى فئتين اجتماعيتين متميزتين لكل منهما مصالح مختلفة. اذن رافق صعود الارستقراطية العسكرية في السلم الاجتماعي صعود طبقة التجار فيه ، تلك الطبقة التي اتفقت مصالحها مع مصالح فئة الكتّاب كما يقول كاهن[٣]. وقد حاول كل من الفئتين — التجار والقادة — السيطرة على السلطة من خلال السيطرة على موارد الضريبة. سعى القادة لتولي ناحية من النواحي او التصرف بقطيعة من القطائع بينما سعى التجار لعقد ضمان على ارض الخراج[٤].

---

[١] انظر الجهشياري ،الوزراء :١١٨. ويرى بلانول(Fondements, pp. 52-53) ان طبيعة الانتاج الزراعي في الاراضي التي اعتمدت على الرى حتمت على صغار الملاكين الاعتماد على مشاريع الرى التي تقوم بها السلطة المركزية وتموّلها فيرتبطون بالمركز عن طريق ممثليها في الاطراف. يؤدى هذا الارتباط الى تمتع موظفي الدولة بامتيازات لهم على الارض

[٢] انظر X. de Planhol, Fondements, p.52-53

[٣] انظر C. Cahen, Islam I, p.118.

[٤] يقول الصابىء (الوزراء :٣٤) "وكان اصحاب الدواوين في وزارة ابن علي الخاقاني (حوالي سنة ٣٠٠) شرطوا على حامد في ضمانه الاول لاعمال واسط ان يؤدى في آخر سني ضمانه ... مائتين وخمسين الف دينار".

اما دور الجهاز الاداري وفئة الكتّاب فكان يتمثل في المحافظة على علاقاتهم بالتجار الذين يشاركونهم المصالح ذاتها وفي ارضاء القادة العسكريين من حيث تأمين ارزاق الجند دون التمادي في اقطاعهم القطائع وتوليتهم الاعمال لان ذلك يؤدي الى نضوب مصدر الضريبة. ان محور الصراع بين الكتّاب والجند هو السلطة وسعة النفوذ. وهذا الصراع غير متكافيء بدليل ان القادة اعتمدوا على دعم القوات المسلحة بينما استمدت فئة الكتّاب نفوذها من فعالية الجهاز الاداري وحده دون الاعتماد على العوام او على القوات المسلّحة. ولقد حاول ابن الفرات في وزارته الثالثة ان ينمّي نفوذه على حساب نفوذ القائد العسكري مؤنس بان اقنع المقتدر بابعاد مؤنس عن الحضرة [١]، فيتم بذلك تهيئة الاجواء ليستأثر الوزير بالامر. لكن ابعاد مؤنس لم يطل اذ استدعاه المقتدر لحاجته اليه في قمع فتنة العامة في بغداد [٢].

وبالاضافة الى ذلك فان سياسة ابن الفرات المتبعة تجاه الكتّاب والحاقه الاذى بعدد منهم والتنكيل والعسف بهم قد اضعف هذه الطبقة واحدث فيها البلبلة والانشقاق بحيث لم تعد تمثل وحدة متماسكة، فكان ان افاد العسكر من انحلال الطبقة الجزئي، وهذا الامر هو الذي هيّأ الوضع لتولي امير الامراء المرتبة الثانية بدلا من الوزير. غير ان بلانول لا يرى ان سياسة ابن الفرات هي المسؤولة بصورة مطلقة عن فوز امير الامراء وضعف الجهاز الاداري بل طبيعة الارستقراطية العسكرية المتملّكة واختلافها الجذري عن الانموذج الغربي للنظام الاقطاعي. ويرى بلانول ان المقطع في العصر العباسي لم يتسلم قطيعته بهدف البقاء فيها واستثمارها ومحاولة الافلات من السلطة المركزية باعلانه السيطرة المطلقة على

---

[١] انظر المصدر السابق: ٤٦.

[٢] انظر المصدر السابق: ٤٩ — ٥٠.

البقعة التي يمتلكها [1]، ولم يحاربها من بعيد بل انه في حالة تنقل مستمر بين المركز والاطراف وطرف في الصراعات القائمة حول السلطة في المركز لذلك فقد حاول ان ينتزعها ونجح بسبب قدرته الاعتماد على القوات المسلحة. وكان لنجاح القيادة العسكريين في الاستيلاء على السلطة تأثير سلبي على الجهاز الاداري ويذكر مسكويه ان معزّ الدولة البويهي استغنى سنة ٣٣٤ عن اكثر الدواوين فبطلت وبطلت ازمّتها وجمعت الاعمال كلّها في ديوان واحد [2].

---

[1] يرى بلانول (Fondements, p.55) ان هدف المقطع لم يكن زيادة الانتاج الزراعي ولم يعتمد على الرقيق كقوّة منتجة كما انه لم يفرض السّخرة على احد بل كان يكتفي بفرض ضريبة على سكان قطيعته تحدد مبلغها السلطة المركزية. ادى ذلك الى تراجع الانتاج الزراعي والى عدم اكتمال نظام القطائع ليبلغ نظام الاقطاع.

[2] انظر مسكويه ، تجارب الامم (تحقيق امدروز، مطبعة شركة التمدّن الصناعية ، مصر، ١٩١٥) ٢: ٩٦.

الفصل الثالث

==========

طبقة الكتاب وامتيازاتها

I — تكوّن طبقة الكتّـــاب

لا بد — بعد الفراغ من الكلام عن الجهاز الاداري ورئاسة هذا الجهاز المتمثلة بالمرتبة الثانية — من التطرق الى طبقة الكتّاب اجتماعيا ككل، اعني بذلك من عرض تطور هذه الطبقة التاريخي منذ بداية تكونها اى في نهاية العصر الاموى ومطلع العباسي، مع الاشارة الى اهم السّمات التي اشترك فيها الكتّاب والمراتب التي كانوا عليها والامتيازات التي تمتعوا بها بسبب انتمائهم الى هذه الطبقة.

لقد ترافق تكون طبقة الكتّاب مع الانجاز الذى تم في الحقل الاداري، في الدولة الاسلامية، وقد ارتسمت ملامح هذا التكوّن، الذى جعل الكتّاب يؤلفون معشرا — حسب تعبير عبد الحميد [١]، اى وسطا معينا او طبقة معينة بشكل خاص في الحضرة حيث الادارة المركزية. ونشير الى حقيقة معينة هي ان الكتّاب هم الذين دافعوا عن تكوّنهم كطبقة، وهم الذين شرّعوا لمجتمع الطبقات في كتاباتهم. يقول ابن المدبر الكاتب في رسالته العذراء معددا طبقات المجتمع: " فالطبقة العليا الخلافة،... والطبقة الثانية الوزارة والكتّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتقون الفتوق بآرائهم، ويتجملون بآدابهم، الثالثة امراء الثغور،... والرابعة القضاة" [٢]، وهذا يشبه الى حد بعيد الانموذج الاجتماعي الذى عبّر عنه عهد اردشير والذى مؤاده الفصل بين الطبقات وعدم انتقال الافراد الى طبقـــات

---

١ انظر الجهشياري، الوزراء : ٧٤.

٢ ابن المدبر، الرسالة العذراء (تحقيق زكي مبارك، الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٣١)١٠، وعن صحة نسب الرسالة العذراء لابن المدبر انظر تعليق دومينيك سودريل في تحقيقه لكتاب الكتّاب وصفة الدواة والقلم للبغدادى، in Bulletin d'Etudes Orientales, 1952 -54, vol.14, p.116.

لا ينتمون اليها في الاصل [1]. ونرى من خلال ما ورد على لسان ابن المدبر، كاتب المأمون، ان الكتّاب كانوا ينشدون التشكل في طبقة على ان تحتل هذه الطبقة المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، وتأتي مباشرة بعد مرتبة الخليفة، أي في أقرب المواطن من صاحب السلطان.

وبما ان صاحب السلطان هو أيضا مصدر سلطة الكاتب، فان ملازمة الكاتب له امر بالغ الأهمية لايمكن التفريط فيه في نظر الكتّاب وقد اتجهت طبقة الكتّاب نحو "الانغلاق" - كما سوف نرى - لتحافظ على هذا الامتياز، أي امتياز ملازمة صاحب السلطان، وكانت ترى ان هذا الانغلاق يتحقق باحتكار صناعة الكتابة، وقد ورد على لسان الجاحظ ما يشير الى احتكار الكتاب لصناعة الكتابة اذ يقول مخاطبا الكتاب:" ثم انكم مع استحواذكم على صناعتكم، وقلة ملابسة اهل الصناعات لها معكم، لم ار صناعة من الصناعات الا وقد يجمع اهلها غيرها اليها فيعانونها جميعا، وينزلون لضرب من التجارات معا، الا صناعتكم هذه، فان المتعاطي لها منكم والمتسمي لها من نظرائكم، لا يليق به ملابسة سواها ولا ينساغ له التشاغل بغيرها" [2]. وفي هذا النص يظهر الجاحظ انه يعي حقيقة واضحة هي عدم منافسة اهل الصناعات للكتّاب وعدم مشاركتهم في صناعة الكتابة. لهذا السبب نجح الكتّاب في صيانة صناعتهم والطبقة المرتبطة بها والتي تمثل نخبة معينة. غير ان ما يثير دهشة الجاحظ كون الكتّاب لا يفيدون من مصدر الاطمئنان الذى يشكله احتكارهم الصناعة بصورة استثنائية، وعدولهم بالتالي عن كسر طوق هذه الطبقة وممارسة اعمال يسترزقون منها. ولا بد ان يكون

---

[1] ورد في عهد اردشير ما يلي:" ولا يكون (اى الامام) لانتقاله عن الملك باجزع منه لانتقال صنف من هذه الاصناف الى غير رتبته، لان تنقّل الناس عن مراتبهم سريع في تنقل الملك عن ملكه". (عهد اردشير، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧: ٦٣).

[2] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢١٠.

هذا الانكفاء على الذات ملازما لطبيعة الصناعة التي لا تسمح للكاتب بالابتعاد عن الدواوين. ونضيف الى ذلك ان صناعة الكتابة تشكل بالنسبة للكاتب مصدر امتيازات تغنيه عن التحول الى غيرها وتجعله يتشبث بها [1].

ويبقى امتهان الصناعة في جميع الاحوال هو العامل الاساسي الذي يجمع بين المنتمين الى فئة الكتّاب. فالكتّاب لا يجمع بينهم نسب واحد، اذ منهم العربي والاعجمي كما لا يجمعهم دين واحد، ومنهم النصراني والمجوسي والمسلم.

غير ان هنالك عوامل اخرى غير اتقان الصناعة كانت تسهم في "انغلاق" الطبقة، واهم هذه العوامل بروز تكتلات عائلية امتهن افرادها صناعة الكتابة جيلا بعد جيل. وكانت هذه العائلات تتصل بدار الخلافة عن طريق تولي احد افرادها مسؤولية ادارية. ولا شك ان اول عائلة امتهنت صناعة الكتابة هي عائلة برمك التي احتل افرادها مسؤوليات ادارية بالغة الاهمية في خلافة الرشيد [2]. ويمثل البرامكة حالة استثنائية من حيث تولي افراد عائلة واحدة شؤون الادارة في اوائل العصر العباسي، ولا بد ان تكون السلطة قد تلقت درسا من البرامكة، اذ تعاظمت سلطة هذه الاسرة تعاظما شديدا جعلها تظهر وكأنها مصدر خطر على الدولة، فاختفت التكتلات العائلية من الجهاز الاداري مدة من الزمن، ثم عادت لتبرز من

---

[1] لا يجوز ان يبتعد الكاتب عن دار الخلافة اي عن مصدر سلطته ورزقه في حال ان كبار التجار والاثرياء يسعون بشتى الوسائل لملازمة صاحب السلطان.

[2] يقول الجهشياري (المصدر السابق: ١٧٧): "وكانت الدواوين كلها الى يحيى بن خالد مع الوزارة". وقد وزع يحيى المسؤوليات الادارية على اولاده جعفر والفضل ومحمد. ويضيف الجهشياري (المصدر السابق: ١٩٣): "وكان يكتب لمحمد (بن الرشيد) على الزمام محمد بن يحيى ابن خالد" (انظر ايضا المصدر السابق: ١٢٣ — ١٤٣).

جديد قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة. ويذكر من بين هذه العائلات: بنو الجرّاح، وبنو وهب، وبنو خاقان، وبنو الفرات [1]. وقد اصبحت هذه العائلات تشكل نوعا من "الارستقراطية السياسية" اذا صحّت العبارة، وكان المنتمون اليها يشغلون المناصب المرموقة كولاية الخراج والوزارة. وقد ظهر من بني وهب مثلا خمسة وزراء هم: سليمان بن وهب وزير المهتدي (٢٥٦ هـ)، وعبيد الله بن سليمان وزير المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٨ هـ)، والقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد والمكتفي (٢٨٨ — ٢٩١ هـ)، وابنه الحسين بن القاسم وزير المقتدر (٣١٩)، ومحمد بن القاسم وزير القاهر (٣٢١) [2]، فشكلت هذه العائلات مجموعات تفيد منها السلطة لتتزود بكبار المسؤولين الاداريين.

وهكذا اصبحت الصناعة وراثية في التكتلات العائلية، وعمد الآباء الى تحضير اولادهم كي يتولوا مناصب مثل مناصبهم او مناصب غيرها في الادارة [3]. ولا نملك معلومات كافية حول صغار الكتّاب، اي الورّاقين والمحررين وغيرهم ممن لم يتولوا مركزا عاليا في الادارة، ولا نعرف ما اذا كانت الصناعة بالنسبة لهم شأنا وراثيا، اولا، لكن في

---

[1] يعطي D.Sourdel, Vizirat, vol.II, p.744- 748 لائحة مفصلة باسماء المنتمين الى هذه العائلات والمناصب التي شغلوها.

[2] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 745

[3] لم يتعلق الامر بتلقين الصناعة فقط بل تعداه الى تهيئة الجو العام للكاتب المقبل. هكذا فعل يحيى البرمكي اذ يقول الجهشياري (الوزراء: ١٨٠): "... احضر (اي يحيى البرمكي) مؤدب ابنه هذا (اي ابراهيم) ومن كان ضم اليه من كتّابه واصحابه، فقال لهم: ما حال ابراهيم؟ قالوا: قد بلغ من الادب كذا ونظر في كذا، وقد اتخذنا له من الضياع كذا، وبلغت غلته كذا، قال: ما عن هذا سألت، انما سألت: هل اتخذتم له في اعناق الرجال منا، وحبّبتموه الى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبئس العشراء انتم...".

كلتا الحالتين تنبغي الاشارة الى انه ليس هنالك منصب وراثي في الادارة بالمعنى الدقيق، اذ يرث الابن الصناعة لا المنصب. وقرار وراثته المنصب ليس امرا عائدا اليه قط. غير أن وراثة الصناعة جعلت السلطة تتجه مرغمة احيانا نحو الاستعانة بمن توفر من الكتّاب الذين يتقنون هذه الصناعة، فأسهم ذلك في جعل طبقة الكتّاب مكونة في قسم منها من عائلات معينة، وهذا هو السبب في ظهور عبارة "اولاد الكتّاب" للدلالة على البيئة الاجتماعية التي تربّى هؤلاء فيها [1].

هل بلغت طبقة الكتّاب صورة الانغلاق التام؟ نستطيع ان نقول انها لم تبلغ ذلك، فعدا عن اننا لا نعرف الكثير عن صغار الكتّاب وانتمائهم العائلي، فاننا نعرف عددا من وجوه الكتّاب، اى من الوزراء ومن اصحاب الدواوين والكتّاب المقرّبين منهم الذين انتموا الى عائلات لم تعرف باتقان هذه الصناعة، ولقد اتصل بعض الكتّاب بدار الخلافة عن طريق تولي فرد من افراد عائلتهم منصبا غير اداري في دار الخلافة اول الامر. ونذكر على سبيل المثال محمد ابن عبد الملك الزيات وزير المعتصم (٢٢١ — ٢٢٧)، والواثق (٢٢٧ — ٢٣٢)، والمتوكل (٢٣٢—)، اذ اتصل بالخليفة بعد ان كان والده من قبل يتقلّد المشمّس والفساطيط وآلة الجمازات [2]. ولعل ابن الزيات كان ينتمي الى عائلة من التجار — كما قد يدل عليه اسمه — لكنه ما لبث ان اتقن صناعة الكتابة فتمكن من احتلال عدة مناصب ادارية.

---

[1] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol.II, p.567

[2] انظر الطبري، تاريخ ٣:٩٠. والمشمّس او المشمس: يحمل ليقي الخليفة من الشمس، وكان يحاط بعناية خاصة. والفساطيط: ضرب من الابنية في السفر دون السرادق. وآلة الجمّازات: مدرّعة صوف ضيقة الكمين وتعتبر من حلى الجمال. (انظر المصدر السابق ٩: ٢٠ وأيضا D. Sourdel, Vizirat, vol.I, p. 255)

وغالبا ما كان دخول الكاتب دار الخلافة يتم بواسطة الوزير، او احد كبار الكتّاب، فيتبنّاه ويدخله في شؤون الادارة دون ان تكون بينهما رابطة عائلية، فيكون الكاتب الجديد صنيعة فلان من كبار الكتّاب، او صنيعة الوزير. هكذا اورث البرامكة السلطة العباسية، بعد زوال امرهم ونكبتهم (١٧٨)، كتبة عديدين لا ينتمون الى البرامكة لكنهم دخلوا الدواوين على ايديهم، نذكر من بينهم الفضل بن سهل والحسن بن سهل[١]. وقد استمر هذا الرّسم فيما بعد.

وتعتبر طبقة الكتّاب في واجهة الطبقات في الحضرة، وهذا ما يجعلها قيّمة على الحركات الفكرية والادبية والشعرية، اذ يصبح وجوه الكتّاب هم صلة الوصل بين الشعراء مثلا[٢] ودار الخلافة، يقصدهم هؤلاء في بعض الاحيان لبلوغ صاحب السلطان. ولم يقتصر الامر على الشعراء بل لعلّه تعدّاهم الى اللغويين والنسّابة والادباء والرواة. ولقد بدأ هذا الدور الذى قامت طبقة الكتّاب به في الحياة الثقافية مع البرامكة: اذ يشير الجهشيارى الى ان "... جعفر (بن يحيى البرمكي) أوصل الاصمعي الى الرشيد"[٣]. ومهما يكن الامر فان هذا الدور الثقافي للكتّاب نما وعظم فاصبح الكتّاب يستقطبون عددا

---

[١] انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢٣٠ — ٢٣١.

[٢] لم تكن ظاهرة اتصال الشعراء بالخليفة في كنف السلطة العباسية امرا جديدا بل كانت قائمة منذ زمن الامويين، الا انه رافقتها في العصر الاموى ظاهرة اخرى تكمن في تمثيل الشاعر لقبيلته في دار الخلافة في معظم الاحيان. اما في العصر العباسي فان طبقة الكتّاب سوف تتبنى الذين انسلخوا نوعا ما عن قبائلهم بعد زوال بنية القبيلة تقريبا وسوف يمرّ الشعراء عبر وساطتها في كثير من الاحيان، (انظر زبّال، تكوّن: ٨٥).

[٣] الجهشيارى، الوزراء: ١٨٩.

من المتصلين بالثقافة ، ويجعلون من بغداد العاصمة نقطة التقاء لشتى الروافد الثقافية .

ولم يقتصر دور الكتّاب في انعاش الحياة الثقافية على القيام بدور الوساطة بين دار الخلافة واصحاب الثقافة ، بل ان الكتّاب شاركوا قبل ذلك في التشريع السياسي الاجتماعي والاداري، نذكر من بينهم : عبد الحميد وابن المقفع وضع الاول رسالته في الكتّاب [١] ورسالته الى ولّي العهد التي نصح فيها ولّي العهد بالتروى والنظر في الاعمال واتخاذ الحاجب واختيار المستشارين الصالحين وتجنب الحرب قدر المستطاع. ورسالته تعتبر مرجعا في الاستراتيجية الحربية [٢] . اما ابن المقفع فقد وضع رسالة الصحابة التي تعالج فيما تعالج من موضوعات موضوع تنظيم الجند الخراسانية [٣] وشرّع في كتاب الادب الكبير — اذا اصحت نسبة هذا الكتاب له ، على الشك في ذلك — لكيفية اختيار العمال والمستشارين الصالحين [٤] . وقد اسهمت هذه الجهود التي بذلها عبد الحميد وابن المقفع في جعل المعرفة الفارسية في السياسة في متناول الخلافة الاسلامية، وتدخل

---

[١] انظر رسالة عبد الحميد الى الكتّاب في الجهشياري، الوزراء :٧٤—٧٩.

[٢] انظر عبد الحميد ،رسالة الى ولّي العهد ،في رسائل البلغاء :١٧٣—٢١٠.

[٣] انظر رسالة ابن المقفع في الصحابة ،في المصدر السابق:١١٧ — ١٣٤.

[٤] انظر كتاب الادب الكبير في المصدر السابق:١٠٤—١٠٦. ونضيف الى ان هنالك شك في صحة نسب هذا الكتاب الى ابن المقفع اذ يرى الاستاذ احسان عباس انه اذ كان هنالك علاقة لابن المقفع بكتاب الآداب الكبير كما يسميه فان ذلك يكون من ناحية الترجمة لا التأليف،وهذه الترجمة قد تكون نقلا عن الابستا الفارسية او عن الحكم اليونانية او غيرها من المصادر التي يصعب علينا تحديدها بدقة ، منها رسالة منسوبة الى ارسطاطاليس بعث بها الى الاسكندر(انظر احسان عباس،نظرة جديدة في بعض الكتب المنسوبة لابن المقفع ،مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٧، مجلد ٥٢ ، ج ٣: ٢٠٤ — ٦).

النزعة الشعوبية في هذا الاطار فهي تنشد تفضيل الفرس على العرب وتحاول ان تستعيد المجد الفارسي القديم بالعودة الى الافكار الفارسية بالاضافة الى نمط الحياة الفارسي المتعلق بتفاصيل الحياة ، وفي هذا المجال يقول المؤرخ عبد العزيز الدوري ان العباسيين اقاموا اساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب . "وقد اعتبروا الولاء لهم اساس كل شيء ، وخلقوا بيروقراطية من الموظفين ، وجعلوا من الكتّاب قاعدتهم الاساسية .. ولا يخفى ان جل هؤلاء من الموالي وانهم كفئة ينظرون نظرة تمجيد الى التراث الثقافي الساساني ويرجعون اليه في الكثير من قيمهم ومفاهيمهم" [١] . ويشير الجاحظ الى نفور الكتّاب عامة من الثقافة الدينية الاسلامية وتعويلهم على التراث الفارسي في قوله: "ثم الناشيء منهم (اى من الكتّاب) اذا وطيء مقعد الرياسة ، وتورك مشورة الخلافة ... ظنّ انه الفاروق الاكبر في التدبير... فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه . فان استرجع احد عنده اصحاب الرسول ... فتل عند ذكرهم شدقه ..." [٢] .

وترقى النزعة الشعوبية الى العصر العباسي الاول اى بعد ان اصبح الجهاز الادارى المعقد يعتمد بقسمه الاكبر على الموالي [٣] . لكن تنبغي الاشارة الى طبيعة التعالي الفارسي في النزعة الشعوبية ، اذ الهدف منه ليس تولية الفرس مكان العرب بل هو تأسيس معرفة فارسية في السياسة والحياة والملبس والمشرب يقوم عليها الحكم ، تكون العربية لغتها ، والاسلام دينها ، والكتّاب الفئة المشرّعة لها . ان الانتصار يكون بالنسبة للكتّاب الشعوبيين

---

[١] عبد العزيز الدورى ، الجذور التاريخية للشعوبية (الطبعة الاولى بيروت ، ١٩٦٢) ٣٩ — ٤٠ .

[٢] الجاحظ ، رسالة في ذم أخلاق الكتاب ٢ : ١٩١ — ١٩٢ .

[٣] انظر C. Cahen, Islam I, p. 75.

باظهار تفوق الحضارة الفارسية والعمل على جعلها مرجعا لا غنى عنه للخلافة الاسلامية [١].

وقد بلغت النزعة الشعوبية اوجها في خلافة الرشيد والمأمون، في وزارة يحيى البرمكي للرشيد وفي وزارة الفضل بن سهل للمأمون. ويصف الجهشياري كيف كان الفضل يقلّد الاكاسرة في مجلسه فيقول: " وكان ذو الرياستين (الفضل بن سهل) يجلس على كرسي مجنّح، ويحمل فيه اذا اراد الدخول على المأمون، فلا يزل يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فاذا وقعت وضع الكرسّي، ونزل عنه، فمشى، وحمل الكرسي، حتى يوضع بين يدى المأمون، ثم يسلّم ذو الرياستين، ويعود فيقعد عليه... قال: وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك الى مذهب الاكاسرة، فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسّي" [٢].

ومما يشير الى تفشي النزعة الشعوبية في فئة الكتّاب ما ورد على لسان ابن قتيبة في "كتاب العرب او الرد على الشعوبية" اذ يقول: "وانما لهجت السفلة منهم (يعني من الشعوبيين) بذمّ العرب، لان منهم قوما تحلّوا بحلية الادب، فجالسوا الاشراف وقوما اتّسموا بميسم

---

[١] وينطبق ذلك على رسائل سالم ابي العلاء التي نقلها الى اللغة العربية في خلافة هشام بن عبد الملك (انظر M. Grignaschi,"rasā'il aristaṭālīsā'ila-l-iskandar in Bulletin d'Etudes Orientales, 1965-66, vol. 19, p. 7-83)
ويقول غرينياسكي (المصدر السابق: p.45): "ان هذه المخطوطات (رسائل سالم) تحتفظ بأحد اقدم آثار النثر العربي، وهي تقول للمرة الاولى كيف اعتبر كتّاب اواخر الخلفاء المروانيين الامبراطورية الساسانية انموذجا سياسيا يحتذى، وينصّب حتى كمثل للعرب اصحاب السيادة، وذلك قبل انتصار الموالي في خراسان".

[٢] الجهشياري، الوزراء: ٣١٦.

الكتابة ، فقرّبوا من السلطان ، فدخلتهم الأنفة لآدابهم ، والغضاضة لاقدارهم ، من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم" [١] .

وابن قتيبة لا يبالي بشعوبية السوقة وانما ما يثير حفيظته هو شعوبية الكتّاب، شعوبية الذين في صحبة السلطان. ويثور الجاحظ ايضا على شعوبية بعض الكتّاب اذ يقول:" وكان ابراهيم (بن اسماعيل بن داود كاتب المأمون) شعوبيا ، وكان يتهم بالثنوية . فان كان ذلك صحيحا فقد كانت صبابته بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها. وهذه علة المرتد من الكتّاب" [٢] . مما يشير الى تفشي هذه النزعة في فئة الكتّاب .

II ـ مذهب الكتّاب

لم يكن الكتّاب في الجهاز الاداري يشتركون في دين واحد أو مذهب واحد ، وهذا ما يميّز المسؤولية الادارية عن المسؤوليات الاخرى. فالمسؤولية الادارية المتجلية بصناعة الكتابة تجيز اعتلاء غير المسلمين مناصبها ، في حين تنحصر المسؤوليات القضائية والعسكرية بالمسلمين [٣] . وقد سبق ان رأينا كيف تعرّض الكتّاب المجوس والنصارى للابعاد وحتى للتنكيل في المرحلة التي تلت

---

[١] ابن قتيبة ، كتاب العرب او الرد على الشعوبية ،في رسائل البلغاء : ٣٤٥.

[٢] الجاحظ ، رسالة في ذم أخلاق الكتاب ٢ : ٢٠٤.

[٣] انظر C. Cahen, Islam I, p. 101

التعريب وذلك لاسباب سياسية ، وقامت بهذه الاجراءات الدولة الأموية والعباسية على السواء بدليل انها اجراءات استمرت في خلافة المنصور [١]. وقد سجّل التاريخ ايضا حملة قام بها المهدى ضد الزنادقة وطالت عددا من الكتّاب. يقول الجهشيارى: ان "قلّد (المهدى) عمر الكلوذاني طلبهم (أى الزنادقة) وظفر فيهم بيزيد ابن الفيض، كاتب المنصور ، فاقر بالزندقة" [٢].

ولا نعرف بالضبط اسباب حملة المهدى، وقد تكون كامنة في الاحداث السياسية التي شهدتها خلافة المهدى، واهمها: ثورة المقنّع التي اتصفت بصبغة دينية واضحة هي مزيج من التشيّع والمجوسية [٣]. لكن هذه الاجراءات التي تكمن في ابعاد الكتّاب غير المسلمين لم تكن سوى اجراءات مؤقتة ولم تجرّ تحريم الوظيفة الادارية عليهم. فبقي المجال مفتوحا امامهم فيها.

لكن رغم ذلك ظل اعتناق الاسلام امرا مستحبا لانه يعطي الكاتب ضمانة اكبر بالنسبة لمنصبه ويجعل اعداءه اكثر احتراسا في المعاملة معه. وفي هذا الصدد يروى أن يحيى بن برمك قال للفضل ابن سهل:" اني اراك ذكيا وستبلغ مبلغا رفيعا، فاسلم حتى اجد السبيل الى ادخالك في امورنا... فقال (الفضل بن سهل): نعم اصلح، الله الوزير..." [٤] ذلك يشير الى ان الكتّاب كانوا يستجيبون

---

[١] انظر الجهشيارى: ١٣٤.

[٢] المصدر السابق: ١٥٦ ولا نعرف بأى شيء كان يزيد بن الفيض زنديقا هل كان منويا ام مزدكيا ام مجوسيا.

[٣] انظر ابن الاثير، الكامل ٦: ٣٨ — ٣٩.

[٤] انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢٣٠ — ٢٣١.

احيانا للتحول الى ديانة اصحاب السلطة. لكن قبول السلطة مبدئيا بان يكون في الجهاز الاداري منها غير المسلمين يفسر ايضا بقاء بعض هؤلاء على ديانتهم الاصلية رغم الاضطهاد الذي قد يتعرضون له من بعد.

وقد استمر الامر على هذه الحال حتى خلافة المتوكل، اذ عمل المتوكل على تطهير الجهاز الاداري من غير المسلمين وذلك في اطار حملته على المعتزلة وغيرهم من كان يعتبرهم مبتدعة في الاسلام. ونحن نعلم من التاريخ ان المتوكل" امر ... اهل الذمة بلبس الطيالس العسلية، وشد الزنانير...ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا... ومنعهم من لبس المناطق... وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب، ونهى ان يستعان بهم في اعمال السلطان، وكتب بذلك الى الآفاق..." [1] وتشير هذه الرواية الى ان الاستعانة باهل الذمة في امور السلطان كانت قائمة الى ان جاء المتوكل ولا بد ان معظم الكتّاب الذين ذهبوا ضحية هذا الاجراء هم من النصارى لا من اليهود، لان النصارى كانوا يشكّلون الاكثرية في الدواوين من بين اهل الذمة [2].

وقد واجه الكتّاب هذا الاجراء بالتحول الى الاسلام كتدبير وقائي ضد العزل [3]. نذكر من بين الكتّاب الذين تحولوا عن النصرانية :احمد بن اسرائيل وقد تولى الخراج في خلافة المتوكل(٢٤٥)، وفي خلافة المنتصر

---

[1] ابن الاثير،الكامل ٧ :٥٢، ولقد دافع الجاحظ عن هذه الاجراءات وعبر عن ذلك في وضعه رسالته في الرد على النصارى(انظر مقال Charles Pellat, Gāhiz à Bagdād et à Samārrā in Revista degli Studi Orientali,1952, vol.27,p.58).

[2] انظر"S.Allouche, "Polémique christiano-musulmane au IX siècle in Hespéris, 1939, Tome 26, p.125.

[3] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p. 304 ويرى سورديل ان هؤلاء الكتاب النصارى الاصل اقاموا تكتلا في قلب الادارة يسعى الى تحسين اوضاع اهل الذمة عادة.

(٢٤٧ — ٢٤٨ هـ)، كما انه اعتلى الوزارة في خلافة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥)[1]، ونذكر كذلك الحسن من مخلد وقد تولى الضياع في خلافة المتوكل، والمنتصر[2]، ثم عيسى بن فروخشاه صاحب ديوان الخراج في خلافة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢)، وفي خلافة المعتز والمهتدى[3] (٢٥٥ — ٢٥٦). واشهر هؤلاء الكتّاب النصارى الاصل هو سليمان بن وهب الذى تولى وزارة المهتدى والمعتمد.

وقد أدت اذن اجراءات السلطة الى تقليص عدد الكتّاب النصارى بعد خلافة المتوكل لكنها لم تؤد الى حرمانهم الكامل من الوظيفة الادارية. وفي جميع الاحوال فاننا نقع بعد نصف قرن من تولي المتوكل الخلافة على كتّاب نصارى اعتلوا مناصب مهمة في الادارة، فيذكر الصابىء مثلا ان ابا الحسن علي بن الفرات قلّد ديوان الجيش رجلا نصرانيا في وزارته الثانية (٣٠٤ — ٣٠٦) وعيّره علي بن عيسى بذلك[4]، مما يشير الى ان تعيين النصارى على رأس ديوان الجيش لم يكن مستحبا، وان كان قائما.

ونستطيع ان نقول ان حذر السلطة من اهل الذمة لم ينته بسرعة، وقد شهدت نهاية القرن الثالث وبداية الرابع محاولة العودة الى الاجراءات التي اتخذها المتوكل ضدهم. ويقول عريب في هذا الصدد:

---

[1] انظر الطبرى، تاريخ ٩: ٢١٧.

[2] انظر المصدر السابق ٩: ٢٠٩.

[3] انظر المصدر السابق ٩: ٢٦٤ و ٣٤٤.

[4] يقول الصابىء (الوزراء: ٩٥): "ان علي بن عيسى قال له (اى لابن الفرات): ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا وجعلت انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره. فقلت له (والمتكلم هو ابن الفرات): ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعه وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش اسرايل النصراني كاتبه. وقلّد المعتضد بالله ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر القائد ذلك".

"وكان النصارى في آخر ايام العباس بن الحسن (أي حوالي سنة ٢٩٦) قد علا امرهم وغلب عليهم الكتّاب منهم فرفع في امرهم الى المقتدر فعهد فيهم بنحو ما كان عهد به المتوكل في رفضهم واطراحهم واسقاطهم عن الخدمة ثم لم يدم ذلك فيهم"[1]. ويرى دومينيك سورديل ان سبب محاولة العودة الى اجراءات المتوكل يعود الى اشتراك بعض الكتاب النصارى في محاولة الاطاحة بالمقتدر وتنصيب ابن المعتز مكانه[2] وذلك سنة (٢٩٦) ثم انهم حاولوا بعد اخفاقهم[3] خلع الوزير ابي الحسن عليّ بن الفرات وتنصيب ابن عبدون محله في السنة ذاتها. وهذا ما يسمى بالانقلاب القنائي لان عددا من الكتّاب الذين اشتركوا فيه هم من دير قنّى[4] أي انهم من اصل نصراني. وقد باءت هذه المحاولة بالاخفاق.

ولا يشير عريب الى سبب عدول المقتدر عن تنفيذ الاجراءات ضد اهل الذمة من الكتاب. وقد يعود ذلك الى عدم رغبة الخليفة في زعزعة جهاز الادارة باقصاء الكتاب النصارى منه، لاسيما اذا كانوا من اصحاب الكفايات، والى عدم قدرته سد الفراغ الذى سوف يتركونه. لكن قد تكون هنالك اسباب اخرى، منها ادراك المقتدر ان اجراء

---

[1] عريب، الصلة: ٣٠٠. ويرى سورديل (Vizirat, Vol.II, p. 390) ان هذه الاجراءات كانت تهدف الى حصر الصناعات التي يسمح للنصارى بامتهانها في التطبيب والجهبذة.

[2] كان الكتاب النصارى لا يعترفون بتنصيب المقتدر بسبب صغر سنه وعدم كفايته، اما ابن الفرات فكان يرى — حسب قول سورديل — في صغر سن المقتدر فرصة لتوسيع نفوذه. (انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol.I, p. 376).

[3] انظر الصابيء، الوزراء: ٢٦.

[4] انظر حول كتّاب دير قنّى مقال دير قنّى لميخائيل عواد في مجلة المشرق، الجزء ٣٧ (١٩٣٩): ١٨٠ — ١٩٨.

العزل على اساس ديني ليس فعالا ، لان الديانة لم تكن العامل الوحيد الذى جمع بين كتّاب الانقلاب القنائي بدليل ان كتّابا مسلمين اشتركوا فيه امثال محمد بن داود بن الجراح[١] وعلي بن عيسى. وليست هذه سوى افتراضات وما يهمنا هو ان الدواوين تبقى على الاقل حتى بداية القرن الرابع معقل اهل الذمة من النصارى بعد ان عدل المقتدر عن تنفيذ اجراءاته ضدهم[٢]. ونستطيع ان نقول ان العامل الديني لم يشكل مقياسا في تحديد مراتب الكتّاب باستثناء منصب الوزير ، فقد كان يتطلب من الكاتب الذى يحتله ان يكون مسلما[٣].

---

[١] انظر عريب ، الصلة : ٢٥.

[٢] تشير المصادر الى ان الخلافة تقبل باهل الذمة كتّابا في دواوينها طالما انهم ينتمون جهرا للديانة النصرانية. اما خوف الخليفة فيكون من تظاهر الكاتب او الوزير بالاسلام مع اخفائه ايمانه بالنصرانية ، ويروى الصابيء (رسوم :٤٤-٤٥)قصة ابان بن مخلد كاتب المأمون مع الخليفة اذ ظنّ الخليفة انه يخبيء صليبا في عمامته فأمره بطرحها واظهار ما في داخلها.

[٣] نعطي مثلا على ذلك في خلافة المكتفي(٢٨٩-٢٩٥هـ)لم يستطع المكتفي تعيين كاتبه الحسين بن عمرو النصراني وزيرا لانه كان ذميا فقرر تعيين كاتب من خواص كاتبه هو ابراهيم بن حمدان الشيرازى. وكان من المفروض ان يحوز هذا الاخير على اللقب في حين يتولى الحسين بن عمرو تصريف الشؤون الادارية. ولم يتم هذا التعيين وانتزع القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة (انظر الطبرى، تاريخ ١٠ :٧١ و ٩٩ وايضا D.Sourdel,Vizirat,Vol.I,p.353) ،ونشهد فيما بعد تصلبا في موضوع ديانة الكاتب اذ يرى ابن الصيرفي — وقد تولى ديوان الانشاء في مصر زمن الفاطميين في اواخر القرن الخامس — انه ينبغي ان يكون صاحب ديوان الرسائل مسلما. يقول في قانون ديوان الرسائل(تحقيق علي بهجت، القاهرة ، ١٩٠٥ :٦٧):"فقد وضع انه لا يجوز ان يرقى الى هذه المرتبة (أى صاحب ديوان الرسائل) الاّمسلم ومع ذلك يجب ان يكون متمذهبا بالمذهب الذى عليه الملك".

III - مراتب الكتّاب

يتوزع الكتّاب العاملون في الجهاز الاداري في مراتب . ويتجلى هذا التمايز في الترتيب أولا في التمييز بين صاحب الديوان وسائر الكتّاب الذين يكتبون بين يديه ويمتثلون لأمره[1] . وقد اصبح لا غنى للديوان اجمالا عن صاحب مدبّر له يكون على رأسه ويتولى مسؤولية تصريف الاعمال وتوزيعها على الموكلين بها. ونذكر ان الجهشياري اورد اسماء الكتّاب في العصر الاموي مشيرا الى اختصاصهم فيما يتعلق بكتابة الخراج او كتابة الرسائل او البريد دون ان يشير الى انهم ترأسوا هذه الدواوين. وأصبح الجهشياري يستخدم في مواطن عدة في تأريخه للعصر العباسي عبارة تقلّد الكاتب ديوان كذا[2] مشيرا الى ان الكاتب كان على رأس الديوان. ولا يعطي الجهشياري لائحة بأسماء الكتّاب الذين كتبوا بين يدى اصحاب الدواوين، ولا يشير مثلا الى وجود مبدأ لتقسيم العمل في الديوان

---

[1] نذكر كذلك ان الصابىء لا يكتفي بالتمييز بين صاحب الديوان وكتّاب الديوان بل انه يميّز بين "اصاغر الكتّاب" و"وجوههم" (انظر الصابىء ، الوزراء :١٩٥) ، ولا نعرف بالضبط من هم المعنيون بهاتين العبارتين واذا ما كانت عبارة "وجوه الكتّاب" تضم كتّابا من غير اصحاب الدواوين ممن اتقن الصناعة وبرع فيها. ونرجح ان ينتمي الى وجوه الكتّاب اصحاب الدواوين والكتّاب المرشحون للاستيلاء على رئاسة الدواوين بسبب تمرّسهم بالصناعة ، وان ينتمي الى اصاغر الكتّاب، الورّاقون والمحررون وغيرهم من الكتاب الذين لا يشغلون مناصب مهمة. ويشير الصابىء (المصدر السابق:١٩٥) الى انه كان في دار الوزير ابن الفرات مطبخ للخاصة ومطبخ للعامة فكان يغرف من هذا الرجالة والبوابين واصاغر الكتّاب وغلمان اصحاب الدواوين. ونشير الى الحاق اصاغر الكتّاب بالغلمان بدلا من الحاقهم بطاقم الجهاز الاداري مما يدل على واقع التمايز في المراتب .

[2] انظر الجهشياري، الوزراء :٣١-٣٤-٤٧-٤٨-٥٣-٥٦-٦٨ ، والعبارة المستخدمة هي "كتب فلان للخليفة على ديوان كذا"- ونادرا ما تستخدم عبارة "تقلد الكاتب او تولى ديوانا من الدواوين".

في المرحلة الاولى، ويستعين الجهشياري في اماكن عدة بعبارة "يكتب بين يديه" للدلالة على وظيفة كاتب صاحب الديوان[١]. وتتصف عبارة "كتب بين يديه" بالتعميم لكنها تشير الى ان كاتب صاحب الديوان كان يضع نفسه بتصرف صاحبه يستعين به هذا ساعة يشاء عندما يرى ضرورة لذلك.

يتميز العمل في الجهاز الاداري في هذه المرحلة الاولى اذن بمرونة كبيرة. وتتوقف مسؤولية كتّاب الدواوين على مدى تنازل صاحب الديوان عن صلاحيات معينة ومدى معرفته بالصناعة واستغنائه عن الآخرين وعلى الاطماع التي تكون لدى كاتبه والتي تدفعه الى المطالبة بالمزيد من المسؤوليات[٢]. وقد فقدت هذه العلاقة بعض مرونتها مع ظهور الكتّاب ذوي الاختصاص للقيام بالمهام المتنوعة وذلك بعد ان تعددت الدواوين وتعددت مجالسها وزاد عدد الكتّاب القيمين عليها والذين ليسوا من اصحاب الدواوين. ويصعب مثلا تصور مبادرة صاحب الديوان الى كتابة النسخ، واثبات الوثائق بالسجلات الرسمية في وجود الورّاق وهو الكاتب المكلف بذلك في الديوان. كذلك يشير الجاحظ الى ان صاحب ديوان الرسائل لم يكن يتولى تحرير الرسائل بل يكلّف محرره بذلك[٣]، لأن المحرر هو الحائز على المعرفة اللازمة المتعلقة بجمال الخط واخراج الكتب.

ان صاحب الديوان هو الرأس المدبر للديوان. واذا تغيب لسبب اضطراري اعطى كاتبه ملء الصلاحيات في تصريف الامور وذلك حسب مبدأ الاستخلاف[٤]. والارجح ان يكون الاستخلاف قائما لكي لا يبقى مركز صاحب الديوان شاغرا مما يشير الى ان غياب

---

[١] انظر المصدر السابق: ١١٥.

[٢] انظر المصدر السابق: ١١٥ — ١١٦ كيف حاول ابان بن صدقة توسيع نفوذه على حساب ابي ايوب الموريياني.

[٣] انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢: ٢٠٥.

[٤] انظر المصدر السابق: ٨٤، ويقول الجاحظ (رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢: ٢٠٣): "استخلف رجاء بن ابي الضحاك (صاحب ديوان الخراج في خلافة المأمون والمعتصم) حفصويه على ديوان الخراج".

صاحب الديوان هذا كان يؤدى الى عرقلة سير العمل في الديوان.

ولا شك في ان نفوذ صاحب الديوان قد اتسع في اواخر القرن الثالث، وتجلى ذلك في اطلاق يد صاحب الديوان في الامور التي تتعلق بديوانه وتخويله كامل الصلاحيات فيه. فقد يبادر صاحب الديوان مثلا الى الاستعانة بالعدد الذي يراه مناسبا من الكتّاب، ويقرر المرتبات التي سوف يتقاضونها[١].

ويرافق هذا التمايز في المراتب الذى يفرد لاصحاب الدواوين مكانا خاصا قوانين تشرّع لاصول مخاطبتهم وكيفية التعامل معهم، يلتزم بها جميع كتّاب الدواوين على مراتبهم. وقد ظهر في عصر متأخر - أى في نهاية القرن الثالث حسب قول سورديل -، لقب "الرئيس" للاشارة الى صاحب الديوان الذى تولاه هذا الأخير رئاسة. ويرى سورديل ان أول حامل لهذا اللقب هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، سنة ٣٠٧، وذلك في وزارة حامد بن العباس للمقتدر[٢]. ويقول الصابىء[٣]: "وكتب (علي بن عيسى) في الدواوين وتقلّد كثيرا منها رئاسة". لكن الجهشيارى يشير الى ان مرتبة "الرئيس" ظهرت في اول العصر العباسي في خلافة المنصور[٤]. وعلى هذا فقد يكون هذا اللقب يرقى الى بداية العصر العباسي. وكان يلقب الكاتب صاحب الديوان احيانا بلفظة "استاذ"، غير ان لقب الاستاذ ليس خاصا بالكتّاب وغالبا ما كان يطلق على كبار القادة العسكريين ايضا[٥]،

---

[١] انظر الصابىء، الوزراء: ١٧٧.

[٢] انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p. 415.

[٣] الصابىء، الوزراء: ٢٨١. ويتميز الرئيس عادة بتمرسه بالصناعة واتقانه اياها على اكمل وجه. ويقول ابن جبير كاتب ابن الفرات عن علّي بن عيسى انه "اذا حضر... بين يدى الخليفة فاراد ان يكتب سرا كتب/اسجى وختم وخرّط ولم يحتج الى معين" (المصدر السابق: ٦٣) ونذكر بان علّي بن عيسى تولى تسيير امور الادارة عامة في وزارة حامد بن العباس وليس رئاسة ديوان معين.

[٤] انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٢٦.

[٥] يشير الصابىء (الوزراء: ٥٣) الى ان ابن الفرات تذلل لمؤنس القائد عندما اعتقله وخاطبه بالاستاذية.

ويشير الصابيء الى ان ابا العباس احمد بن الفرات.." عمل ديوانا سمّاه ديوان الدار، وجمع اليه سائر الاعمال... واستناب اخاه ابا الحسن علي بن محمد بن الفرات فيه واصطنع كتّابا قلّدهم مجالسه منهم ابو الحسن علي بن عيسى ومحمد بن داود بن الجراح عمه. فكانا يجلسان بحضرة ابي الحسن فيأمرهما وينهاهما ويسمياته استاذا على رسم اصحاب الدواوين اذ ذاك"[١].

وقد كان صاحب الديوان "الرئيس" يتمتع بامتيازات لم يكن يتمتع بها غيره من الكتّاب، ومنها استخدام الخاتم اذ يقول الصولي: "الرئيس والنظير يختم رقاعه وتوقيعاته ان شاء وان من دونهم لايختم. وان ختم من هو دون الرئيس والنظير لزمه اثبات اسمه على جانب كتابه الايسر تضاؤلا وتواضعا... واحسن ما ختم به الرؤساء كتبهم ما عليه اسم الرئيس واسم ابيه"[٢]. وقد شرّع الصولي لأصول معاملة الرئيس، ورأى ان يلتزم الكاتب ببعض القوانين في تعامله معه، كأن يحمل له الدواة مثلا[٣]، وان يخاطبه مكاتبة باسلوب معين... فيعظم الخط ويفخمه اذا ذكر كنية الرئيس ونسبته الى شيء، وان يلطف الخط في اسمه واسم ابيه ويجمعه "لان في ذلك اجلالا للمكتوب له وفي مخالفته غض منه وتطاول عليه"[٤]. كما ان على الكاتب ان يتجنب المشق[٥] خاصة في كتابته الى

---

[١] المصدر السابق: ١٣١.

[٢] الصولي، ادب الكتّاب (تحقيق محمد بهجت الاثري، القاهرة، ١٣٤١هـ) ١٤١.

[٣] انظر المصدر السابق: ٩٦ "... الكاتب مضطر في بعض الاوقات الى حملها (أي الدواة) ووضعها بين يدي رئيسه".

[٤] المصدر السابق: ١٤٤.

[٥] مشق الخط: مدّه واسرع فيه، وقد يمشق الكاتب في حالين متناقضين "في أشد ما يكون نشاطا لشوق يده الى الخط.. وفي حال التعب والكلال". (المصدر السابق: ٥٥).

الرئيس لانهم يتأولون ذلك ضربا من الاستخفاف وينبغي العدول عن الشكل والاعجام في الكتابة اليهم[١]. ونحن نعرف ان عدد اصحاب الدواوين ازداد مع تشعب الجهاز الاداري وتعدده ، اذ كان الجهاز الاداري دائما يتجه نحو احداث دواوين جديدة كمحاولة لتقسيم العمل كما مرّ من قبل. وهكذا استحدثت مجالس لديوان الخراج على اساس ان يتولى كل مجلس ناحية من النواحي وهذا امر تحدثت عنه من قبل. وقد تطورت هذه المجالس لتصبح دواوين مستقلة[٢] وقد بلغ عدد الدواوين في خلافة المقتدر بالله اربعة وعشرين ديوانا على رأس كل منها كاتب رئيس[٣]. ولا بد من التطرق في حديثنا عن اصحاب الدواوين الى التمايز في الترتيب القائم بينهم اذ لا يقع اصحاب الدواوين في مرتبة واحدة. ويتكلم الجاحظ عن واقع التفاوت بين مرتبات اصحاب الدواوين في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة[٤] ويشير الى ان صاحب ديوان الرسائل لم يكن يتمتع

---

[١] انظر المصدر السابق: ٥٧.

[٢] يشكل انقسام الدواوين الاصلية الى دواوين اخرى خطرا على الجهاز الاداري لانه يضفي على دواوينه ومجالسه طابع الاستقلالية لذلك كان يتبع عملية استحداث الدواوين الجديدة محاولة اعادة توحيدها. ولدينا مثل على ذلك في ديوان الدار الذي احدثه ابوالعباس علي ابن الفرات ليجمع سائر مجالس الخراج ويوحدها (انظر الصابئ ، الوزراء :١٣١).

[٣] كان اصحاب الدواوين كما سبق واشرت في القرنين الاول والثاني يتولون رئاسة ديوان او اكثر في المرحلة الواحدة ، وقد اختفت هذه الظاهرة تقريبا في القرن الثالث وفي مطلع الرابع ليصبح صاحب الديوان مسؤولا عن ديوان واحد في الفترة الواحدة (انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p.729 - 748).

[٤] الجاحظ رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ :٢٠٥ ،وقد يكون الجاحظ في معرض الكلام عن خبرته الشخصية في هذا المجال اذ يبدو انه تولى ديوان الرسائل في خلافة المأمون لمدة ثلاثة ايام طلب بعدها ان يعفى من المسؤولية (انظر ياقوت ،ارشاد الاريب الى معرفة الاديب،تحقيق د.س مرجليوت، الطبعة الثانية ،القاهرة ١٩٢٣، ٦ :٥٨).

بمرتبة مرموقة في قوله :"لا يحضر كاتب الرسل لنائبة ، ولا يفزع اليه في حادثة ، فاذا ابرم الوزراء التدبير ، ووقفوا منها على تقدير ، طرح اليه رقعة بمعاني الامر لينسق فيه القول ، فاذا فرغ من نظامه ، واستوى له كلامه ، أحضر له محرره ، فجلس في اقرب المواطن من الخليفة ، وامنع المنازل من المختلفة ، فاذا انقبض ذلك فهما والعوام سواء"[١]. فليس لصاحب ديوان الرسائل ـ حسب قول الجاحظ ـ نفوذ يذكر ولا رأى ينتصح به ، ولا ذراه يلازم الخليفة الا عند تكليفه بصياغة رسالة ما. ونستطيع ان نستنتج من كلام الجاحظ ان وضع كاتب الرسائل لم يتغير كثيرا في العصر العباسي بالنسبة لما كان عليه في العصر الاموى، اذ ان صياغة الكاتب لمعاني الرسالة دون ان تفرض عليه عملية الاملاء ترقى الى ذلك العصر وعلى أية حال ، فان مرتبة صاحب ديوان الرسائل دون مرتبة صاحب ديوان الخراج بدليل ان ارزاقه أقلّ[٢].

وقد اصبح هذا التفاوت الذى يشير اليه الجاحظ تمايزا فعليا في المراتب في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع ينقسم بموجبه اصحاب الدواوين في ثلاث طبقات وذلك حسب ما يذكره الصابىء[٣]. ولا يشير الصابىء الى كيفية توزع كافة اصحاب الدواوين في هذه الطبقات، لكنه يشير ـ مثلا ـ الى ان صاحب المعاون ـ أى صاحب ديوان الشرطة ـ كان ينتمي الى الطبقة الاولى من اصحاب الدواوين ، بينما ينتمي صاحب البريد الى الطبقة الثالثة. وتحدد طبقات اصحاب الدواوين بالقياس الى مراتب عمال الخراج ، والحجّاب ، والخدم والقادة العسكريين . ويتجلى التفاوت بين هذه الطبقات

---

[١] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢ : ٢٠٥.

[٢] انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢ :٢٠٥.

[٣] انظر الصابىء ، الوزراء : ١٥٦.

الثلاث في المخاطبات [١]. ولا بد ان يكون اختلاف المخاطبات باختلاف صاحب الديوان يشير الى تمايز قائم في المراتب بين اصحاب الدواوين. ويرقى هذا التمايز المتجلي في المخاطبات - حسب قول الصابيء - الى وزارة ابن الفرات [٢]، غير اننا لا نعرف اى وزارة من وزارات ابن الفرات هي المعنية بكلام الصابيء، اذ ان ابن الفرات تولى الوزارة ثلاث مرات بين سنتي ٢٩٦ و ٣١١.

وتخاطب الطبقة الاولى من اصحاب الدواوين حسب قول الصابيء كما يخاطب صاحب الطراز، وكان هذا في بداية القرن الرابع شفيع المقتدرى، وكما يخاطب رئيس الخدم اى مفلح الاسود آنذاك، وذلك كالتالي: "اعزّك الله واطال بقاءك واكرمك واتم نعمته عليك واحسانه اليك" [٣]. اما الطبقة الثانية فتخاطب كما يخاطب عامل فارس وكرمان وذلك كالتالي: "اعزّك الله ومدّ في عمرك واتمّ نعمته عليك واحسانه اليك". [٤] وتخاطب الطبقة الثالثة كما يخاطب عامل ديار ربيعة، هكذا: "مدّ الله في عمرك واتم نعمته عليك واحسانه اليك" [٥]. ولا يبلغ اصحاب الدواوين ابدا المرتبة الاولى من

---

[١] انظر المصدر السابق: ١٥٦ - ١٥٨.

[٢] توفي هلال الصابيء سنة ٤٤٧، وقد اشار في كتابه الى الانحطاط الذى وصلت اليه المخاطبات في عصره في قوله: "فاما الالقاب فقد خرجت عما يحاط به ويوصف، او يأتي عليه حصر، وصار لقب الاصغر اعظم من لقب الاكبر" (المصدر السابق: ١٥٠).

[٣] المصدر السابق: ١٥٤.

[٤] المصدر السابق: ١٥٤.

[٥] المصدر السابق: ١٥٥.

المخاطبات التي كان يكاتب بها عامل خراسان وتجيء في ثلاثة اسطر[١].

وتتناول الفروق في هذه المخاطبات قضية الطول والعبارة، ولا بد من الاشارة الى ان بعض الدواوين لم يكن يتقلدها كتّاب في بعض الاحيان بل قادة عسكريون اتراك امثال نازوك صاحب الشرطة في خلافة المقتدر، كان ينتمي الى الطبقة الاولى من اصحاب الدواوين[٢]. في هذا الصدد يقول الصابيء: اذا تقلّد البريد على الوزير واصحاب الدواوين قائد او خادم وانفرد بذلك دون غيره مما هو اجلّ منه كوتب: "اعزّك الله واطال بقاءك واكرمك واتم نعمته عليك واحسانه اليك"[٣]، اى كما تخاطب المرتبة الاولى من اصحاب الدواوين بينما يخاطب صاحب البريد ان كان كاتبا كما تخاطب المرتبة الثالثة[٤]. ولا تحدد مرتبة صاحب الديوان نسبة للعرق او النسب او الدين[٥]. انما يحدد المرتبة في الدواوين التي قد يحتلها العسكر سعة النفوذ. وبما ان نفوذ القادة العسكريين يفوق نفوذ الكتاب فقد احتلوا المراتب الاولى عند توليهم بعض الدواوين.

---

[١] المصدر السابق: ١٥٣.

[٢] المصدر السابق: ١٥٤.

[٣] المصدر السابق: ١٥٩.

[٤] صاحب البريد في نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع هو الكاتب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الزيات وتولى الديوان لمدة ثلاثين سنة وكان يسمى الخراشطي. (انظر المصدر السابق: ١٥٩).

[٥] لاتدخل هذه العوامل في تقرير المرتبة. ومن اللافت للنظر ان يحتل الجند وهم في الاصل من الرقيق المراتب الاولى وان يفوقوا الاحرار في هذا المجال، امثال نازوك ومفلح الاسود اللذين سبق ذكرهما.

هذا فيما يتعلق باصحاب الدواوين، ويبقى الكلام عن سائر الكتّاب في الدواوين، لان التمايز في الترتيب ليس مسألة خاصة باصحاب الدواوين، اذ انه قائم بين كتّاب اصحاب الدواوين أنفسهم.

ويظهر التمايز في المرتبة بين الكتاب العاملين في الدواوين مع دخول الاختصاص في الادارة وظهور المناصب والوظائف المتنوعة التي احتلها الكتّاب. ولم تظهر مسألة الاختصاص دفعة واحدة بل انها تمت على مراحل واكتملت تقريبا في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع، عندما وصل الجهاز الاداري الى صيغته النهائية من حيث عدد الدواوين[١]. ويعطي البطليوسي صورة عن مراتب الكتّاب من غير اصحاب الدواوين على اساس الاختصاص وذلك في كتاب "الاقتضاب في شرح ادب الكتّاب"، صحيح ان البطليوسي اندلسي متوفى سنة ٤٤٩ لكنه يتكلم عن مراتب الكتّاب قديما، يقول:" انما نذكر مراتب الكتّاب على ما كانت عليه في القديم واما اليوم فقد تغيّرت عن رسمها المعلوم..."[٢]. ولا نعرف الى اى زمن ترقى عبارة "في القديم" لكن نشير الى ان ترتيب البطليوسي لطبقات الكتّاب على اساس الاختصاص لا يشمل اصحاب الدواوين بل يقتصر على كتّاب الدواوين.

ويأتي في ادنى المراتب كاتب الخط، وكاتب الخط على نوعين: اما ان يكون ورّاقا — اى صاحب النّسخ — او محررا[٣]. ويأتي في مرتبة اعلى من كاتب الخط، كاتب اللفظ — او المترسّل —[٤] يليه كاتب العقد او كاتب الحساب، وهو الكاتب الذى يقوم بالعمليات الحسابية، ويكون اما كاتبا في مجلس من مجالس الخراج، او كاتب عامل من العمال في الاطراف، اى خارج الجهاز الاداري المركزى، أو كاتب

---

[١] انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p. 738-742

[٢] البطليوسي، الاقتضاب: ٦٧.

[٣] انظر المصدر السابق: ٦٩.

[٤] انظر المصدر السابق: ٦٨ — ٧٠.

جيش في ديوان الاعطاء الذى يتولى الانفاق على الجند[١]. وتقوم هذه المرتبة من الكتّاب بالعمليات الحسابية على انواعها من تقرير ضريبة او تقرير مرتّبات.

ويأتي في المرتبة الاولى من الكتّاب، كتّاب الحكم المكلفون تطبيق الاحكام المتعلقة بالخراج في ديوان الخراج، وتلك المتعلقة بالمعاون في ديوان المعاون، والاحكام المتعلقة بالفقه في الجهاز القضائي[٢]. وهؤلاء الكتّاب هم كاتب صاحب ديوان الخراج، وكاتب صاحب المعاون، وأخيرا كاتب القاضي خارج الجهاز الاداري.

اما الوزير فيأتي في اعلى مرتبة ويسميه البطليوسي كاتبالتدبير[٣].

ويحاول البطليوسي ان يجعل الاختصاص، او درجة المعرفة، مرجعا ثابتا لتحديد مرتبة الكتاب. فكلما ازدادت المعرفة في حقل اختصاص الكاتب ارتفعت مرتبته. وينبغي على كاتب الحساب، في احد مجالس ديوان الخراج، ان يزيد على معرفته الحسابية معرفة احكام الخراج، وكيفية تطبيقها، ليستطيع اعتلاء مرتبة كاتب الحكم التابع لصاحب ديوان الخراج. لكننا نرى من خلال طبيعة العمل الاداري ان الامور لم تكن دائما كذلك، اذ لم تكف درجة الاختصاص ومستوى المعرفة في تحديد مرتبة الكاتب. يذكر الجهشياري مثلا ان ابراهيم بن العباس الصولي ،وكان صاحب ديوان الخراج في

---

[١] انظر المصدر السابق: ٧٠ — ٧٥.

[٢] انظر المصدر السابق: ٧٦ — ٨١.

[٣] انظر المصدر السابق: ٨١.

خلافة المتوكل، لم يكن له حظ من المعرفة الحسابية والضريبية فكان يخاف ان يفتضح امره لدى الخليفة فيعرف جهله ويعزله[1]. ولا بدّ من الاشارة ايضا فيما يتعلق بتعيين مرتبة الكاتب وفقا لاختصاصه من ان هوية الديوان الذى يعمل في كنفه الكاتب كانت تحدد الى حد ما مرتبته فيكون كاتبان بالاختصاص نفسه متفاوتين من حيث المرتبة بسبب عملهما في ديوانين مختلفين. وفي هذا المجال يشير الجاحظ مثلا الى التفاوت في المرتبة بين الورّاق في ديوان الخراج والمحرّر في ديوان الرسائل، وهذا الاخير لم يكن له شأن يذكر[2] مع ان كليهما — حسب ترتيب البطليوسي — يتمتعان بالاختصاص نفسه والرتبة ذاتها اذ هما من كتّاب اللّفظ كما سبقت الاشارة. لذلك لا بدّ من عدم اخذ تقسيم البطليوسي لمراتب الكتّاب بصورة حرفية رغم ما يذكره هو من انه يصف واقعا كان قائما. وتنبغي تحديد مرتبة الكاتب لا قياسا على اختصاصه وحسب بل قياسا على مراتب سائر الكتّاب العاملين في الديوان ذاته ايضا.

ونستطيع[3] ان نفرد مرتبة اخرى خاصة بالكتّاب الغلمان والكاتبات الجوارى، ولكن مع الاشارة الى ان هؤلاء لا ينتمون الى الدواوين بشكل دقيق بل ينسبون الى اصحابهم الاّ في حال اعتاقهم.[3]

---

[1] يقول الجهشيارى (نصوص:٧٧) :"قال سليمان بن وهب: كنت اكتب لابراهيم ابن العباس(الصولي) على ديوان الضياع وكان رجلا بليغا ولم يكن له في الخراج تقدم. وكان بينه وبين احمد بن المدبر تباعد، وكان احمد مقدما في الكتابة. فقال احمد بن المدبر للمتوكل:قلدت ابراهيم بن العباس ديوان الضياع وهو متخلف آية من الآيات لا يحسن قليلا ولا كثيرا".

[2] انظر الجاحظ، رسالة في ذم أخلاق الكتّاب ٢ : ٢٠٥.

[3] يعطي ابو القاسم البغدادى في"كتاب الكتّاب" لائحة باسماء الكاتبات الجوارى ويتفرد بذلك دون غيره من المؤلفين. فمن الكاتبات: عتبة جارية المهدى وبرهان جارية البرامكة وغيرهما (انظر كتاب الكتّاب: p. 145)لكن تنبغي الاشارة الى ان النسوة الكواتب لم يعتلين قط مناصب ادارية بل نسبن الى اصحابهن دائما بينما احتل الكتّاب الغلمان مناصب ادارية ادت الى اعتاقهم، ونذكر من بين هؤلاء مطير مولى المنصور الذى اعتقله وقلده ديوان البريد (انظر الجهشيارى، الوزراء : ١٠١).

ويحتل مشايخ الكتّاب مرتبة خاصة. ويعرّف الصابيء مشايخ الكتّاب بانهم الكتاب الذين اعتزلوا الكتابة لسبب او لآخر، وقد يكون هذا السبب كامنا في انقلاب الوزارة وخوف الكاتب على حياته فيعلن اعتزاله العمل وانتماءه الى مشايخ الكتّاب [١] ويتقاضى رزقا خاصا بمشايخ الكتّاب [٢]. كما قد يكون السبب هو اعفاء الكاتب من العمل [٣] او بسبب التقدم في السنّ وعدم القدرة على ممارسة الصناعة. ويشير عبد الحميد الكاتب الى ضرورة توقير الشيخ في رسالته، يقول:" وان اقعد الكبر احدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه، فزوروه، وعظموه، وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه، وتجربته وقديم معرفته" [٤] لكنّ الظاهر ان هذا الامر قد تعدى — في عصر متأخر — مسألة التوقير اذ ان مشايخ الكتّاب اصبحوا يحضرون مجالس الوزراء ويشاورهم هؤلاء في شتى الامور، وذلك في نهاية القرن الثالث [٥]. كذلك فان مشايخ الكتّاب عرفوا بتمرّسهم بصناعة الكتابة لذلك كانوا يحاولون ان يشرّعوا لبعض اصول الكتابة [٦].

---

[١] انظر الصابيء، الوزراء: ٤١.

[٢] انظر المصدر السابق: ٣١٤.

[٣] انظر المصدر السابق: ٣١٤.

[٤] الجهشياري، الوزراء: ٧٥.

[٥] انظر الصابيء، الوزراء: ٣٤١.

[٦] يقول الصولي (ادب الكتّاب: ١٥٠): "اختار مشايخ الكتّاب ان تكون كتب الوزراء النافذة عن الخلفاء بغير تاء المخاطب ولا نون الجمع...".

أ — أرزاق الكتّاب

تتفاوت ارزاق الكتّاب بتفاوت مرتبتهم. وكان هذا المبدأ نافذا فيما يتعلق بارزاق اصحاب الدواوين. يقول الجاحظ:" وحسبك بقوم انبلهم اخسّهم في الرزق مرتبة ...يرزق صاحب ديوان الرسائل، وبلسانه يخاطب الخلق، العشر من رزق صاحب الخراج"[١]. ولا يدلي الجاحظ بمعلومات حول كمية المبلغ الذى كان يتقاضاه صاحب الخراج. ولكن نصّه صريح في الاشارة الى ان رزق صاحب ديوان الرسائل كان أقل من رزق صاحب ديوان الخراج وذلك عائد — كما سبق ان لاحظنا — الى ان نفوذ صاحب الخراج كان اقوى من نفوذ صاحب ديوان الرسائل[٢] وعندما نتحدث عن التفاوت بين المرتّبين فاننا نعني المبلغ الرسمي المقرر لكل من صاحب الخراج وصاحب ديوان الرسائل من دون اعتبار للاموال الاضافية التي قد يحاول صاحب ديوان الخراج — أو غيره — ان يقتطعها لنفسه.

وقد كانت ارزاق اصحاب الدواوين في خلافة المنصور استمرارا لما كانت عليه ايام الامويين وقدرها "للرؤساء (أى اصحاب الدواوين) والعمال ثلاثمائة درهم للرجل..." — على ذلك جرت ايام المأمون، فان الفضل بن سهل (وزير المأمون) وسع الجارى"[٣]. اما اصاغر الكتّاب فكانوا يتقاضون في خلافة المنصور في كل شهر عشرة دراهم[٤] وهو على الارجح ادنى رزق يتقاضاه كاتب

---

[١] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢ :٢٠٥.

[٢] يقول الصابي (الوزراء :٧٦): قال ابو الحسن ابن الفرات "سمعت ابا العباس (بن الفرات) اخي يقول:... من استقلّ بديوان الخراج استقلّ بالوزارة...".

[٣] الجهشياري، الوزراء : ١٢٦، ونلاحظ التماثل القائم بين اصحاب الدواوين والعمال في تقرير الارزاق.

[٤] انظر المصدر السابق: ١٣١ — ١٣٢.

في ذلك الوقت . ويشير الجهشياري الى ان كاتب القضاء كان يتقاضى من عشرين الى أربعين درهما في الشهر في خلافة المنصور [١] ، أي اكثر من اصاغر الكتّاب في الادارة . ويشير الجهشياري كذلك الى ان اجور كتّاب القضاء كانت متفاوتة اذ يقول:" كان لسوّار القاضي بالبصرة من قبل ابي جعفر المنصور كاتبان ، رزق احدهما اربعون درهم ورزق الآخر عشرون درهما . فكتب اليه سوّار (أي الى ابي جعفر) ، فسألـه السوية بينهما" [٢] . وتشير الرواية بوضوح الى ان تقرير الارزاق لم يكن يتم بمعزل عن صاحب السلطان - أي الخليفة - في بداية العصر العباسي . وقد يكون الجهاز الاداري يخضع ايضا لسلطة الخليفة في مسألة زيادة الاجور وتقريرها [٣] .

ويدل على توسيع الاجور في وزارة الفضل بن سهل رواية اخرى يوردها الجهشياري مفادها ان صاحب ديوان الاعطاء او الانفاق على الجند كان يتقاضى عشرة آلاف درهم في الشهر [٤] . لقد اصبح مرتب صاحب الديوان اذا صحّت رواية الجهشياري اضعاف ما كان عليه في خلافة المنصور . وشمل الارتفاع جميع مراتب الكتاب مع المحافظة طبعا على النسب واستمرار التفاوت بين هذه المراتب .

---

[١] انظر المصدر السابق : ١١٣

[٢] المصدر السابق:١١٤ ، كانت السوية ان انقص المأمون اجر الاول عشرة دراهم وزادها على اجر الكاتب الثاني .

[٣] قد يشكّل كتّاب القضاء حالة استثنائية من حيث استقلال القاضي التام عن الجهاز الاداري وارتباطه مباشرة بصاحب السلطان . وقد تكون هذه العلاقة هي التي جعلت الخليفة يتدخل بهذه التفاصيل الدقيقة .

[٤] انظر الجهشياري ، نصوص : ٣٣ - ٣٤ .

وقد يكون سبب ذلك غلاء الاسعار وارتفاع مستوى المعيشة [1]. وقد استمرت الاجور في الارتفاع بنسبة لا نعرف قيمتها بالتحديد، وجلّ ما نملك من معلومات حول الارزاق هو صورة عن الميزانية التي كانت مقررة لاصحاب الدواوين والكتّاب والجهاز الاداري عامة في خلافة المعتضد بالله. يقول الصابيء :" ارزاق اكابر الكتّاب واصحاب الدواوين والخزّان والبوابين والمدبرين والاعوان وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد سوى كتّاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة ... من جملة اربعة آلاف دينار وسبع مائة في الشهر[2]. وتستثنى هذه الميزانية ارزاق كتّاب ديوان الاعطاء او ديوان الجيش وربما غيرهم. غير اننا لا نستطيع التمييز بين المبلغ المقرر للكاتب والمبلغ المقرر للبوّاب مثلا، والاموال المخصصة لشراء القراطيس، كما ان الصابيء لا يورد اية معلومات حول عدد الكتّاب واصحاب الدواوين وسائر العاملين في الديوان لنتعرف على وجه التقريب الارزاق المخصصة لكل منهم. لكننا نملك معلومات اخرى تفيد ان رزق كاتب صاحب ديوان الخراج معدله خمسة وعشرون دينارا في ولاية ابني الفرات على الخراج ايام المعتضد اى حوالي سنة ٢٩٠ [3]، بينما كان صاحب ديوان الدار، او مجلس الدار، محمد بن

---

[1] نعرف بالنسبة للاسعار انها رخصت في خلافة المنصور. يقول الجهشياري (الوزراء :١١٧) :"ورخصت الاسعار في ايام ابي جعفر، فسوّلت لابي ايوب (الوزير) نفسه ان يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة، وطمع في الربح".

[2] الصابيء ،الوزراء :٢١، ويساوى الدينار عشرين مثقالا وتساوى كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكل عشرة مثاقيل اربعة عشر درهما وسبعان (انظر الماوردى، احكام :١٤٧).

[3] يقول الصابيء (الوزراء :١٤٠) :"قال عبد الرحمن فحدثني ابو الحسن سعيد بن عمرون سنجلا ان رزق ابن جبير لما كان يكتب وهو بين يدى ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرون دينارا."

اسماعيل الأنباري في وزارة ابن الفرات الاولى سنة ٢٩٦ يتقاضى خمس مائة دينار في الشهر [١]، وكان صاحب ديوان السواد، او مجلس السواد، ابو القاسم الكلوذاني، يتقاضى القيمة ذاتها [٢]. وهذه الاجور هي الاكثر ارتفاعا في الفترة التي ندرسها، ذلك ان مرتب صاحب ديوان الفض والخاتم — على بن مقلة — كان في وزارة ابن الفرات الاولى اربعمائة دينار ودينار [٣]. اما ارزاق الكتّاب في الديوان من غير اصحاب الدواوين فانها كانت دون ذلك بكثير، فكان مثلا جملة ما يوزع على كتّاب ديوان الدار كافة سوى صاحب الديوان خمسة وتسعين دينارا في الشهر [٤] في وزارة ابن الفرات الاولى (٢٩٦).

ولم تتخذ ارزاق الكتّاب صيغة ثابتة، بل كانت تتوقف على المبالغ التي تستطيع السلطة ان تتصرف بها وعلى السياسة المتبعة في مسألة الاجور. ونرى ان الارزاق سجلت ارتفاعا ملحوظا في وزارة ابن الفرات، اذ جعل رزق كاتبه ابن جبير مائة دينار بعد ان كان يتقاضى خمسة وعشرين دينارا في وزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب سنة ٢٧٩ [٥].

---

[١] انظر المصدر السابق: ١٧٧.

[٢] انظر المصدر السابق: ٣١٤.

[٣] انظر المصدر السابق: ١٧٨.

[٤] انظر المصدر السابق: ١٧٧. ان مجالس ديوان الخراج كانت تابعة للديوان الرئيسي لكن هذه المجالس كانت تعتبر كسائر الدواوين لان ارزاق كتّابها غالبا ما كانت تفوق ارزاق كتّاب الدواوين الاخرى. ويشير الجاحظ هذا المشكل في قوله (رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢: ٢٠٥)"يرزق المحرر — وبخطه يكون جمال كتب الخليفة — الجزاء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج".

[٥] انظر الصابئ، الوزراء: ١٤٠ كما انه خص يعقوب بن اصطفن الكاتب بأربعين دينارا بدل عشرة دنانير (انظر المصدر السابق: ١٤٠).

قد يكون هذا التوسيع في الاجور اقتصر على ديوان الخراج، ولكن عندما اصبح ابن الفرات وزيرا عممه على جميع الدواوين غير ان هذا الارتفاع لم يدم، اذ تدخل علي بن عيسى بن الجرّاح في وزارته الثانية سنة ٣١٥، لخفض الارزاق واتبع سياسة الاقتصاد في الاجور، ولم يطل هذا الاجراء ارزاق الكتّاب وحسب بل ارزاق القضاة والعمال وجميع من لهم صلة بالاعمال [1]. يقول الصابيء في هذا الصدد: "اسقط (علي بن عيسى) ارزاق كل من كان يقبض برسم الدواوين من الكتاب وأولاد الكتّال (اقرأ: الكتّاب) الذين يحضرون ولا يعملون ... وحذف من كان جاريا من الفرسان والرجالة برسم النوبة من الكتاب والتجار ومن لا يحمل السلاح" وكان علي بن عيسى قد نظر في الجاري والارزاق فترك اصحاب الدواوين من الثلثين الى النصف وجعل لأبي القاسم الكلوذاني من خمسمائة دينار كان يقبضها في كل شهر عن ديوان السواد خمسة آلاف درهم وقرر لأبي الفتح الفضل ابن جعفر عن ديوان المشرق مائة دينار في كل شهر ولأبي علي بن مقلة عن ضياع الخاصة مائة دينار" [2].

وتعكس هذه الاجراءات سياستين متناقضتين، الاولى اتبعها علي بن محمد بن الفرات في وزاراته الثلاث (٢٩٦ و ٣٠٤ و ٣١١) ومحمد الخاقاني (٢٩٩)، والثانية اتبعها علي بن عيسى في توليه رئاسة الدواوين لحامد بن العباس الوزير (٣٠٦) وفي وزارتيه الاولى (٣٠١) والثانية (٣١٥). وتعتمد السياسة الاولى على التضييق على عمال الخراج في الولايات تضييقا محكما يؤدي الى زيادة المبالغ التي ترسل من الاطراف الى المركز، فيضطر العمال في

---

[1] انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 422.

[2] الصابيء، الوزراء: ٣١٤.

مواجهة سياسة المركز الى اتخاذ سلسلة تدابير لزيادة محصول الضريبة بحيث تبقى حصتهم كاملة. وكان يرافق ذلك اجراءات في التضييق على الرعايا لدفع الضريبة كاملة. فابن الفرات ضيّق على العمال منذ ولايته الخراج للمعتضد في وزارة عبيد الله بن سليمان ابن وهب (٢٧٩ —٢٨٨)[١] وأدى ذلك الى احداث ديوان خاص بذلك هو ديوان المرافق وهدفه تحصيل فاشض المال الذى يحتكره العمال لأنفسهم[٢] كما سبق واشرت في فصل سابق، وذلك عن طريق التحقيق في الوثائق. وفي حال عدم اعتراف العامل بالاموال المتوجبة عليه كان يعذّب بشتى الوسائل لكي يقرّ بها. وكانت هذه الاموال تسهم في زيادة الاجور ويذهب منها جزء يغذى بيت مال الخاصة[٣]. وقد حظر علي بن عيسى المرافق على العمال علما بانها طريق الى ضياع الحقوق وخراب البلاد وظلم الرعية، كما يقول الصابىء[٤] ولم يلجأ علي بن عيسى الى التضييق على العمال بل ألغى بعض الضرائب التي تثقل كاهل الرعية كالمكس في مكة[٥]. ولهذا السبب

---

[١] انظر المصدر السابق: ٧٦ — ٧٧ و ١٧١ — ١٧٢.

[٢] انظر المصدر السابق: ٣١ — ٣٣ و D.Sourdel,Vizirat,Vol.II,p. 408

[٣] يقول الصابىء (الوزراء: ٣٠—٣١): "وحمل (ابن الفرات في وزارته الثانية) الى المقتدر بالله في كل يوم الف دينار والى السيدة (والدة المقتدر) والامراء خمسمائة دينار... وصار جارى صاحب ديوان السواد وكتابه مع ثمن الكاغد والقراطيس نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر".

[٤] انظر المصدر السابق: ٢٩١.

[٥] انظر الصابىء، الوزراء: ٢٨٦، والمكس ضريبة عشرية تفرض على العمليات التجارية في مكة (انظر لسان العرب، مكس).

انخفضت الاجور في وزارتيه ونقصت مرتبات جميع الكتّاب والقائمين في دار الخلافة من الثلثين الى النصف وذلك لتفادى الافلاس.

ويحيلنا هذا الواقع — أى واقع تغير المرتبات — الى طرح السؤال التالي وهو: من كان يقرر الأرزاق؟ رأينا في عهد المنصور ان الخليفة هوالمرجع الأول على الأقل فيما يتعلق بمرتبات اصحاب الدواوين. وقد تغير هذا الواقع في عصر المأمون اذ اصبح الوزير يتولى هذه المهمة، بدلالة ان الفضل بن سهل ذا الرياستين تولاها[١]. وكان تقرير الارزاق يتم بصورة تدريجية وعلى مراحل. يقرر الوزير ارزاق اصحاب الدواوين، ويقرر اصحاب الدواوين ارزاق كتّاب دواوينهم: يخاطب ابن الفرات محمد بن اسماعيل الأنبارى الذى قلده ديوان الدار قائلا:"...قدّر ما تحتاج اليه لكتابك..."[٢]. لكن لا بد ان يحوز صاحب الديوان موافقة الوزير على المبلغ الذى قرره. فالوزير — فيما يبدو — اصبح هو المرجع النهائي في مسألة تقرير الارزاق، ولا يذكر الصابىء ان الخليفة المقتدر — مثلا — تدخل شخصيا في تقدير الارزاق الا بالنسبة لمرتّب الوزير، اذ قال عن تقليد محمد الخاقاني الوزارة في خلافة المقتدر سنة ٢٩٩ انه "اجرى له (اى لمحمد الخاقاني) خمسة آلاف دينار في كل شهر على رسم ابن الفرات"[٣]، ويشير ذلك الى ان المبلغ الذى كان الوزير يتقاضاه كان ثابتا الى حد ما، وانما ليس بصورة مطلقة[٤].

---

[١] هو لقب الفضل بن سهل ومعناه رياسة الحرب ورياسة التدبير (انظر الجهشيارى، الوزراء :٣٠٥).

[٢] الصابىء، الوزراء :٢٧٧.

[٣] المصدر السابق: ٢٦١ — ٢٦٢.

[٤] يقول الصابىء (المصدر السابق:٣٥١) ان رزق علي بن عيسى الوزير كان سبعة آلاف دينار في وزارته الثانية سنة ٣١٥.

ويتولى ديوان النفقات احتساب الاجور واثباتها في السجلات ويتم طرح الارزاق وثمن الكاغد والقراطيس من الموازنة العامة. اما مصدر هذه الاموال فيتوقف على طبيعة الديوان. وكان يحتسب أجر اصحاب مجالس الخراج على عمال النواحي التي تقع مسؤولية خراجها على هذا المجلس او ذاك، ويتم ذلك باشارة من الوزير. يقول الصابيء :" تقدم (اى علي بن محمد بن الفرات) الى (أى صاحب مجلس الدار) بان اسبب لنفسي ولكتابي بجارى شهرين على عمال الاهواز واسبّب لعلي بن مقلة (صاحب ديوان الفض والخاتم) بمثله "[1]. ان الاحتساب على عمال النواحي لم يكن مقتصرا على اصحاب مجالس الخراج وحدهم بل تعداهم الى غيرهم من الكتّاب اصحاب الدواوين[2]. انما تنبغي الاشارة الى ضرورة مرور الكاتب بواسطة صاحب احد المجالس لان طلب المال لا يمكن ان يأتي مباشرة من صاحب ديوان الفض والخاتم. اما كتاب ديوان الاعطاء او ديوان الجند وخلفاؤهم على مجالس التفرقة[3] واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال"... فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفّرونه من اموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم..."[4] ان مصدر ارزاق كتّاب ديوان الجند مختلف عن مصدر رزق كتّاب الدواوين الاخرى[5].

---

[1] المصدر السابق: ١٧٨.

[2] في حال عدم تمام الاحتساب على النواحي كان بيت المال هو الذى يتولى توزيع المرتبات ("Diwan", vol. II, p. 334 ,EI²).

[3] مجالس التفرقة هي بمثابة عرض عسكرى يقام بحضور الخليفة ويتم فيه تقييم عناصر الجيش من حيث الرمي والخلية وامور اخرى. ثم يجرى تقرير ارزاق الجند وفقا لمراتبهم ونقاء مظهرهم. وكان الكاتب في هذه المجالس يسجل ملاحظات القائد او الخليفة فيما يتعلق بكل عنصر على حدة (انظر الصابيء ، الوزراء : ١٣ — ١٤).

[4] المصدر السابق: ٢١.

[5] ولا بد ان تكون مصادر ارزاق القاضي والكتّاب في الجهاز القضائي مختلفة عن مصادر اموال الكتّاب في الادارة. ويقول كاهن ان الارجح ان يكون هذا المصدر من الغرم والمصادرات التي يلجأون اليها ومن بيت مال الخاصة (انظر C. Cahen, Islam I, p. 79.).

ان اكثر ما يميز توزيع الارزاق هو عدم موافقة الاجور لمعدّل العمل، اذ ان هنالك دائما تفاوتا بين المستويين [١]. ويكون التفاوت اما على جهة الاستباق، اى استباق الاجر للعمل، او على جهة التأخير، أى تأخير الأجر نسبة للعمل. اما المثل الاول فيتم فيه دفع ارزاق عدة شهور مسبقا. يقول الجهشيارى ان الفضل بن سهل امر ان يحمل لريّان الكاتب ارزاق ثلاثة أشهر وذلك فورا بعد تقليده الانفاق على العسكر [٢]. وفي المنحى نفسه سبب عبد الله بن اسماعيل الانبارى وعلي بن مقلة لانفسهما جارى شهرين [٣]. وكان تأخر الارزاق ايضا امرا شائعا، يقول الصابىء: " قال ابو القاسم: تأخرت ارزاق الكتّاب في وزارة حامد بن العباس (٣٠٦) ... فلمّا تقلد ابو الحسن ابن الفرات الوزارة الثالثة (٣١١) وعرف ذلك انكره وعجب من استمراره وانفذ المستحثين [٤] الى العمال للمطالبة به فقبضوا في مدة عشرة اشهر جارى اربعة عشر شهرا" [٥] ولم يكن اجر الكاتب ينقطع دائما عند انقطاعه عن العمل، وكان هنالك رسم يقضي بدفع مرتبات لمشايخ الكتّاب او الذين تم اعفاؤهم من العمل،

---

[١] كان من المفروض ان يتم دفع الاجور شهريا. اما الشهر فثلاثون يوما، وقد يحسب على انه خمسة وثلاثون يوما في بعض الاحوال. كما كان الشهر خمسين يوما فيما يتعلق بأرزاق المطبخيين (انظر الصابىء، الوزراء: ١٨).

[٢] انظر الجهشيارى، نصوص: ٣٤.

[٣] انظر الصابىء، الوزراء: ١٧٨.

[٤] المستحث شخص ينفذه الخليفة الى الاطراف ليحاول بشتى الوسائل ان يستخرج الاموال من العمال (انظر المصدر السابق: ٢٠١).

[٥] المصدر السابق: ٢٠١.

يقول الصابيء :" كان (حامد بن العباس) اجرى له (اى لعلي بن مقلة) ثلاثة آلاف درهم كل شهر برسم مشيخة الكتّاب وكان يقبضها الى ان نكبه ابن الفرات"[١]. وقد قدر في خلافة المقتدر مبلغ ما جرى على مشايخ الكتّاب وعلى الزّمنى[٢] خمسمائة دينار وذلك فيما يتعلق بكتّاب ديوان الاعطاء فقط، وقد اقر ابن الفرات هذا المبلغ[٣].

وقد كان الكاتب يحصل عدا المرتّب الذى يتقاضاه دخلا آخر من قيامه باعمال مؤقتة في حقل الكتابة تكون مصدر رزق له، ولدينا مثل على ذلك في كتابة الامان. وقد حصّل علي بن مقلة من كتابة الامانات لابن الفرات مائة الف دينار او نحوها[٤]. نضيف الى ذلك الهدايا في الاعياد ولم تكن نقدا بل عينا، يقول الصابيء : " كان الرسم جاريا بان يفرّق على القواد والفرسان...والرجالة... واصحاب الرسائل...ووجوه الكتّاب واصاغرهم وخزّان الدواوين في كل عيد من شاة الى عدة بعران..."[٥] وكان يحدث احيانا ان يصل الذليفة

---

[١] انظر المصدر السابق: ٣١٤، وهذا الاجراء ليس بمثابة تعويض على تقاعد لان الكاتب كفيل بان يعود ليمارس صناعته ساعة تكون الاحوال مناسبة لذلك. ولا نعرف ما اذا كان لصغار الكتّاب حق في تقاضي مرتب المشيخة.

[٢] الزّمنى: ذوو العاهات، ولا نعرف ما اذا كان الحاق مشايخ الكتاب بذوى العاهات يدل على ان بين هؤلاء من اقعده الكبر وعجز عن الاستمرار في تعاطي الصناعة.

[٣] انظر المصدر السابق: ١٤٦.

[٤] انظر المصدر السابق: ١٢٠، تمّ ذلك في وزارة ابن الفرات الاولى التي تقلدها بعد اخفاق محاولة ٢٩٦ في خلع المقتدر وتنصيب ابن المعتز حفيد المتوكل ويقول ابن الفرات لكاتبه (المصدر السابق: ١٢٠)"... لا تردّ احدا عن امان يطلبه فقد افردتك لذلك لانه باب مكسب كبير وقال (ابن الفرات) لمن حضر: أشيعوا قولي وتحدثوا به بين العام والخاص ليأنس المستوحش ويأمن المستتر".

[٥] المصدر السابق: ٢٦٦.

احد الكتّاب اذا اعجب بجملة قالها او بخطه او بشعره اذا كان يقرض الشعر وتلاه عليه فاستحسنه الخليفة. والروايات على مثل هذا كثيرة في كتاب الجهشياري. يروى مثلا ان المأمون وصل محرّره الاحول "لانه كان يعجبه خطه"[1]. ويورد الجهشياري روايات اخرى بهذا الصدد وقد يكون قسما منها موضوعا وليس حقيقة تاريخية، وحتى لو كانت حقيقية فانها لا يمكن ان تشكل مصدر رزق بالنسبة لجميع الكتّاب لان احتمال حدوثها كان ضئيلا ومتوقفا على هوى الخليفة.

ويعتقد بالنسبة للمرتبات انه كانت تحدث تجاوزات كما سبق ورأينا في مسألة تأخير الارزاق، وان الامر كان يخضع عادة لمشيئة الخليفة او الوزير او للظروف المستجدة، فكان الدفع يتم او لايتم، لكن في كلتا الحالتين كان العمل في الجهاز الادارى يتم بصورة طبيعية ولا يبدر من جانب الكتّاب ما يعرقل مسيرة الامور. ولم تحدث ازمة في الدواوين بسبب عدم دفع الاجور. بل الظاهر ان الكتّاب كانوا يتحملون تأخير الدفع دون اللجوء الى العصيان او الى التمرد وحتى دون احتجاج شفوى.

ب— كسب الدسيس

لم يتوقف مصدر رزق الكاتب اذن على المرتب الذى يتقاضاه، وعلى الهدايا التي كانت السلطة تنعم بها عليه من وقت لآخر. وقد كان الكتّاب، على مراتبهم يقومون باعمال اختلاس تدرّ عليهم اموالا اضافية منها عمليات التزوير. ويسمح بالتزوير طبيعة الجهاز

---

[1] انظر الجهشياري، نصوص : ٤٧.

الاداري البيروقراطي الذي يقوم على اساس التدوين، والاثبات بالسجلات، بحيث تشكل هذه مرجعا عند الضرورة. ولا يمكن اضفاء صفة قانونية رسمية على عملية تملّك مثلا الا في حال اثباتها في الدواوين. وهنا يأتي دور الكتّاب بصفتهم قيمين على الجهاز الاداري ومكلّفين بتسجيل المواد، اذ لا يمكن ان تتم أي عملية تسجيل دون وساطتهم. والكتاب معرّضون لقبول الرشى منذ نشأة الدواوين[1]. وكانت الرشوة تعتبر لهذا السبب امرا طبيعيا وان كان غير قانوني. سأل عبد الملك بن مروان احد كتّابه: "أقبلت هدية منذ وليتك؟ فقال: امورك مستقيمة، والاموال دارّة، والعمال محمودون، وخراجك موفّر، فقال له: اخبرني عما سألتك عنه؟ فقال: نعم قد قبلت"[2]. فكان ان صرفه عبد الملك عن خدمته[3].

وكانت الرشوة منتشرة كذلك في عملية تملك الاراضي. يقول الجهشياري "وحكي ان هشاما اقطع، قبل ان تفضى اليه الخلافة، ارضا يقال لها دورين، فارسل في قبضها، فاذا هي خراب، فقال لذويد — كاتب كان في الشام —: ويحك كيف الحيلة؟ فقال له: ما تجعل لي؟ فقال: اربع مائة دينار. فكتب

---

[1] لا يعني ذلك ابدا انه لم يكن من بين الكتّاب جماعة كانت ترفع عن تقبّل الرشى، يروى الجهشياري (الوزراء :١٩٩): "قال احمد بن المدبر الكاتب: كنت اتقلّد مجلس الاسكدار في ديوان الخراج، (في خلافة الرشيد) وكانت نفسي تنازعني على اشياء لم تكن تنالها، وكنت ارفع نفسي عن التعرّض لكسب الخسيس".

[2] الجهشياري، الوزراء :٤٣ — ٤٤. وقبول الهدية هو تدخل بين الكاتب والسلطة بحيث لا يعود يخدم هذه الاخيرة بل الطرف الذي وهبه الهدية. ويعتبر هذا العمل بالنسبة للسلطة من صفة اللؤم والدناءة والخيانة، وقد اتهم عبد الملك كاتبه بجميع هذه الامور.

[3] انظر المصدر السابق: ٤٤.

دورين وقراها ثم امضاها في الدواوين"[١]. ويروى الجهشيارى انه لما اعتلى هشام سدة الخلافة صرف الكاتب الذى تقبل الرشوة ولم يقبل به في دواوينه[٢]. هاتان الروايتان ترجعان الى العصر الاموى وتشيران الى ان الرشوة كانت قائمة في صفوف الكتّاب في قلب الدواوين، وقد ظلت كذلك في العصر العباسي اذ يقول الجهشيارى: "ان الخبر اتصل به (اى بالخليفة المنصور) ان احداثا يزورون في ديوان داره، فامر باحضارهم، وتقدم بتأديبهم"[٣]، اى بضربهم ولانعرف في اى شيء تم التزوير، لكن نشير الى ان الخليفة المنصور عرف بالامر ولا نفاجأ بذلك لان المنصور عرف بتفقده اعمال الدواوين حتى ضاق الكتّاب بذلك[٤]. ونلاحظ في المثل السابق ان المنصور لم يصرف الكتّاب المسؤولين عن التزوير كما حدث في العصر الاموى مع الخليفة عبد الملك والخليفة هشام. وقد يعود تفادى الصرف وعدم اللجوء اليه الى الصعوبات التي تنتج عنه، لاسيما عندما تتوزع مسؤولية التزوير على عدد من الكتّاب كما في المثل السابق، فضلا عن ان الصرف لا يؤدى في هذه الحال الى استئصال الرشوة والقضاء على التزوير بقدر ما يؤدى الى زعزعة الجهاز الادارى نتيجة تغيير افراد طاقمه.

---

[١] المصدر السابق: ٦٠ — ٦١.

[٢] انظر المصدر السابق: ٦١.

[٣] انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٣٦.

[٤] يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ١٣٩ — ١٤٠): "وحكي انه ثقل على كتّاب المنصور تفقده الاعمال، ومراعاته لها، فقالوا لمتطببه: لو زيّنت له شرب النبيذ حتى يتشاغل عنا، لاعظمت المنّة عندنا، فوعدهم بذلك".

ولا شك في ان اكثر الدواوين تأثرا بالرشوة كان ديوان الخراج، وان احداث ديوان الازمة بمبادرة من الخليفة المهدي عمل على الحدّ نسبيا من تسرّب اموال الدولة وذلك بتولي هذا الديوان العمليات الحسابية التي تقارن قيمة الضريبة النظرية بقيمتها الفعلية[1]. ويتطلب ذلك توفر الاصول او الوثائق المتعلقة بكل ارض على حدة في الادارة المركزية. ولهذا السبب كانت الرشوة تتم في المركز حيث السجلات الرسمية — لا في الاطراف — على الأرجح.

ان ما يحتاج اليه الجهاز الاداري للحؤول دون التزوير والاختلاس هو وجود رقابة مستمرة على كتّاب الجهاز الاداري يخضع لها هؤلاء دون انقطاع ولا نعرف مدى توفر رقابة كهذه في الدواوين. بل ان ما يرويه الجهشياري يشير احيانا الى عدم تتبع قضايا الرشوة والاختلاس، اذ يذكر ان الرشوة كانت شائعة في اواخر خلافة الرشيد مثلا، اي حتى بعد استحداث ديوان الازمة. ويقول الجهشياري بهذا الصدد: " دخل الرشيد يوما على ام جعفر، فقال لها: قد تهدك كاتبك سعدان فاعزليه، قالت وبأي شيء تهدك ؟ قال: بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعـ ـدان مع التسليم زيتا
وفي قناديل بنيه قبل ان تخفى الكميتا

فقالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك ابي صالح يحيى بن عبد الرحمن (على ديوان الخراج) اشنع من ذلك، فقال: وما قال ؟ قالت:

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل صالح
تراه في مجلسه اخوصا من لمحه للدرهم اللائح

---

[1] انظر ما سبق : ٣٨.

فقال لها : كذب على كاتبي وكاتبك"[١]. وتشير هذه الرواية بوضوح الى شيوع الرشوة في الدواوين وعدم تدقيق الخليفة في الامر. ونلاحظ كيف كانت الرشوة تتم في ديوان الخراج حيث عمل ابو صالح يحيى بن عبد الرحمن كاتب الرشيد. وقد كان اهل الخراج يلجأون الى تخفيف عبء الضريبة عليهم بان يرشوا كتاب الديوان. ونورد في هذا الصدد رواية اوردها الصابيء ، وهي تدور حول حادثة وقعت في ولاية ابي العباس بن الفرات ديوان الخراج في خلافة المعتضد[٢] في نهاية القرن الثالث لكنها تدل على ان التزوير يرقى الى زمن بعيد ، وابو العباس كان اول كاتب تصدى له وحاربه ، ومعرفتنا باصول الرشوة تعود الى محاولته الحؤول دونها وضبطها. قال ابو الطيب احمد بن اسماعيل وكان يكتب بين يدى ابي العباس بن الفرات: "جاءني رجل من التنّساء بالسواد ومعه توقيع بنقل مقاسمة بيدر له من رسم ثقيل الى رسم خفيف ... وبذل لي مائة دينار على امضائه وكتب الكتب بمقتضاه. ففعلت واخذت المائة دينار وتسلّم الكتاب"[٣]. لقد تقبل الرشوة كاتب صاحب ديوان الخراج الذى تخوله مسؤولياته اخذ المبادرة في كتب الكتب. ثم اتت المرحلة الثانية التي تم فيها اثبات التوقيع في السجلات لكي يصبح معمولا به ويفترض رشوة الكتّاب القيمين على مجلس السواد الذى يدخل البيدر المذكور في اعماله.

---

[١] الجهشياري، الوزراء :٢٥٦. ولهذه الرواية دلالة معينة اوردها الجهشياري بعد نكبة البرامكة لكي يشير الى الفراغ الاداري الذى خلفوه والى عجز الخليفة الرشيد عن تدبير امور دواوينه بعد غيابهم.

[٢] تولى ابو العباس بن الفرات ديوان الخراج في وزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب للمعتضد سنة ٢٨٠، وكان خبيرا في شؤون الخراج (انظر الصابيء ، الوزراء : ٨ - ٩).

[٣] الصابيء ،الوزراء : ١٩٦.

ومتى أثبت التوقيع في الديوان اصبح له طابع رسمي وتعامل معه ديوان الازمة على ذلك الاساس هكذا فعل صاحب البيدر اذ انه "برّهم (اى كتاب مجلس السواد) بجملة حتى اثبتوه عندهم"[١]. ان الرشوة كفيلة بان تنال جميع الكتّاب المعنيين لكي يستروا الامر.

ويتوقف نجاح التزوير او اخفاقه على صاحب الديوان. وكان ابو العباس صاحب كفاية في هذا المجال، ونراه يتتبع الامر من جهته بوسائله الخاصة، وكانت المراسلة المستمرة بينه وبين سائر العمال كفيلة بان تزوده بالمعلومات اللازمة. وقد علم ابو العباس بامر عملية التزوير التي سبق ذكرها وباشر التحقيق فيها واستجوب الكتّاب. يقول الصابيء: "اقبل (ابو العباس) يدفعه (اي الكتاب) الى واحد واحد من الكتّاب الذين في مجلسه ويسأله عن صاحب الخط ... وسلمه الى احمد بن يزيد المدير وقال له: امض به الى الديوان وخذ خطوط اصحاب المجالس وخلفائهم بما عندهم من العلم به وجئني بنسخته اذا وجدتها في مواضعها"[٢].

لكن كما كان لصاحب الديوان وسائله الخاصة لمعرفة الامور كان لكتّاب المجالس اساليبهم الخاصة في الاستقصاء حول ما يجرى في مجلس رئيسهم والاحتياط لذلك، فقد "سبق الخبر الى الكتّاب ... فما منهم الا من قطعه (اى التوقيع) واخرجه من شك الورق ورمى به في المستراح او اعطاه غلامه حتى اخرجه من الديوان وخبأه في خفّه او تحت الارض. ولما دار عليهم ابن يزيد انكروا وجحدوا ما فيه من علاماتهم وخطوطهم فاخذ خطوطهم على ظهر الكتاب بما ذكروه وجاء به الى ابي العباس"[٣].

---

[١] المصدر السابق: ١٩٩.

[٢] المصدر السابق: ١٩٩.

[٣] المصدر السابق: ١٩٦ — ١٩٧.

كانت اذن فعالية التدبير في اغلب الاحيان ضئيلة والاجراءات المتخذة لاتجدى حتى عندما يحدث ان يعرف صاحب الديوان بحصول تزوير. وبسبب ضآلة فعالية التدبير ظلت الرشوة المتمثلة بالتزوير امرا شائعا في اطار ديوان الخراج ومجالسه. لذلك جاء ردّ صاحب البيدر على تردد احد الكتّاب في قبول الرشوة في محلّه اذ قال:" وكم في الدواوين من توقيع يجرى هذا المجرى ولا يؤبه له ولا يتنبّه عليه"[1]. وهذه الاشارة تدل على شيوع الرشوة في صفوف كتّاب الدواوين. ويضاف الى ذلك ان الانتباه الى الامر والتحقيق فيه لم يكن بالضرورة يفضح الفاعل مع انه كان يبطل مفعول التزوير.

ويدخل التحقيق عنصرا جديدا يحاول فيه الوزير او صاحب الديوان ان يعرف كيف تم الاختلاس فيأخذ خطوط الكتّاب اى اعترافهم الخطي بتهمة التزوير او انكارهم لها. ومن المفروض ان يؤدي التحقيق الى جمع معلومات شتى حول طريقة التزوير وطبيعته والكتّاب المسؤولين عنه وان يتّصف البحث لذلك بالشمولية. وقد تكون الظروف هي التي أملت ضرورة اجراء تحقيق لمعرفة ادق التفاصيل المتعلقة بالتزوير ولتفادي بالتالي حدوثه مرة اخرى، ذلك لان تزوير سجلات ديوان الخراج يهدد موارد الدولة الاساسية التي تعتمد عليها وهي محصول الضريبة. من المحتمل ان يكون التحقيق من ابتداع ابي العباس بن الفرات. ولايذكر الجهشياري في تأريخه للعصرين الاموي والعباسي ان خليفة او وزيرا حقق في موضوع الاختلاس كما مرّ معنا في المثل السابق.

وتعود صعوبة ضبط الاختلاس ايضا الى اشتراك اصحاب الدواوين انفسهم في ضروب الاختلاس، لان الاختلاس لم يكن شأن كتّاب الدواوين وحسب بل

---

[1] المصدر السابق : ١٩٧.

رؤسائهم ايضا. وذلك امر بالغ الخطورة لان لرئيس الديوان كامل الصلاحيات في التصرف بشؤون ديوانه [1] وذلك لا سيما بعد اطلاق يده في ذلك في نهاية القرن الثالث كما سبق ورأينا. وليس هنالك ما يشير الى عدم قيام اصحاب الدواوين بعمليات الاختلاس، وحتى حين كان يلجأ هؤلاء الى فرض رقابة على دواوينهم فانهم لم يترفعوا شخصيا عن كسب خسيس الاموال. يشير الصابيء الى ان صاحب الازمة الحسن بن مخلد في وزارة ابن الفرات الاولى (٢٩٦) وضع يده على ثلاثين الف دينار من بيت المال ادعى ان الخليفة امر بها لنفسه ولم يتنبّه احد للامر. وكان الحسن بن مخلد حسب شهادة خادمه اجسرهم " على اخذ مال السلطان" [2].

غير ان لاصحاب الدواوين وكبار الكتّاب والوزراء اساليبهم الخاصة في الافادة من المنصب الادارى. واذا حدث ان اختلسوا فانهم لم يكونوا يكتفون بذلك احيانا ويسلكون طريقا آخر يعود عليهم بربح اكبر لان سعة نفوذهم تمنحهم الفرصة لذلك. ويدخل في اطار العمليات غير القانونية قبول اصحاب الدواوين وكبار الكتّاب بالتلجئة او الالجاء. ويقوم بهذه المبادرة ، اى مبادرة التلجئة ، صغار الملاكين وتقضي بنقل ملكية الارض اسميا الى الوزير او احد وجوه الكتّاب من اصحاب النفوذ. هذا هو نظام الحماية الذى كان شائعا على الاقل منذ بداية العصر

---

[1] لقد استغل الكتّاب احيانا ذلك واستخدموا اسم الوزير او صاحب الديوان للاحتيال على مبالغ ضخمة ، يروى الجهشيارى (الوزراء : ١٠٠ — ١٠١) ان محمد بن الوليد — كاتب ابي ايوب وزير المنصور — كتب على لسان طريف — صاحب البريد — بحمل مائة الف دينار اليه ، فحملها ولم يعلم بها ابو ايوب .

[2] الصابيء ، الوزراء : ٧٧ — ٧٨ .

العباسي ، ويروى الجهشياري:" انه جاء رجل من اهل الاهواز الى ابي ايوب الموريياني وهو وزير ، فقال له : ان ضيعتي في الاهواز قد حمل عليّ فيها العمال ، فان رأى الوزير ان يعيرني اسمه اجعله عليها ، واحمل اليه في كل سنة مائة الف درهم فقال: قد وهبت لك اسمي"[١] . فالكاتب الوزير يتوسط هنا ليخفف الضريبة عن الارض الملجأة اليه .

ويشير الجهشياري الى واقع التلجئة في مقدّمته على سبيل تحذير صاحب السلطان منه مما يشير الى ان التلجئة كانت شائعة في عصره . يقول مخاطبا صاحب السلطان:" واعلم ان من اهل الخراج من يلجيء بعض ارضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاحد امرين ... اما الامتناع من جور العمال ، وظلم الولاة ... واما لدفع ما يلزمهم من الحق والكسر"[٢] . ويشير كلود كاهن الى انه كان يرافق تخفيف الضريبة عن الارض بتوسّط الوزير او الكاتب مطالبة هذا الاخير بحقوق له عليها[٣] . وكان هذا الاجراء يفضي في نهاية المطاف الى نزع الملكية من صاحب الارض لصالح صاحب النفوذ . ويعتبر هذا التدبير غير قانوني ، غير ان صغار الملاكين كانوا يلجأون اليه وهو السبب في زوال الملكية الصغيرة تدريجيا لصالح الملكية الكبيرة في رأى المستشرق كاهن[٤] . ولا شك ان عملية التلجئة كانت تؤدي الى تخفيض عائدات الضريبة المتوجبة على الارض لصالح الملاّك او ثم لصالح صاحب النفوذ ،

---

[١] الجهشياري ، الوزراء : ١١٨ .

[٢] المصدر السابق : ٧ . والكسر مالا يستخرج من الاموال لغياب اهله او موتهم (انظر المصدر السابق : ٧) .

[٣] انظر ما سبق ص :١٠٢ .

[٤] انظر C. Cahen, Islam I, p. 80-81.

وهي تعمل على تجبير اموال الضريبة بصورة لا مباشرة.

نستنتج من ذلك ان الوزير او الكاتب كان يحتفظ لنفسه بهامش يسمح له بتعاطي اعمال غير قانونية في نطاق وظيفته الديوانية طلبا لمزيد من الرزق. لكن تعاطي هذه الاعمال لا يعني انه لم تكن هنالك محاولات قامت بها السلطة لضبطها والحؤول دونها، نذكر مثلا ان علي بن عيسى حاول محاربة التزوير والرشوة عند توليه الوزارة من ٣٠١ الى ٣٠٤ ثم من ٣١٥ الى ٣١٦ واثناء رئاسته على الدواوين من ٣٠٦ الى ٣١١، وذلك لتفادي وقوع السلطة في عجز مالي، وقرر سياسته الضريبية على اساس توفير الاموال اللازمة عن طريق محاربة اختلاس كل من العمال والكتّاب ودون الاعتماد المفرط على عائدات ضريبة الاطراف كما سبق و رأينا [1]. ولا نعرف مدى نجاحه في هذه الاجراءات لكن لا شك في ان تكون ادت نسبيا الى عدم تسرب اموال الدولة ولو لفترة وجيزة ذلك ان علي بن عيسى لم يتولّ شؤون الادارة الا بصورة متقطعة منذ بداية القرن الرابع حتى سنة ٣١٦.

وكان الحصول على الاموال الاضافية يتم بطريقة اخرى غير التزوير. كان يحدث مثلا ان يرشو العمالُ كتّاب الدواوين لمعرفة ما يدور في ديوان الخراج من امور تتعلق بصرفهم او عزلهم والتضييق عليهم، وكانت هذه الطريقة في الاستعلام شائعة جدا، هدفها استباق العامل للامر ومبادرته الى تلافي خطر بعده عن الحضرة حيث يقرر غيره من الوزراء واصحاب الدواوين مصيره. وكان ذلك يسهم في تسرب المعلومات من المركز الى الاطراف [2]. لكن مهمة الكاتب لم تكن تنحصر

---

[1] انظر الصابيء ، الوزراء : ٢٩١.

[2] انظر المصدر السابق: ١٧٣ — ١٧٤.

في نقل المعلومات بل غالبا ما كان يكلّف بذكر العامل والتغني بمحامده وصفاته على مسمع من صاحب الديوان ليحببه اليه. ان هذا النوع من الدعاوة كان هدفه وقاية العامل من الاخطار التي قد يتعرض لها اذا انقلب عليه صاحب الديوان. يقول ابو عبد الله زنجي كاتب ابني الفرات عند توليهما ديوان الخراج في خلافة المعتضد: " كان النرسي الاكبر [١] عبد الله بن الحسن صار الي في بعض الايام مسلّما عليّ ثم سألني اجمال خلافته بحضرة ابي العباس بن الفرات وحفظ غيبه ومراعاة ما يجرى من ذكره ووضع غلامه بين يدى صرّة فيها ثلاثمائة دينار وتختين فيهما ثياب وسامني قبول ذلك... وكان النرسيون بفضل عداوتهم لهما (اى لابني الفرات) قد توصلا الى برّ كتّابهما وخزّانهما وحجّابهما وغلمانهما والفرّاشين" [٢].

وكان كسب خسيس الاموال يتخذ احيانا شكل الاستيلاء المباشر على اموال السلطة. وكان الكتّاب يستولون احيانا على الاموال المخصصة لدفع المرتّبات. يقول الصابيء: "رفع الى ابي الحسن بن الفرات ان جماعة من الكتّاب في ديوان الجيش المتولين للعطاء احتسبوا على الجند بما لم يعطوهم اياه واخذوه لنفوسهم واقتطعوه من دونهم، فانكر ذلك وعظم في نفسه، وكشف عنه فوجده صحيحا ورأى الاقدام على مثله غليظا، فقبض على القوم الذين فعلوه فمنهم من ضربه وأدّبه ومنهم من ارتجع منه ما حصل في يده ومنهم من صفح عن جرمه" [٣]. وليست القضية هنا مسألة رشوة بل اختلاس فالوزير اذن يملك

---

[١] النرسيون، ويقصد بهم عبدالله بن الحسن النرسي واخوته، كانوا يتقلدون عدة نواحي من سقي الفرات (انظر الصابيء، الوزراء: ١٠٤ — ١٧١ — ١٧٢).

[٢] المصدر السابق: ١٧٢ — ١٧٣ ويضيف الصابيء (المصدر السابق: ١٧٣): "فلما قبض ابنا الفرات على النرسيّين واخذ ما كان في منازلهم من الاعمال والكتب وحمل الى دارهما وميّزاه وجدا فيه شبتا بما بوّبه النرسيون اسبابهما".

[٣] المصدر السابق: ٢٣٨.

وسيلة الاستطلاع على ما يجرى في ديوان الاعطاء ، ولا نعرف بالضبط كيف يتم اعلامه في هذه الحالة ، فيلجأ الى تأديب الكتاب .

ولقد استمر التأديب اسلوبا يتبعه الوزير — للتذكير بسهر السلطة على مصالحها — منذ بداية العصر العباسي وبالتحديد منذ خلافة المنصور كما مر من قبل. ومن اللافت للنظر ان يحمل التأديب الذى يكتمن بالتوبيخ والتأنيب والضرب أبعادا تربوية هدفها اصلاح الكاتب . غير ان التأديب لم يكن الاجراء الوحيد الذى يلجأ اليه الوزير اذ نراه يصفح عن عدد من الكتاب ويسترجع الاموال من بعضهم الآخر ويعتقل آخرين. ولا نعرف لماذا كان العقاب يتنوع رغم ان الجنحة المرتكبة واحدة هي الاختلاس . لكن الصابئ يشير الى انه كانت تتم احيانا تدخلات من قبل كبار الكتاب وكبار المسؤولين لصالح هذا الكاتب او ذاك . ولقد كتب احد الكتاب المعتقلين الى احد المقربين من ابن الفرات " يسأله خطاب الوزير في بابه والتلطف في اطلاقه "[1] . وقد استجاب ابن الفرات للطلب واطلق المعتقل. ونرى رغم تنوع الاجراءات ان الصرف لم يكن واردا .

ونستطيع ان نتساءل حول مدى فعالية اللجوء الى تأديب الكاتب وما اذا كان يؤدى فعلا الى اصلاحه . وقد يكون استرجاع الاموال من فئة من الكتاب هدفا من اهداف التأديب لكن الهدف الاهم هو التذكير بوجود السلطة وقدرتها على اخضاع من تريد والافصاح عمن تشاء . وهكذا يظل شبحها مخيما على الجهاز الادارى يلوح بالتدخل في اية لحظة لترد لنفسها الاعتبار.

وننتهي في هذا الفصل من الكلام عن طبقة الكتاب وامتيازاتها وواقع المراتب والمرتبات لننتقل الى الكلام على صناعة الكتابة اى على الاصول والقواعد التي ينبغي ان يلتزم بها الكاتب في امتهانه صناعته والمستوى الثقافي الذى كان مطلوبا منه .

---

[1] المصدر السابق: ٢٣٨.

الفصـــل الرابـــع

==========

صناعة الكتابـــة وتكويـــــــن
الكـاتب الاخلاقـــي والثقافـــــــي

I - آلة الكتابة

اقتضى العمل في الدواوين - لا سيما في ديوان الرسائل - اتقان الكاتب صناعة الكتابة وتمرسه بها اذ اصبحت هذه اشبه بحرفة من الحرف، واصبح الكتّاب ينشدون بلوغ مستوى معين من الاتقان، لذلك فقد تفننوا في اخراج الكتب، وفي ابتداع شتى الخطوط، وكانوا يهتمون بأدق التفاصيل المتعلقة بعملية الكتابة.

وكانت "مهارة" الكاتب تتوقف على اصلاحه "ادوات الكتابة"، والسيطرة عليها سيطرة كاملة. اما آلة الكتابه فتتألف اولا من الصحائف، او القراطيس، او الطوامير[1] التي كانت تستخدم في السجلات والمكاتبات الرسمية. وقد استخدم الامويون في دواوينهم اوراق البردى على الرسم الذى كان جاريا لدى البيزنطيين[2]، وكانت مصر هي مصدر هذا النوع من القراطيس. ويشير الجهشيارى الى ان البردى كان من المواد الثمينة في صدر الاسلام، حتى ان الخليفة عمر بن عبد العزيز امر كتّابه "... بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير فكانت كتبه انما هي شبر او نحوه"[3]. ولا نعرف بالضبط متى استعمان

---

[1] تشير لفظة القرطاس عادة الى ورق البردى ثم اصبحت هذه اللفظة تطلق على كل انواع الورق المخصص للكتابة دون تخصيص، كذلك الامر بالنسبة للمهارق وهي نوع من الخزف التي كانت تستخدم للكتابة، فان هذه اللفظة كسابقتها اصبح لها معنى عاما يشمل جميع المواد الكتابية (انظر لسان العرب، قرطس) و أيضا مقال حبيب زيات، صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام، مجلة المشرق، ١٩٥٤، مجلد ٤٨: ٤٦٨).

[2] انظر الصابىء، رسوم: ١٢٦.

[3] الجهشيارى، الوزراء: ٥٣ ويضيف الجهشيارى (المصدر السابق: ٥٣) "وروى عن عبد الله بن ابي بكر بن حزم ان اباه كتب الى عمر بن عبد العزيز يسأله قراطيس فكتب اليه عمر: ان دقّق القلم واوجز الكتاب فانه اسرع للفهم".

العباسيون بالجلود في الكتابة الديوانية وفقا لما كان متبعا في الادارة الساسانية [1]، والارجح ان يكون ذلك تم بعد خلافة المنصور، اذ يشير الجهشياري الى العدد الهائل من الصحائف التي من نوع ورق البردي في دواوين المنصور، حتى ان دعا الخليفة بصالح، صاحب المصلّى، فقال له: "اني امرت باخراج حاصل القراطيس في خزائننا، فوجدته شيئا كثيرا، فتولّ بيعه وان لم تعط بكل طومار الا دانقا [2]... قال صالح: ... فانصرفت من حضرته على هذا. فلما كان في الغد دعاني، فدخلت عليه، فقال لي: فكرت في كتبنا وانها قد جرت في القراطيس، وليس يؤمن حادث بمصر، فتنقطع عنا القراطيس بسببه، فنحتاج الى ان نكتب فيما لم نعوّده عمالنا. فدع القراطيس استظهارا على حالها. ولهذه العلّة كانت الفرس تكتب في الجلود والرّق وتقول: لا نكتب في شيء ليس في بلادنا" [3].

وتشير هذه الرواية الى ان القراطيس هنا هي اوراق البردي، بدليل ان مصدرها مصر، والارجح ان تكون جزءا من ضريبة الخراج التي كانت تجبى احيانا عينا في العصرين الاموي والعباسي، ووجودها في الخزائن دليل على ذلك [4]. وتشير آخر الرواية الى الخوف من انقطاع القراطيس، والرغبة في المحافظة عليها، تحسّبا لأي طارئ [5]. ليس اذن ما يدل على ان العباسيين في خلافة المنصور استخدموا الجلود في الكتابة، وقد يكون هذا الامر تم فيما بعد

---

[1] وكانت تستخدم الجلود خاصة في كتابة العرب وملوكهم في الجاهلية وصدر الاسلام، ويبدو ان مصاحف القرآن والتوراة كتبت في الجلود (انظر حبيب زيات، صحف الكتابة: ٢٧).

[2] الدانق: سدس الدرهم، انظر لسان العرب (دنق).

[3] الجهشياري، الوزراء: ١٣٨.

[4] انظر ما سبق ص: ٣.

[5] ويبدو ان الخوف من انقطاع القراطيس ادى الى محاولة زراعة البردي خارج مصر. وقد ورد في تاريخ اليعقوبي (تحقيق مارتن ثيودور هوتسما، ليدن، ١٨٨٣، ٢: ٥٧٧) ان المعتصم لما بنى سامرّاء اتى بفلاحين من مصر ليزرعوا البردي ويقوموا بصناعة القراطيس، فلم تأت قراطيسهم جيدة بل كانت خشنة جافة.

في العصر العباسي. ونعرف ان سجلات الدواوين كانت مكتوبة في الجلود في خلافة الامين [١]. واذا كنا نجهل تاريخ دخول الجلود الدواوين على التحديد، فاننا نعرف ان الورق او الكاغد دخل الدواوين في خلافة الرشيد على يد الفضل بن يحيى البرمكي [٢]. ويتميز الورق عن البردى او الجلود بتوفّره وبضآلة كلفته [٣]. لكن الارجح الا يكون الكاغد قد حال كليا محل البردى والجلود. والدليل على انه لم يستخدم بصورة استثنائية في الدواوين ما ورد على لسان الصولي في قوله : ان"كتب عبد الله بن طاهر(والي خراسان) الى اسحاق بن ابراهيم [٤] من خراسان ان يوجه اليه باقلام قصبية كتابا نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم. اما بعد، فانا على طول الممارسة لهذه الكتابة ... وجدنا الاقلام القصبية، اسرع في الكواغد وامر في الجلود، كما ان البحرية منها اسلس في القراطيس" [٥] ... صحيح ان هذه الرواية تعود الى مطلع القرن الثالث لكننا نستدل من خلالها ان الكتابة على الجلود كانت قائمة. وتشير رواية اخرى، مصدرها ابن المدبر (٢٧٩) الى استمرار الكتابة على

---

[١] انظر حبيب زيات ، صحف الكتابة : ٤٦٣.

[٢] انظر المصدر السابق: ٤٨٧.

[٣] يقول الصابيء (رسوم :٢٦) :"الذى جرت به العادة القديمة في الكتب السلطانية ان تكون في القراطيس... فلما انقطع حملها وتعذّر وجودها عهد الى الكاغد الشيطاني". ونشير الى ان الورق كان يؤتى به في البداية من الصين وكانت اسعاره مرتفعة جدا، واستمرّ ذلك حتى سنة ١٣٣ تقريبا عندما قام الاسرى الصينيون بصناعته في خراسان، واشتهر بعد ذلك الكاغد السمرقندى حيث كان يصنع الورق (انظر حبيب زيات، صحف الكتابة : ٤٨٣ — ٤٨٤، ٤٨٦).

[٤] لم تأت المصادر على ذكر اسحاق بن ابراهيم.

[٥] الصولي ، ادب الكتاب: ٦٨ — ٦٩.

اوراق البردى اذ يقول مخاطبا الكاتب:" تجنب الاقلام الفارسية ما استطعت فانها ما تصلح الاّ للكواغد والرقوق"[1] دون البردى. ولا بد ان تكون الصحائف على انواعها الثلاث مستخدمة وان بصورة متفاوتة في دواوين الادارة ، وذلك حتى اواخر القرن الثالث . وتشير رواية الصابىء بوضوح الى ذلك في تحديده للميزانية المخصصة للمواد الكتابية وهي على ثلاثة انواع : الصحف، والقراطيس، والكاغد[2] ، ولا نعرف ايا منها كان اوسع انتشارا. اما سعر المواد الكتابيّة فاختلف باختلاف العصور: يشير الجهشيارى الى ان سعر صحيفة البردى الواحدة كان درهما في خلافة المنصور[3] ، وقد وصل سعره في خلافة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) الى درهمين[4] . ومردّ الصعوبة في تحديد سعر القراطيس والكاغد وغيرهما من المواد الى انه كان يضاف عادة الى ميزانيات مرتّبات الكتّاب في الديوان ، فيصعب تمييزها عن هذه الاخيرة. يقول الصابىء في هذا الصدد متحدثا عن ميزانية مجلس السواد:" ... جارى ديوان السواد وكتابه ، مع ثمن الكاغد والقراطيس، نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر"[5] . للكاغد والقراطيس قيمة معينة تتجلى في كيفية استخدامها حسب اقيسة محددة تختلف باختلاف الموضوع. ولا شك ان الرغبة في الاقتصاد هي التي املت على الكتّاب فكرة الالتزام بقياسات معينة بحيث لا تذهب الصحف

---

[1] ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٣.

[2] الصابىء ، الوزراء : ٢٠.

[3] الجهشيارى، الوزراء : ١٣٨.

[4] حبيب زيات، صحف الكتابة : ٤٨١.

[5] الصابىء ،الوزراء : ٣١ ويشير الجهشيارى (نصوص:٣٤) الى ان الفضل بن سهل عرض على ريان كاتبه تولي الانفاق على بعض الجند على ان يكون رزقه عشرة آلاف درهم ورزق كاتبه ثلاثة آلاف درهم وقراطيسه الف درهم. يشكل اذن المبلغ المخصص للقراطيس في هذه الرواية ثلث المبلغ المخصص للكاتب .

هدرا فيتم اقتصاصها وفقا للحاجة ويظلّ بيت المال قادرا على تغطية نفقاتها.

هذا فيما يتعلق بالمواد المخصصة للكتابة ، وقد رأينا انه من الصعب تحديد مدى انتشار كل نوع منها ، كما انه من الصعب تحديد الموضوعات التي تخصص فيها كل نوع ومعرفة طبيعة المواد الكتابية المستخدمة في مراسلة صاحب السلطان وتلك المستخدمة في تدوين السجلات الرسمية. مثلا لا نعرف ما اذا كانت السجلات تدون في الرقوق لصلابتها ومقاومتها الزمن وعوامل التلف ام ان التدوين في الكاغد كان مفضلا لضآلة كلفته وسهولة التصرف به ومحوه وتصحيح ما يكتب فيه ، فكل نوع من هذه الانواع يتمتع بنواح ايجابية وسلبية ، ولا شك ان تنوع انتشار المواد الكتابية على انواعها كان رهنا بتغيّر العهود والازمنة ورهن الاحداث التاريخية التي كانت تعترض الخلافة فينتشر نوع على حساب نوع آخر [1].

اما الآلات الاخرى التي كان الكاتب يستعملها فهي : الدواة. ويسمي الصولي تبليل صوفة الدواة بالحبر: الاقة الدواة. واذا كانت من قطن قيل: كرسفة الدواة [2]. وقد يكون للدواة محراك لتحريك المداد ، كما قد ترفع الدواة عن الارض عند الكتابة بواسطة آلة توضع بها ، فتصبح في متناول الكاتب، لا يحتاج الى الانحناء لكي يغط قلمه بالمداد [3].

ثم هنالك القلم ويتكون من قصبة ، ومن سنّين : سن ايمن وسن ايسر." ... فاذا كان الايمن اعلى من الايسر قيل : قلم محرّف ... فاذا كانا مستويين قيل: قلم مستوى

---

[1] ويروى الثعالبي في كتاب الغاص الغاص (تحقيق حسن الامين ،بيروت، ١٩٦٦ :٩٠) كيف خفت القراطيس في ايام المعتز والمستعين بسبب الفتنة" ... فضاقت الصحف بكتّاب الدواوين".

[2] البطليوسي ، الاقتضاب : ٨٤ وانظر تعريف الصولي للكرسف في ادب الكتاب: ١٠٠.

[3] انظر الصولي ، ادب الكتاب : ١١١ — ١١٢.

السنين"[١]. اما احداث السنين في القلم فهو القطّ. والمقطّ الآلة التي يقط بها القلم[٢]. وللقلم شق يسحب منه المداد، وقد يذنّب القلم اى يكون طويل الذنب[٣]. ولا بد للعناية بالقلم من استخدام السكين او المبراة "وقال بعض الكتّاب :" السكين مسنّ الاقلام يسنها اذا كلت، ويلصقها ان نبت، ويطلقها اذا وقفت، ويلمها اذا تشعثت"[٤].

هذه هي الآلات الاساسية المستخدمة في عملية الكتابة. ولا بد بعد الفراغ من تعدادها، من التعويل على كيفية اخراج الكتب وتصديرها وتأريخها وختمها وغير ذلك من الامور التي كانت تتطلبها كتابة الرسائل.

II- قانون الكتابة

لكتابة الرسائل احكام خاصة بها، ينبغي ان يلتزم بها الكاتب وتشكل ما يمكن ان نسميه "قانون الكتابة". ويسعى قانون الكتابة ليجعل هذه الاخيرة تخضع لمعيارية معينة. فقد تناول عدد كبير من المؤلفات والكتب هذا الموضوع، وبحثت في معايير تقيّد الخط واللغة والدعاء والتصدير والاسلوب. ولقد وضع بعض الكتّاب عددا من هذه الكتب مثل ابن المدبّر الكاتب صاحب الرسالة العذراء وابي بكر الصولي الكاتب وقد لا تبلغ هذه المؤلفات نتيجة واحدة بشأن موضوع واحد، قد يقع تناقض بين كتابين يعالجان الموضوع ذاته، لكننا رغم ذلك لا نستطيع ان نتكلم عن مدارس مستقلة تناولت "التشريع" لصناعة الكتابة. لذلك تلتقي مضامين هذه المؤلفات دائما على صعيد من الاصعدة،

---

[١] البغدادى، كتاب الكتّاب : p.131 .

[٢] انظر الصولي، ادب الكتّاب :١١٠.

[٣] انظر البغدادى، كتاب الكتّاب: p. 132.

[٤] انظر الصولي، ادب الكتّاب :١١٥.

وتمضي في ذلك سبيل ما اتبعه السلف. وغالبا ما نقع على مؤلف يتبنى موقفا محايدا من موضوع اختلفت حوله الآراء فيذكر مثلا الصيغتين المتناقضتين اللتين اتبعهما السلف دون ان يعمل الخيار فيهما.

لقد عمل الكتّاب الديوانيون وغيرهم من الكتّاب المؤلفين على استنباط "احكام" لكتابة الرسالة الديوانية، فأصبح لهذه الرسالة "احكامها"، كما للخراج احكامه التي قلّما تتغير والتي قلّما نقع فيها على بدع مستحدثة. وكاتب الرسائل، - مثل كاتب الخراج - لا بد له من تحصيل معرفة معينة في حقل اختصاصه تتعلق بكيفية كتابة الكتب وكيفية اخراجها. وسوف نحاول استخراج هذه القوانين عامة بالاعتماد على الكتب التي "قننت احكامها" ونرى انها تناولت ادق التفصيلات المتعلقة بالكاتب و بالكتّاب.

اول ما ينبغي على الكاتب ان يفعله هو استصلاح آلته التي هي آلة الكتابة. وقبل الاستصلاح يأتي اختيار الآلة التي تخضع لأوصاف محددة، يقول الصولي: "فحكم الدواة مثلا، ان تكون متوسطة في قدرها، نصفا في قدها، لا باللطيفة فتقصر اقلامها ولا بالكبيرة فيثقل حملها. لان الكاتب ولو كان وزيرا له مائة غلام موسومون بحمل دواته، مضطر في بعض الاوقات الى حملها ووضعها ورفعها بين يدى رئيسه حيث لا يحسن ان يتولى ذلك منها غيره"[1]. ولا بد ايضا من العناية بالاقة الدواة، اى بوضع الليقة فيها وشرط ذلك، على ما يقول ابن المدبر مخاطبا الكاتب: ان تكون هذه "نقية من الشعر، والوذح، لئلا يخرج على حرف قلمك ما يفسد كتابتك، ويشغلك بتنقيته"[2]. والليقة بحاجة الى من يتعهد بها، يقول الصولي: "يعني بتعهد الليقة والكرسف بالملح والكافور. وان غيرت في كل يومين او ثلاثة كان آمن لتغيرها. وربما

---

[1] الصولي، ادب الكتّاب: ٩٦.

[2] ابن المدبر، الرسالة العذراء: ٢٢ - ٢٣.

اغفل ذلك ،فاستكرهت الرائحة ، وظهر في نتنها ما يخجل له . وتهيأ ذلك على بعض الكتّاب حتى ظن رئيسه انه أبخر ، فشكا ذلك الى نديم له ، فقال: ما عرفت ذلك منه ولكن اغفل ذلك من امر دواته ، وتفقدها. فقال الرئيس: عذره في بخره ابسط عندى منه من نتن دواته لانه في ذلك مضطر ، وهو في ذاك مختار"[١]. اما القلم فيرى ابن المدبر انه من الافضل ان يكون بحريا ، اى ان يؤخذ من القصب الذى ينبت قرب الماء[٢]. والاقلام على انواع ، واكثرها انتشارا حسب ابن المدبر هو القلم المحرّف الكوفي ، والتحريف يكون عادة الى اليمين.يستخدم هذا القلم في الكتابة في السجلات، اى في الدواوين بالاضافة الى استخدامه في مراسلة الملوك[٣].

واما القط فعلى انواع ، وقد يكون محرفا ، او مستويا (اى يستوى فيه السنّان) ، كما انه قد يكون مدورا اى "ليس فيه تحريفا البتة" بحسب ما شرحه ابو حيان التوحيدى[٤] ، وينبغي ان تكون برايته حادة :"... فان محل القلم من الكاتب، محل الرمح من الفارس" ، لذلك ينصح ابن المدبر الكاتب ان يستخدم "سكينا طواوسيا" ويضيف قائلا — مخاطبا الكاتب — :"تفقد الانبوبة قبل بريكها ، لئلا تجعلها منكوسة... ولا تطل شق القلم ، فأن القلم لا يمج المداد من شقه الا بمقدار ما احتملت شبتاه..."[٥] ويقول الصولي بهذا الصدد لغلام كان يكتب بين يديه :" ليكن قلمك صلبا بين الدقة والغلظ ،

---

[١] الصولي ، ادب الكتّاب : ١٠١.

[٢] انظر ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٥.

[٣] انظر المصدر السابق: ٢٤.

[٤] التوحيدى، الرسالة في علم الكتابة ، ضمن ثلاث رسائل للتوحيدى (تحقيق المعهد الفرنسي ، دمشق، ١٩٥١) ٣١.

[٥] ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٤.

ولا تبره عند عقدة ، ولا تجعلن في انبوبة انبوبة ، ولا تكتبن بقلم ملتو ولا ذى شق غير مستو. واختر من الاقلام ما يضرب الى السمرة [1] ، وأحدّ سكينك ، ولا تستعملها لغير قلمك. وتعهده بالاصلاح يصلح. وليكن قطك صلبا ، ليمضي الخط مستويا لا مستطيلا. وابر قلمك بين التحريف والاستواء . واذا كتبت الدقيق فأمل قلمك الى اقامة الحروف لاشباع الخط ، واذا جللت [2] فالى التحريف" [3] .

هذا بالنسبة للقلم. اما المداد ، فالحصول عليه ليس سهلا ، ويشرح ابن المدبر كيفية الحصول عليه يقول:" خذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ، ومن الصمغ العربي درهما ، وعفصا مسحوقا نصف درهم ، ورماد القرطاس المحرق درهمين ، ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض، ثم بندقها واجعلها في الظل ، فاذا احتجت اليها ، اخذت منها مقدار حاجتك فكسرته ، وحشوت به دواتك ، وان نقعته بماء السّلق حتى ينحل ، ويذوب، ويختمر ثم امددت من مائه دواتك كان اجود وانقى" [4] .

اما القراطيس فاستخدامها وقصّها يخضع لاصول معيّنة تعرّض لها الصولي في كتابه "أدب الكتّاب" بالتفصيل. ويتوقف حجم القرطاس على مرتبة المخاطَب والمخاطِب، يقول الصولي : "يكتب الامام في الثلثين من الطومار الى ملوك الملك والى عماله ، ويكتب عماله اليه في مثل ذلك ، ويكاتبه وزيره في النصف في امور العامة الديوانية فاما الخاص الذى يكتبه بخطه او يكتب بين يديه

---

[1] وقد يكون اختيار الاقلام الضاربة الى السمرة هو بسبب نضجها وصلابتها نسبة للاقلام اللينة التي قد تنفصم بسهولة.

[2] جللت الخط اى عظمته .

[3] الصولي ، أدب الكتّاب : ٥٤.

[4] ابن المدبر ، الرسالة العذراء : ٢٣.

باملائه ففي خمسين ويكاتبونه في مثل ذلك في الخاص، والعام ، الاّ من كان منهم في ادنى الطبقات، فانه لا يكاتب الا في النصف في الحالتين جميعا ، وتتكاتب الاكفاء في الاثلاث والارباع... والاسداس للتوقيعات"[١] . ونستطيع ان نعرف القياسات على الوجه الصحيح اذا عرفنا قياس الطومار. فالطومار هو الصحيفة الكاملة يبلغ طولها حوالي مترين ونصف المتر وعرضها الشبر[٢] . بامكاننا على اساس ذلك ان نحدد قياس كتب الامام الى الملوك والعمال على انها بلغت مترا ونصف المتر تقريبا. اما التوقيعات فلم يتعدّ طولها ربع المتر. ولم يكن الطومار يستخدم كاملا الا استثناء . ورغم الاقتصاد في الطوامير فان استخدام ظهورها كان مستكرها. يقول الصولي في هذا الصدد :" وقد كره الناس الظهور ، وأمر بتبرك استعمالها في النسخ وانشائها ، فكيف في المكاتبة ؟ وقيل: هي تفسد النيات، وتذيع الاسرار بما في باطنها ، وتشعّث الخطوط ، وتغضّ من سمو الدولة"[٣] . لقد تعددت الاسباب وراء ترك استعمال الظهور وهذه الاسباب جمالية اجتماعية وسياسية . لكن تنبغي الاشارة الى ان استخدام الظهور كان شائعا في التوقيعات في الرقع التي كانت ترفع الى ديوان المظالم ، او الى الخليفة[٤] . وبما ان استخدام الظهور لم يكن مستحبا فان محو القراطيس لاعادة استخدامها في الكتابة كان شائعا ، يقول ابن المدبر :" ويتم ذلك بمحو ما كتب على بعضها" . واما محوها (اي القراطيس) فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيه ، غير انه ينبغي له الاّ يلقط السواد في القرطاس الا بمثل

---

[١] الصولي ، أدب الكتّاب : ١٤٨.

[٢] انظر حبيب زيات ، صحف الكتابة : ٤٧٤. وتحديد الطومار يكون على انه جزء من القرطاس الذى جرى الصاقه ومعاينته ليصبح طوله حوالي خمسة عشر مترا "وهو اقل ما كان يطلب ويباع" (المصدر السابق:٤٧٤).

[٣] الصولي ، أدب الكتّاب : ١٤٩.

[٤] الجهشياري، نصوص : ٦٨.

الشمع المسخن واللبان الممضوغ وما اشبههما ، ثم يكون لقطه رويدا رويدا كلما لقط جانبا حوّله الى الجانب الآخر"[١]. وكان المحو يتم احيانا بالغسل[٢]، والجلود هي المواد الوحيدة التي تتحمل الغسل.

وتأتي بعد مرحلة تحضير الصحائف مرحلة اخراج الكتاب[٣]. ويبدأ الكتاب بعبارة " بسم الله الرحمن الرحيم" يليها اسم المرسل واسم المرسل اليه اى:" من فلان الى فلان"[٤]، ثم يلي ذلك دعاء للمخاطب يكتب تحت عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" ، قال الصولي :ويستقبحون ان يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم فاضلا بقليل ولا يكتبونها وسطا"[٥]. ويلي الدعاء عبارة "اما بعد" ، ثم يبدأ الكاتب بانشاء الكتاب وينتهي الكتاب بالتأريخ[٦]، ويذكر الشهر واليوم والسنة. ولا يقع التأريخ الاّ في عجز الكتب[٧]. يكتب الكاتب الكتاب، ثم يعرضه ، اى يمرره على طرفه بعد فراغه منه لئلا يقع فيه خطأ ،

---

[١] ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٨.

[٢] انظر حبيب زيات ، صحف الكتابة : ٤٦٣. وانظر ايضا رسالة التوحيدى في احراق كتبه في معجم الادباء ٥ : ٣٨٦ — ٣٨٧.

[٣] بدأ هذا التقليد في بدء الرسالة بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (انظر الجهشيارى،الوزراء : ١٤).

[٤] الصولي ، ادب الكتّاب: ١٤٤ ويرى البغدادى (كتاب الكتّاب P.134)ان العنوان هو الخاتم وليس ما يرد في اول الرسالة.

[٥] انظر الصولي ، ادب الكتّاب : ٣٦.

[٦] انظر المصدر السابق: ١٨٤.

[٧] انظر المصدر السابق: ١٢٧.

ويحرره بعد قراءته ، "وتحرير الكتاب خلوصه كأنه خلص من النسخ التي حرر عليها ، وصفا عن كدرها [١] ، فتوضع نسخ منه في الديوان ، وتنفذ النسخة المحررة ، ولا يتم انفاذها قبل تتريبها أي رشّ التراب على المداد كي يجف [٢] وطيّها ثم سحايتها. والسحاية هي ما شدّ به الكتاب بقشرة الصحيفة او القرطاس [٣]. ويلي السحاية تطيين الكتاب، اى ختمه [٤]. هذه هي مراحل اخراج الكتاب عامة.

ولا بد لنا من التطرق الى مضمون الكتاب، وكيفية الدعاء والتصدير وما يتعلق بذلك. فالتصدير او العنوان هو تحديد للطرفين المتكاتبين ، والتصدير شكل من العنونة يبدأ به باسم كاتب الرسالة قبل المخاطَب، يقول الصولي :" ولا يكاتب بالتصدير الامام ، ولا ولي عهده ، ولا وزيره ، فاما الامام فيكتب بالتصدير الى كل من خاطبه من عامل حرب وخراج وقضاء ، في الكتب المدونة المنعوتة بالعهود والعقود وجباية الفيء والحمول والنفقات والاقطاعات والامارات والفتوح وما جرى هذا المجرى ويبدأ بنفسه" [٥]. اما الدعاء فغالبا ما يرافق التصدير في الكتابة ، ويأتي بالاضافة الى ذلك في آخر الكتب اذا كان المخاطَب هو الامام وولي عهده ،ووزيره ،وللثلاثة الدعاء نفسه تقريبا ،

---

[١] انظر المصدر السابق: ١٥٦.

[٢] انظر ابن درستويه ، كتاب الكتّاب(تحقيق ابراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي ، الطبعة الاولى ،الكويت، ١٩٧٧) ١٥٦.

[٣] انظر البغدادي، كتاب الكتّاب p. 134 .

[٤] انظر المصدر السابق: p. 135 .

[٥] الصولي ، ادب الكتّاب : ٤١.

الا انهم قالوا : سلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وكذلك لولي عهده في التصدير والدعاء الاخير، ولم يقولوا للوزير "وبركاته"، ليفرقوا بين المحلّين ، وقد كتب بعضهم في عجز الكتاب الى الوزير "وبركاته" ، اما في التصدير فلا ، وذلك للفرق بين المجلس"[١]. ويقول البطليوسي فيما يتعلق بالادعية ان مراتب المخاطبين التي ينبغي ان يراعيها الكتّاب ثلاث: "والمرتبة العليا تنقسم الى ثلاثة أقسام : فاعلاها مرتبة الخليفة ، ووزيره ، ومن كان نظير الوزير عنده ، ثم مرتبة الامراء ، ومن جرى مجراهم ممن هو دون الوزراء ، ثم مرتبة العمال واصحاب الدواوين... والواجب ان تجعل للخليفة مرتبة ارفع من كل مرتبة والا يشاركه فيها وزير ولا غيره"[٢]. ويعدد البطليوسي اصحاب المرتبة الثانية على انهم الاصدقاء والاخلّاء[٣]. واما المنتمون الى المرتبة الثالثة فينقسمون في ثلاثة اقسام : "اعلاها مرتبة من قرب محله من محل الكاتب، والثانية مرتبة من له رئاسة عليه والثالثة مرتبة الحاشية... من الاولياء والخدم"[٤]. اما الصولي فرأيه يخالف رأي البطليوسي ، اذ يرى ان الوزير هو نظير الامير ، وليس اعلى منه مرتبة ، يقول: " يكاتب الوزير الناس على مقاديرهم ورتبهم من السيف والقلم ومنازلهم ، فدعاؤه لامراء الاقاليم الكثيرة المجموع لهم حربها وخراجها وسائر اعمالها كدعاء النظير اذ نقص قليلا في صدور كتبه ويختمها بمثل ذلك... فاما دعاؤهم له فاختاروا ان يكون بغير التصدير وبالوزارة "[٥].

---

[١] الصولي ، أدب الكتّاب : ٤٠.

[٢] البطليوسي ، الاقتضاب :٦٩.

[٣] انظر المصدر السابق: ٦٩.

[٤] البطليوسي ، المصدر السابق: ٦٩.

[٥] الصولي ، أدب الكتّاب : ١٥٠.

وتخضع جملة الدعاء لاصول معينة : يخاطب ذوو الشأن في المخاطبات الرسمية بصيغة : "اطال الله بقاءك" ، وهي صيغة مفضّلة على صيغة "ابقاك الله طويلا" لأنها حسب قول ابن المدبر ارجح وزنا ، وانبه قدرا ، في مخاطبة الملوك"[١]. ويحذر الصولي الكاتب من عدم الالتزام باصول الادعية ، ويحثه على الالتزام بها دون زيادة او نقصان فالزيادة غير مستحبة لانها قد تعتبر تملقا. وتحط من قدر الكاتب، كما ان النقصان قد يجر عواقب وخيمة[٢]. اما الدعاء الاخير فيقع على صيغة "اكرمك الله وأبقاك" وهي تعتبر افضل من صيغة " جعلت فداك" ، يقول ابن المدبر ان الكتاب جعلوا "اكرمك الله وابقاك" احسن منزلة في كتب الظرفاء والادباء من "جعلت فداك" ، على اشتراك معناه ، واحتماله ان يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من الشرّ ... على ان كتّاب العسكر وعوامهم قد اولعوا بهذه اللفظة وجعلوها هجّيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والصغير والكبير"[٣].

يبقى الكلام عن تأريخ الكتب والرسوم المتبعة في ذلك. يقع التأريخ عادة في عجز الكتب ، ويخضع لاصول معينة ، يقول ابن درستويه :" واما الشهور فانها مذكرة كلها الا جمادى وليس شيء يضاف اليه شهر الا ثلاثة ، الربيعان ، ورمضان ، يقال : شهر

---

[١] ابن المدبر ، الرسالة العذراء :١٢ وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل "ابقاك الله وامتع بك" الا الى الحرمة والاهل والتابع والمنقطع اليك (المصدر السابق : ١٢).

[٢] الصولي ، ادب الكتاب : ١٦١.

[٣] ابن المدبر ، الرسالة العذراء :١٢ ويقول الصولي (أدب الكتّاب:١٥٠) : "واجتنبوا ان يقولوا للوزير في الدعاء جعلني الله فداك". وانظر ايضا حول فوضى المخاطبات في بداية القرن الهجرى الخامس الصابىء ، الوزراء :١٥٢.

رمضان، وشهر ربيع الاول، وشهر ربيع الآخر، وشهرا ربيع"[١]. اما صيغة التأريخ فتكون باستخدام لفظة "ليلة" بدل لفظة نهار لانها تدل على ان النهار قد انقضى[٢]. وقد يؤرخ الكاتب بمجهول الايام والليالي، "فاذا كتب لثلاث ولم تذكر الايام والليالي ... فهو محمول على المعنى، وان كان العدد مذكرا فهو على الايام خاصة والليالي داخلة معها، وان كان مؤنثا فهو على الليالي خاصة والايام داخلة معها"[٣]. ويختلف التأريخ باختلاف المدة المتبقية من الشهر فيقال مثلا: لسبع ليال خلون من المحرّم[٤]، فان كان الماضي (من الشهر) اقل من نصف الشهر قلت: "لكذا ليلة مضت (او خلت) من شهر كذا، وان كان الباقي (من الشهر) اقل من نصف الشهر قلت: لكذا ايضا بقيت"[٥]. يقسم الشهر اذن الى قسمين يستخدم بموجبهما فعل خلا، او مضى، وهما بالمعنى نفسه او فعل بقي. ويستخدم في حال انقضاء خمس عشرة ليلة عبارة: لخمس عشرة ليلة خلت او للنصف من شهر كذا ولا يقال بقيت الا في الليلة السادسة عشرة[٦]. وهذا الرسم في التأريخ خاص بالكتّاب "وقد كره اهل الورع ذلك لانهم لا يدرون كم بقي لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون لاحدى وعشرين ليلة خلت والكتّاب على غير هذا"[٧].

---

[١] ابن درستويه، كتاب الكتّاب: ١٤٩ والصولي، أدب الكتّاب: ١٨٠.

[٢] انظر الصولي، ادب الكتّاب: ١٨١ وابن درستويه، كتاب الكتّاب: ١٤٣ — ١٤٤.

[٣] ابن درستويه، كتاب الكتّاب: ١٤٥.

[٤] المصدر السابق: ١٤٥.

[٥] ابن المدبر، الرسالة العذراء: ٣٦.

[٦] الصولي، أدب الكتّاب: ١٨٣.

[٧] المصدر السابق: ١٨٣.

ويفسّر ابن المدبر ذلك "بأن تاريخ الكتّاب ليس من الاحكام في شيء وما على الكاتب ان يكتب الا بما ظهر وتبين لا بما يظن"[١]. الا ان اكثر ما تضاربت حوله الآراء في قواعد الكتابة مسألة النقط والاعجام والشكل في الكتب. يقول ابن المدبر:" اياك والنقط والشكل في كتابك الا ان تمر بالحرف المعضل الذى يعجز عن استخراجه ،فلأن يشكل عليّ الحرف أحبّ اليّ من ان يعاب بالاعجام. وقال المأمون: "اياكم والشونيز في كتبكم ، يعني النقط والاعجام"[٢]. ونستخلص من رأى ابن المدبر انه لا يلجأ الى النقط والاعجام لاسباب تتعلق بعلاقة الكاتب بالمخاطب، اذ ان اللجوء الى النقط والاعجام تحقير للمكتوب له من شأنه الحد من قدره ومن معرفته. ويرى الصولي مراعاة المراتب في تبني الشكل او تركه ، فاذا كان المخاطب اجل من صاحب الكتابة ترك الشكل حتى في الالفاظ التي يمكن ان تلتبس على القارىء ، اما اذا كان المخاطَب اجلّ من المخاطِب فان احتمال اللجوء الى الشكل والاعجام يصبح واردا لانه يجرى مجرى الزيادة في الايضاح له ، ونفي الارتياب عنه ، وايجاب الحجّة عليه. لكن الأحسن الاّ يستعان بالشكل والاعجام عامة وذلك لانهما معنيان باحترام منزلة المخاطب وليس بطلب الوضوح في الرسالة. اما رأى ابن درستويه فمختلف، اذ يرى ضرورة استخدام النقط لا سيما بالنسبة للحروف التي "في حال الاتصال" كالفاء والقاف والنون والياء"، ويستغنى عن نقط هذه الحروف في حال انفرادها ، "فمن نقط هذه في حال انفرادها وانقطاعها مما بعدها فقد تكلّف موضوعا عنه"[٤]. اما بالنسبة للشكل فيقول

---

[١] ابن المدبر،الرسالة العذراء :٢٧ ويدل ما ورد على لسان الصولي وابن المدبر على ان قانون الكتابة مستقل الى حد ما عن احكام الدين.

[٢] المصدر السابق: ٢٥.

[٣] الصولي ، أدب الكتّاب : ٥٧.

[٤] ابن درستويه ، كتاب الكتّاب :٩٦.

ابن دستوريه :" ومن شأن كتّاب الدواوين التخفيف واغفال الشكل من كل ما وضح ولم يلتبس كما كان ذلك شأنهم في النقط ، فاذا ألبست الكلمة او الحرف فتقييدها لازم على جميع المذاهب "[١].

ومن الموضوعات التي تعرض لها قانون الكتابة الخط ، ويتطلب جماله سلامة اليد ، اذ ينبغي ان يحافظ الكاتب او الخطّاط على مرونة يده " ... فلا يباشر شيئا ... من رفع او وضع خاصة اذا كان ذلك الشيء ثقيلا ..."[٢] ، كما ينبغي معالجة تشنج اليد بالنوم ،والعدول عن الكتابة في تلك الاوقات[٣] . ويتم بعد امتحان اليد اصلاح القلم ويتوقف ضغط اليد على القلم على الخط الذى يكتب الكاتب به وعلى تصوير الحرف ، يقول ابن درستويه : " اعلم ان من الحروف والمدّات والتعريقات ما يكتب بوجه القلم ، ومنها ما يكتب بحرفه ، ومنها ما يكتب بعرضه ، ومنها ما يكتب بسّنه . وقد رسم الكتّاب في كل ذلك رسما يعمل عليه "[٤] ، ويقول التوحيدى في هذا الصدد : "يا هذا اذا حرّفت قلمك فلا تثقل عليه يدك ، واذا قومته فلا تخففها عنه "[٥].

---

[١] المصدر السابق : ١٠١.

[٢] يقول التوحيدى (الرسالة في علم الكتابة :٣٤) :" وقال احد الكتّاب: ولقد رفعت يدى بسوطي الى الدابة مرارا في بعض الايام ومنعتها به فتغيّر خطي مدة ".

[٣] انظر المصدر السابق : ٣٥.

[٤] ابن درستويه ، كتاب الكتّاب : ١١٩.

[٥] التوحيدى ، الرسالة في علم الكتابة : ٣٣.

اما الخطوط فكثيرة متنوعة ، يميز ابن درستويه بين الثقيل والخفيف[١]. واشهر الخطوط هو الخط الرّشاشي الذى كانت تتم فيه المراسلة بين السلطان ورعاياه او بينه وبين الملوك وشرطه في جمع الحروف وتباعد السطور[٢]. وكان يستخدم لكتابة المؤامرات خط يسمّى بقلم المؤامرات كان يكتب به الوزراء للامام اما خط السجلات فهو بالنسبة للبطليوسي خط الثلثين المنحدر عن الجليل[٣]، وهو الخط الذى يكتب به الورّاقون، وهو مختلف كليا عن خط المحرّرين.

وينبغي في تحرير الكتب الالتزام بالروية والصبر لكي يحسن الخط، وقد قال علي ابن زيد النصراني الكاتب: "اعلمك الخط في كلمة واحدة لا تكتبن حرفا حتى تستفرغ في مجهودك في كتابة الحرف المبدوّ به ، وتجعل في نفسك انك لا تكتب غيره حتى لا تعجّل عنه الى غيره"[٤].

ويميّز ابن درستويه اصول الخط المتبعة بالنسبة لبعض الحروف دون غيرها وهذه الاصول هي اولا المطّ (او المد)، وتصحّ في الكلمات التي على أربعة احرف... واقبح المد ما كان في كلمة على اقل من

---

[١] انظر ابن درستويه ، كتاب الكتّاب : ١٢٠.

[٢] يقول البطليوسي (الاقتضاب :٨٨):" اخذ ابراهيم بن السنجرى الخط الجليل عن اسحاق بن حماد واخترع منه خطا اخفّ منه فسمّاه الثلثين... ثم اخترع قلما اخف من الثلثين وسمّاه الثلث ... وكان يوسف بن المغيّس اذا اخذ عن اسحاق الخط الجليل اخترع منه قلما آخر اهول من الجليل تاما مفرط التمام مفتحا فاعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل وامر الكتّاب الا يحرروا الكتب الا به وسماه الرشاشي". ويقول الجهشيارى(الوزراء :٣٠٦) :"كان ذو الرياستين يقول لكتّابه :قاربوا بين الحروف لئلا يسافر البصر سفرا بعيدا في حروف قليلة".

[٣] انظر البطليوسي ، المصدر السابق: ٨٨.

[٤] ابن درستويه ، كتاب الكتّاب : ١٢١.

أربعة أحرف . ولا يجوز ذلك الا عند الضرورة لتتمة سطر او نحو ذلك ... ومن بنات الثلاثة ما يجوز مده ، ومن ذوات الاربعة ما يقبح مدّه ..."[١] وبالاضافة الى المد هنالك التعريق ، ويخص حرف الياء[٢] . واما الادغام اى ادغام حرفين سوية :" فمما يحسن ادغامه السين في حسن ، سمج ،والهاء في مثل هما ، والهيهما وبينهم ، ونحو ذلك"[٣] . ويضيف ابو حيان التوحيدى الى هذه الاصول نوعا آخر هو الخط المدلّى بالتجويف ويكمن في اقامة الحاء ، والخاء ، والجيم ، وما اشبهها على تبييض اوساطها[٤] .

وتراعي بالنسبة للكتاب اجمالا حسب قول ابن درستويه "تسوية جنبتي الكتاب، وحواشيه ، وتوسيخ فصوله ، والمطّ في أول كل فصل فيه ، وفي آخره مطّة ..." ، ومما تعدل به السطور ان تجعل اعلى الفاتها ،ولاماتها ، وكافاتها ، المنتصبة ، وطاءاتها متآزية على مقدار واحد غير متفاضلة الرؤوس وتجعل اسافل الحروف المعرّقة كالصادات والسينات والنونات والياءات بمقدار واحد ..."[٥] وينتهي اخراج الكتاب، بعد الفراغ من تحريره ، بسحايته ، وينبغي الا تكون غليظة الا في العهود ، والسجلات، كذلك لا ينبغي ان تعظم الطينة التي فيها يكون الختم.[٦]

---

[١] ابن درستويه ، كتاب الكتّاب : ١٢١.

[٢] انظر المصدر السابق: ١٢٢ — ١٢٣.

[٣] المصدر السابق: ١٢٣.

[٤] التوحيدى، الرسالة في علم الكتابة : ٣٣.

[٥] ابن درستويه ، كتاب الكتّاب : ١٢٦.

[٦] انظر ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٧.

ومن اللافت للانتباه ان كتب الكتّاب تشير الى الحيلة التي يفيد منها هؤلاء الكتّاب فيتمكنون من ان يفلتوا من الرقابة ، يقول الصولي :"كان مشايخ الكتّاب وزهاد العمال يختارون ان يكون الذى يرفعونه عن جماعاتهم الى دواوين السلطان بخط غير جيّد ومداد غير حالك ، في صحف مظلمة ليثقل على من يرد عليه من المتصفحين فيعدل عنها الى غيرها[1]. هذه الحيلة هي الطمس . لكن حيلة الكاتب قد تأخذ شكلا آخر مناقضا للأول وان لتفي بالغرض ذاته وهذا الشكل هو تحسين الخط وتنميقه بحيث يدعو الناظر اليه الى ان يقرأه وان اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول فيكون الطمس في اخفاء المعنى على ان يجمّل الخط. وفي كلتا الحالتين يتوخى الكاتب الابهام في المعنى[2] . اما الحيلة الاخرى فتكون بتغيير الخط في الكتابة لان التحقيق الذى كان يجرى بشأن الوثائق لمعرفة الصحيح من المزوّر كان اول ما يدقق في الخط ليتبين صاحب الرقعة فيكون الخط هو الذى يفضح الكاتب، وهذا ما يسمى بِنُشْب الخّط ، يقول الصولي :" وقد عجبت من بعض الكتّاب قال : ادعى رجل من الحاق الانساب، بالآثار والاشباه . فقال له قائل : اعجب والله من هذا ما يبلغنا من تمييزهم الخطوط والحاق كل خط بصاحبه ، أو ما ترى العازم على خيانة ، او دفع حق ، يغيّر خطه حتى اذا جحد لم ينسب اليه "[3] . ولقد كان من شأن شيوع التزوير بتغيير الخط ان نشأ علم الحاق الخطوط باصحابها ويتم بان يحضر الرجل المتّهم ، ويطلب منه الكتابة امام الوزير للتمييز بين خط الرقعة وخطه ، يقول الصولي واصفا حادثة كهذه :" املى الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب على الرجل (المتّهم) كتابا طويلا ردد فيه مثل الحروف التي في رقعته فتبين لسليمان ان الخط خطه ، وانه صنع في كتاب الرقعة ، ولم يكتب

---

[1] الصولي ، أدب الكتّاب : ٤٢.

[2] المصدر السابق : ٤٢.

[3] المصدر السابق : ٤٣.

على طبعه ... فحكم عليه سليمان فاعترف الرجل بالخط... فقيل لسليمان كيف وقفت على ذلك فقال: انه يصنع في الرقعة كلها الاّ في احرف قذفتها سجيته "[1]. وتميز هذه الرواية بين خط الطبع وخط الصنعة وهذا الأخير ابعد ما يكون عن الطبع. والخط ـ صنعة ـ اشبه ما يكون في عصرنا بالكتابة على الآلة الكاتبة، لان الغرض منه هو تجريد الكتابة عن شخصية الكاتب. وتتضمّن محاولات الافلات من التحقيق، وتسريب المعلومات السرية للغاية، استحداث "شفرة" معينة خاصة بالمتكاتبين، قد تتخذ هذه شكل الاستعارة وقد اعطى الجهشياري مثلا على ذلك تنصيب يوسف بن عمر والي اليمن على العراق وخلع خالد بن عبد الله القسري وذلك بامر الخليفة هشام بن عبد الملك فقد بعث كاتب الى احد عمال خالد في العراق كتابا يقول فيه: "ان القوم قد بدا لهم في البعثة اليك بالثوب اليماني"[2]. وتم بهذه الوسيلة ابلاغ خالد مع ضمانة سلامة الكاتب.

ويشير الصولي الى اسلوب في المكاتبة يكون في استخدام ابجدية "رمزية" معينة ـ اذا صح التعبير ـ جعلها الصولي على منازل القمر التي تسبق استتاره واستهلاله. اول هذه المنازل: "الشرطين" وهي معادلة للهمزة، ثم البطين المعادل للباء، والثريا للجيم، وما الى ذلك[3]. غير ان ابن المدبر يرى ان هناك وسيلة افضل لتضمين الاسرار يقول: "ألطف من ذلك (اى من استخدام الابجدية) ان تأخذ لبنا حليبا فتكتب به في قرطاس، فيذر المكتوب اليه عليه رمادا من رماد القرطاس فانه يظهر... وان احببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة"[4].

---

[1] المصدر السابق: ٤٤.

[2] الجهشياري، الوزراء: ٦٣.

[3] انظر الصولي، أدب الكتّاب: ١٨٦ ـ ١٨٧.

[4] ابن المدبر، الرسالة العذراء: ٢٨ ـ ٢٩.

يبقى هنالك موضوع لم يتطرق اليه بعض المؤلفين وذلك تجنبا لمبادرة تستكره للكاتب، يمتنع ابن المدبر مثلا عن ذكر كيفية فض الكتب ونزع الطين عنها على ان يتم تطييبنها بعد ذلك بحيث لا يشعر احد انه قد تم الاطلاع عليها. يقول ابن المدبر: " واما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض خواتمها، فما لا نذكره خوفا من سفيه "[1].

هذه هي الخطوط العامة (والقواعد) الخاصة بصناعة الكتابة وقد اوردناها بشكل موجز. تكمن سمة هذه القواعد في انها تنقل من كاتب لآخر وانها تحفظ وقد وضعت لهذا الغرض بالذات. تم تحديد هذه القوانين احيانا بصورة سلبية اى على سبيل ذكر ما لا يستحسن ذكره او كتابته في الكتاب كاجتلاب الشعر مثلا اذا كان لغير الكاتب[2]. وقد تم تحديد الكتابة احيانا بذكر ما تختلف فيه عن الشعر[3].

ولا بد بعد الفراغ من اخراج الكتاب اجمالا من التطرق الى مضمون الكتاب ويتضمن البحث في صفات للكتابة تسهم في ابتداع نوع ادبي خاص بالكتّاب. ان الكاتب يرغب في السيطرة على الوسائل اللغوية التي تمكنه فى التصرف بها والابداع في ميادينها، وقد حاول الكتاب الالتزام بمعيارية لغوية معينة

---

[1] المصدر السابق: ٢٨.

[2] يقول ابن المدبر (الرسالة العذراء :٧-٨): " ان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب الا ان يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ".

[3] " لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر " (المصدر السابق:١٩).

[4] يقول ابن المدبر (المصدر السابق: ٣٤): " فان منيت بحب الكتابة وصناعتها والبلاغة وتأليفها وجاش صدرك بشعر معقود، اودعتك نفسك الى تأليف الكلام المنثور وتهيأ لك نظم هو عندك معتدل، فلا تدعون الثقة بنفسك والعجب بتأليفك ان تهجم به على اهل الصناعة... ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ...".

مكنتهم من الحفاظ على نمط معين من البلاغة . ولن نخوض في بحثنا هذا في مسألة البلاغة لانها قضية معقدة تتطلب بحثا مستقلا ونكتفي بالاشارة الى ان الكتّاب كانوا يتوخون البلاغة في الكتابة وذلك قبل ان تنشأ في الدواوين مدرسة التصنيع الادبية . وننتقل بعد هذه الاشارة الى موضوع اخلاق الكاتب الذى هو من صلب بحثنا .

III — سلوك الكاتب واخلاقه

لا يتناول قانون الكتابة الامور المتعلقة باخراج الكتب وحسب، ولا يقف عند هذا الحد من علاقة الكاتب بآلته وبموضوع صناعته . ان هذا القانون شامل بحيث عالج عددا من الامور التي تخص الكاتب بصورة او باخرى، بما فيها جسده وسلوكه . يضبط سلوك الكاتب رغبة بزيادة كفايته "ومهارته" اى "اناقته" ، ونعني بالمهارة استخدام آلة الكتابة على اكمل وجه ، والقيام بما تتطلبه من حركات انيقة مهما استغرقت هذه الحركات من وقت . لهذا السبب بالذات اطلق على الكتابة عبارة "صناعة الكتابة" . نحن هنا بازاء صناعة معينة في نطاق مشغل، او محترف ، يتطلب من الصانع فيه درجة معينة من الحذق والمهارة . لكن المهارة ليست هنا تعبيرا عن علاقة الكاتب بآلته وحسب، بل انها مرتبطة بطرف آخر — قد يكون الخليفة او احد جلسائه — يستطيع ان يعترف للكاتب بالمهارة او ان يعيّره بعدمها .

وتدخل المهارة في مفهوم المروءة التي هي فضيلة هامة للكاتب بشكل خاص، اذ يقول ابن المدبر مخاطبا الكاتب :" واجعل لقلمك برايه حادة ، فان تعثّر يد الكاتب وقت قطع القرطاس، ناقص مروءته ، ومخل بظرفه . وان قدرت الا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابتك الاّ بخرطوم قلمك، فافعل، فان ذلك اكمل لمروءتك، وابدع لظرفك

وقطعك"[1]. ويعبّر ابن المدبر عن كيفية قطع القرطاس باناقة وذلك مراعاة لنظر صاحب السلطان فيذكر ان ذلك يتطلب من الكاتب تدريبا على معالجة آلته بحيث يكون مستعدا لاداء عرضه امام الخليفة ، فانه قد يستدعى للخضوع للامتحان في اية لحظة.

وينبغي ان تساعد الآلة الكاتب على اظهار مهارته واناقته وتسهيل مهمته الكتابية ، يقول الصولي عن الدواة :" ينبغي ان يكون عليها من الحلية اخف ما يتهيّأ ان يتحلى الدوّى بها من وشاقة ولطف صنعة ، ليأمن ان تنكسر او تنفصم عروة في مجلس رياسة او مقام محنة"[2]. ويصف الصابيء الكتابة في حضرة الخليفة قائلا:" متى اراد الوزير ان يكتب شيئا بحضرة الخليفة ، اذا امره به ، فقد كانت العادة جارية بان يكون في خفّ الوزير او الكاتب دواة لطيفة بسلسلة ودرج ومطينة فيها اساجي وطين ، فاذا اراد ان يكتب، علق الدواة في يده اليسرى و أمسك الدّرج بيده اليمنى ، واذا فرغ اصلح الكتاب وأسحاه ، ووضع الطين عليه وختمه وأنفذه"[3].

هذه هي مراحل اخراج الكتاب وتتم جميعا على مرأى من الخليفة في مجلسه ، وينبغي على الكاتب او الوزير ان يكون عارفا تمام المعرفة بما يتطلبه اخراج الكتاب لكي لا يكون مضطرا الى الاستعانة بكاتب آخر من اجل السحاية ، وبآخر للتطيين ، وغيرهما. ان اظهار العجز عن القيام بصغير الامور وكبيرها يخل بسمعة الكاتب ويشير الى النقص في معرفته ،وهو بغنى عن كليهما. ان عدم قيام الوزير ببعض الامور التي تعتبر مهينة لا ينبغي ان يكون عن عجز

---

[1] ابن المدبر ، الرسالة العذراء :٢٣ ، وينبغي ان تفهم عبارة "مروءة" الواردة في النص على انها مختلفة عن المعنى الذى اعطي لها في العصر الجاهلي فهي لا تعني الشجاعة والنخوة وغيرهما من صفات الفتى الجاهلي بل اللياقة والاناقة.

[2] الصولي ، أدب الكتاب : ٩٦.

[3] الصابيء ، رسوم : ٦٦.

عن ترفع [1]، وقد يحسن الظليفة التمييز بين هذا وذاك.

ان آلة الكاتب واصلاحه لها يدلّان على اخلاقه. فلا يكفي مثلا ان يكون الكاتب متواضعا، بل ينبغي ان تشير بساطة آلته الى تواضعه، يقول الصولي مثلا متحدثا عن الدواة: "ينبغي ان تكون الحلية (اى حلية الدواة) ساذجة، لا حفر ولا ثبات فتحمل القذى والدنس، ولا نقش عليها ولا صورة، لان ذلك من زى اهل التوضّع، لا سيما في آلة يستعان بها على مثل هذه الصناعة الجليلة المستولية على تدبير المملكة. وان أحرقت الفضة حتى يكون سوادها اكثر من بياضها فان ذلك احسن وابلغ في السرو واشبه بقدر من لا يتكثّر بالذهب والفضة" [2]. ان على الكاتب ان يعمل على اقناع السلطان بتواضعه وقناعته ونرى الصولي متحفظا في مسألة استخدام الكاتب للمرفع، والمرفع آلة ترفع بها الدواة عن الارض، يقول:" قال بعض الكتّاب، المرفع ضرب من الكبر وفضيلة من الآلة، وتركّه مفرط لا يليق بذوى التقدّم في العمل، والصبر عليه، والتجرد له، وما يسرع عليه الا كلّ ذى نخوة ورياسة محدثة، وهو احسن في مجالس الخلوات منه في الجماعات ... واذا عجز الكاتب عن الاستمداد من الدواة عن الارض فيغنم رفعها الى يده بهذه الآلة وتقريب متناولها فهو عمّا سوى ذلك من تمشية الاعمال وتنفيذ الامور أعجز" [3]. ان لاستخدام المرفع اذن — في نظر الصولي — سيئتين: الاولى الاشارة الى الترّف، والثانية الاشارة الى العجز، وكلاهما من الامور المستكرهة لدى صاحب السلطان. وتشير الرواية بوضوح

---

[1] انظر الصولي، أدب الكتّاب: ٢٦.

[2] الصولي، أدب الكتّاب: ٩٦.

[3] المصدر السابق: ١١١.

الى ان كتابة الكتب في حضرة الخليفة هي غير كتابتها بمنأى عنه .

وكما ان الآلة ناطقة بتواضع الكاتب او ترفهه وبحذاقته او عجزه ، فان سلوكه العام بمعزل عن آلته ينطق بالشيء ذاته . ان ضبط سلوك الكاتب يتعدّى دائرة معالجة الآلة في الكتابة الى الالتزام بمبدأ اللياقة عامة بمجرد ان يكون الكاتب في حضرة الخليفة . يتناول مفهوم اللياقة ضبط النظر والحركة يقول الصابيء :" وسبيله (اى الكاتب) ان يقلّ الالتفات الى جانبيه ووراءه والتحريك ليده ، او شيء من اعضائه ... وان يغضّ طرفه عن كل مرأى الا شخص الخليفة وحده ... والاّ يسار احدا في مجلسه ، ولا يشير اليه بيده ولا عينيه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتابا يوصلان بين يديه الا ما احتاج الى قراءته عليه ، وأذن له فيه ، ولا يخاطب من يخاطبه في تعرّف امر منه ، او اقامة حجة عليه ، الا بأخذ الالفاظ وأشدّ الاستيفاء "[1] . وينبغي على الكاتب كذلك خفض صوته في الحديث وتجنب السعال والعطاس والبصاق والاكل والشرب ليكون "جسما صدى لا يخرج منه شيء ... ولا يدخل اليه شيء " ... وان يجعل وقوفه من اول مدخله الى حين مخرجه في موضع رتبته ، من غير ان يتجاوزه الى ما فوقه او دونه ... واذا خرج وهو يشاهده ، جعل خروجه تراجعا الى وراءه لئلا يوليه ظهره ، فاذا غاب عن طرفه استقام في مشيه "[2] .

ويخضع مظهر الكاتب الخارجي ايضا — بحسب قول ابن المدبر — لشروط معينة : وقد شرط الحكماء في صفات الكاتب "طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفه اللّهازم[3] ، وكثافة اللحية ... ومن كمال آلة الكاتب ان يكون بيّن الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، ... ولا يكون مع ذلك فضفاض الجشة ، متفاوت الاجزاء ، طويل اللحية،

---

[1] الصابيء ، رسوم : ٣٥.

[2] المصدر السابق : ٣٤ — ٣٥.

[3] اللهازم : عظم ناتيء تحت الاذنين (انظر ابن المدبر ، الرسالة العذراء : ٨).

عظيم المهامة ، فانهم زعموا ان هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة"[١] ان مظهر الكاتب ينطق بذكائه كما ان آلته تنطق بتواضعه . ولمراعاة اصول اللياقة على المرء"... ان يجعل بين ثيابه شتاء صيفا جبة فيها قطن يمنع ظهور العرق وان يواصل السواك"[٢] .

اما الكلام فهو اخطر الامور واصعبها ضبطا ولا ينبغي ان يبادر احد الى الكلام الا اذا سأله الخليفة ذلك او اذن له به[٣] . كذلك ينبغي حسب تصور ابن قتيبة :" ان يجانب المرء شنيع الكلام ورفث المزح"[٤] . وتكمن حصافة الكاتب في احسانه تمييز المواقع التي يصلح فيها الكلام من تلك التي يصلح فيها الصمت : غير ان الصمت محمود اكثر من الكلام ، يقول الصابيء : "واحتمل هجنة العيّ في هذا المقام ، فانها هجنة مأمونة ، وان لم تكن على الحلم محمولة لم تكن الى العجز معدولة"[٥] . ولا بد ان يعمل المرء الرويّة قبل القول ، يقول الصابيء: "... واحذر زلات قولك وفلتاته ، وعاص ما يمتلك من شهواته ولذاته ، واجعل جوابك عما تراعي قواعده وتخاف بوائقه ، اشارة لا افصاحا ، وتعليلا لا اغراقا..."[٦] ويضيف الصابيء محددا طبيعة مخاطبة السلطان :" ودع الشكوى فانها ثقيلة على السلطان ، والالماح فانه من اكبر دواعي الحرمان"[٧] .

---

[١] المصدر السابق : ٨ — ٩ .

[٢] الصابيء ، رسوم : ٣٣.

[٣] المصدر السابق : ٣٣ وانظر حول سلوك المستشار زبال ، تكوّن : ٧٢.

[٤] ابن قتيبة ،ادب الكاتب(تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،الطبعة الثالثة ،مصر ،١٩٥٨)١١. ويقول الصابيء (رسوم :٨٨) :"واحذر ان يوردك موارد المزح الى ما يغيظ السلطان منك" .

[٥] الصابيء ، رسوم : ٨٨.

[٦] المصدر السابق : ٨٧ — ٨٨.

[٧] المصدر السابق : ٨٨.

وليس الكلام الذى يصدر في حضرة الخليفة موضوع ضبط من حيث تأويل المعنى وحسب بل من حيث الشكل ايضا. فلا ينبغي ان يلحن احد في حضرة الخليفة لان ذلك يسيء الى المتكلم، وهو اما ان يؤوله على انه استهتار بمعرفة الخليفة، اما على انه جهل من جانب الكاتب بيد ان العكس لا يجوز. فالخليفة قد يلحن احيانا، وقد يخطيء في انشاد الشعر او رواية الحديث، ولكن من العار ان يؤخذ ذلك عليه جهرا، وان استحسن ان يشير اليه بلباقة من طرف خفي، يقول الصابيء :" وان اتفق السلطان ان يقول قولا ملحونا، او يروى حديثا مرفوعا، او ينشد شعرا مكسورا، لم يكن لمن يحضر مجلسه ... ان يرد ذلك مواجها ومصرّحا، بل يعرّض به مشيرا وملوّحا، ويورد فيه من النظائر والاشكال ما يكون طريقا الى معرفة الصواب "[1]. فتدخل الكاتب يتم اذن بمنتهى اللطف والتهذيب ليعيد الى صاحب السلطان مكانته والى اللغة والحديث والشعر سلامتها.

اما التصحيف فهو من الامور التي يستكره حدوثها كذلك في مجلس الخليفة، ويصحّف الكاتب عادة عند قراءة الكتب الخالية من النقط والاعجام، وغالبا ما يجرّ التصحيف العار على المصحّف يقول الصولي : "وقع من الكتّاب تصحيف في كثير مما قرأوه في مجالس الخلفاء حتى أحصيت عليهم غلطات سقطوا بها في عصرهم، وبقي عارهم عليها"[2].

يقوم سلوك الكاتب - بحسب الامثلة السابقة - على مبدأ الاحتراس لان اعداءه على اهبة الاستعداد ليعيروه باصغر هفوة تصدر عنه. ان عدم الالتزام باصول اللياقة يعرّض الكاتب لانتقام من يسعى به لدى الخليفة. والخوف من

---

[1] الصابيء ، رسوم : ٥٢.

[2] الصولي ، أدب الكتّاب: ٥٨. والتصحيف هو رواية الخطأ عن قراءة الصحف باشباه الحروف. انظر لسان العرب (صحف).

الواشي والساعي هو الذى يحث الكاتب على استصلاح آلته ، وضبط سلوكه ، وكلامه ، ووضعيته اجمالا. وتقع على الكاتب مسؤولية سدّ جميع المنافذ الذى يمكن ان تشكّل مدخلا للسعي به ، او للحطّ من منزلته ، بمبادرة من اعدائه .

هذا الصراع القائم بين الكتّاب مردّه الى رغبة الكاتب في زيادة نفوذه على حساب غيره بلجوئه الى الحيلة ، كما سبق ان رأينا في الفصل الثاني. وفي كتاب الأدب الكبير مقاطع عن علاقة المتولّين اعمالا للسلطان ، بمن فيهم الكتّاب بعضهم ببعض ووصف للسلوك الذى ينبغي ان يكون عليه هؤلاء وهذه العلاقة هي علاقة التآخي كما يسمّيها كتاب الأدب الكبير لكنها اشبه بعلاقة الأقران المتنافسين [1] اذ يقوم التآخي على مبدأ اللياقة والتهذيب اكثر مما يقوم على مبدأ الحب والصراحة. يبحث المرء حسب كتاب الادب الكبير عن الصديق ليس لحاجة الى التواصل وبحثا عن عاطفة معينة بل سبيلا الى اتقاء شر العزلة ، يقول:" ... اعلم ان انقباضك عن الناس يكسبك العدواة وان تفرسك لهم يكسبك صديق السوء "[2]. ان مفهوم الصداقة هذا وطريقة السلوك قد اثارا حفيظة ابي حيان التوحيدى في كتابة عن الصداقة اذ ان الصداقة بالنسبة له لا يمكن ان تقوم على مبدأ الرغبة والرهبة ، " واما الكتّاب وأهل العلم فانهم اذا خلوا من التنافس والتحاسد...فربما صحت لهم صداقة وظهر منهم الوفاء وذلك قليل"[3]. والواقع ان اصلاح الذات ومناشدة المتولي اعمالا للسلطان التحلي

---

[1] انظر الادب الكبير :٧٦.

[2] انظر الادب الكبير: ٧٨.

[3] التوحيدى، كتاب الصداقة والصديق(شرح وتعليق على متولي صلاح ،مكتبة الآداب، مصر، ١٩٧٢)٦٤؛ ويشير مسكويه في كتاب الهوامل والشوامل (تحقيق احمد امين واحمد صقر، القاهرة ١٩٥١: ٧٠) الى التحاسد بين اصحاب المنزلة الواحدة في قوله : "معظم السبب في ذلك الحسد الذى يعترى اكثر الناس، لا سيما اذا كان المحسود قريب المنزلة من الحاسد".

باخلاقية معينة يدخل حسب الادب الكبير في اطار الاحتراس وليس في الالتزام بمثال اخلاقي معين، يقول الكتاب:" واعلم انه قلما بدء احد بشيء يعرفه من نفسه، وقد كان يطمع في اخفائه عن الناس، فيعيّره به معيّر عند السلطان او غيره، الاّ كاد يشهد عليه وجهه وعيناه ولسانه، للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون في انكساره وفتوره عند تلك البداهة"[1]. ان خوف الانسان من ظهور نفسيته على حقيقتها هو الذي يحثه على اصلاح ذاته وليس مثالية اخلاقية معينة. وقد يكون الاشكال الذي يقع حول موضوع اخلاق الكتّاب هو الذي يفسّر عدم معالجة ابن المدبر مثلا له وعدم تطرق الصولي اليه في كتاب "ادب الكتّاب" واشارة عبد الحميد اليه بصورة عامة في رسالته[2]. اما الجاحظ فقد ورد في رسالته في ذم اخلاق الكتّاب ما يدل على انحطاط اخلاق هذه الطبقة ونفور الجاحظ منها لهذا السبب ويظهر هذا الانحطاط ـ حسب الجاحظ ـ في محاولة الكاتب الايقاع بنظيره وفي علة "الشّرة" القائمة في فئة الكتّاب عامة اى الرغبة الشديدة في كسب الاموال بشتى الطرق وعدم القناعة[3]. لكن الظاهر ان الجاحظ كتب رسالة اخرى في مدح اخلاق الكتّاب ولم تصلنا هذه الرسالة[4]، كما ان رسالته في ذم اخلاق الكتّاب هي ردّ على رسالة اخرى كتبها احدهم في مدح الكتّاب مما يشير الى تباين الآراء بالنسبة لاخلاق هذه الطبقة. اما ابن قتيبة فقد تكلّم عن ضرورة ان يؤدب الكاتب نفسه في قوله :" نحن نحب لمن قبل عنا واشتم بكتبنا ان يؤدب نفسه قبل ان يؤدب لسانه ،ويهذب اخلاقه قبل ان يهذب الفاظه .ويصون مروءته عن

---

[1] الادب الكبير: ٨٩.

[2] انظر الجهشياري،الوزراء : ٧٤ ـ ٧٥.

[3] انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢ :٢٠٤.

[4] لقد اورد ابن المدبر جملة من هذه الرسالة في قوله :"قال الجاحظ: ما رأيت قوما امثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتّاب، فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا..." (الرسالة العذراء : ٣٥).

دناءة الغيبة ، وصناعته عن شين الكذب"[1]. لكن ابن قتيبة لا يتكلم عن واقع اخلاق الكتاب كما انه لم يتناول باسهاب هذا الموضوع بل انه اكتفى بالاشارة اليه بصورة عابرة.

ان وضع معايير اخلاقية تحرّم الكذب والنميمة بصورة فعالة لا يمكن ان تتحقق في حقل الصراع على النفوذ المحتدم ، والقائم في فئة الكتّاب، والذى يستمر بصورة مستترة في حضرة الخليفة.

ان اللياقة التي هي طريقة سلوك الكاتب اشبه بالسلوك الدبلوماسي منه بالمثال الاخلاقي والعاطفة الصادقة[2]. وهذه اللياقة خاصة بالكتاب ربما اكثر من سواهم وبها يتميزون عن الخدم مثلا الذين غالبا ما يكون سلوكهم بعيدا عن المروءة ، والى ذلك يشير الجهشيارى في رواية شديدة الدلالة حيث يقول:" كان الفضل والحسن ابنا سهل — والمأمون ولي العهد — عند بعض الخدم المتقلدين للاعمال في ايام الرشيد ، وانه دخل على الخادم فتى كان يلي له شيئا فلما رآه ضحك ، ثم قال له : هذه مشية تعلمتها بعدك. فانظر أهي أحسن ام ما كنت أمشي حتى انتقل عنها ثم غيّر مشيته وجاء فجلس واتى برعونات كثيرة ، فلم يزل الخادم يحتال له ، حتى خرج ، ثم قال لهما : ان بعض الناس يحب ان يظهر خاصية ليست له . فلما خرجا من عنده ، قال الحسن للفضل: تعذب نفسك ثلاثين سنة من ذى قبل ، بالصيانة والمروءة وطلب الادب، ومثل هذا يلي الاعمال "[3]. وهذه الرواية تدور في عصر الرشيد بعد نكبة البرامكة واستعانته لتصريف اعماله بغير الكتاب وتعيينه

---

[1] انظر ابن قتيبة ، ادب الكاتب:١١ ، والغيبة اغتياب الرجل صاحبه ليوقع به "وأن يتكلم الرجل خلف انسان مستور بسوء او بما يغمه لو سمعه ان كان فيه ، فاذا كان صدقا فهو غيبة او ان كان كذبا فهو البهت والبهتان." انظر لسان العرب (غيب).

[2] انظر زيبال ، تكوّن: ٧١.

[3] الجهشيارى، الوزراء : ٢٨٠ — ٢٨١.

الخدم في المناصب الادارية [1] وهؤلاء الخدم لم يتحلوا باللياقة والمروءة والادب بل كانت اخلاقهم مغايرة لاخلاق الكتّاب وقد اشار تصرفهم حفيظة الحسن والفضل الكاتبين.

وليس للكاتب كذلك اذا اتبع — اصول اللياقة والمروءة — ان يقبل على الملذات، بل عليه ان يراعي شهواته ، ويحدد ابن المقفع ضرورة الابتعاد عن النساء :" واعلم ان من اوقع الامور في الدين، وانهكها للجسد واتلفها للمال، واضرّها بالعقل، وازراها للمروءة ، واسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء" [2]. ان اللهو والصيد وحبّ الشراب والعشق من صفات الشعراء وليس الكتّاب [3] ، وان تحلّوا بها احيانا. ويورد الجهشياري رواية في هذا الصدد ، تدور حول كاتب يتحلّى بهذه الصفات ، هو علي بن ابي كبير، كاتب موسى بن ابي الزرقاء على فارس، وكان شاعرا طريفا صاحب شراب ولهو ، وقد قال مخاطبا صاحبه :" فهل شربت — اصلحك الله — شرابا قط ، حتى لانت اعطافك ، وسخت نفسك ، وحبّب اليك جلساؤك ؟ قال: لا والله ؟ قال: فهل خرجت في صيد فبادرت اصحابك الى طريدتك ، ووثبت عن دابتك ، وتوليت ذبحها بيدك ؟ قال: لا والله ؟ قال: فهل عشقت حتى ارسلت وكاتبت، ووعدت وتوقعت ؟ قال: لا والله ،قال: فوالله ما ذقت لذة العيش

---

[1] يقول الجهشياري(المصدر السابق :٢٦٥) :"وذكر الفضل بن مروان ان امور البريد والاخبار في أيام الرشيد كانت مهملة وان مسرورا الخادم كان يتقلد البريد والخرائط، ويخلفه عليه شابت الخادم. قال: فحدثني شابت: ان الرشيد توفي وعندهم اربعة آلاف خريطة لم تفضّ".

[2] الادب الكبير :٨٩. وحول صحة نسب الكتاب لابن المقفع انظر مقال احسان عباس السابق ذكره في مجلة مجمع اللغة العربية في :٢-٦.

[3] لكن هذا لا يعني ان اللذات منسوخة من حياة الكاتب وقد ورد في الادب الصغير: "وعلى العاقل الا يكون راغبا الا في احدى ثلاث خصال: تزوّد لمعاد ، او مرمّة لمعاش، او لذّة في غير حرام".

قطّ، ولا تفلح ابدا"[١] ليس هذا الكاتب رغم صنعته ممن تنتمي اخلاقه الى اخلاق الكتّاب.

غير ان عدم اقبال الكاتب على الملذات لا يعني مطلقا زهدا في الحياة، وان عنى عفة ورصانة. لاتتفق صناعة الكتابة مع الزهد واذا احسّ الكاتب انه راغب عن الدنيا، ينبغي ان يتحقق من ذلك قبل ان يتخذ قرارا نهائيا وقد ورد في كتاب الادب الصغير قول يخاطب فيه الكاتب المتولين لاعمال السلطان ومن بينهم الكتّاب قائلا: "ان رأيت نفسك تصاغرت اليها الدنيا اودعتك الى الزهادة فيها على حال تعذّر منها عليك، فلا يغرّنك ذلك من نفسك على تلك الحال، فانها ليست بزهادة، ولكنها ضجر واستخذاء، وتغيّر نفس عندما اعجزك من الدنيا، ... ولكن اذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك، فاسرع الى اجابتها"[٢] وامّا الفقر، فانه كالزهد لايتفق مع المروءة. ويقول صاحب الادب الصغير:" والفقر داعية الى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة، ومذهبة للعلم، والادب، ومعدن للتهمة، ومجمعة للبلايا"[٣]. فاذا كان التواضع مستحبا فان الفقر في نظر صاحب الادب الصغير — مستكره لانه يذهب بالفضائل الاخرى، يقول: "وليس خلّة هي للغني مدح الا هي للفقير عيبا"[٤].

اما الشجاعة فهي ليست من اخلاق الكتّاب ابدا بل من اخلاق الجندية وهي مستكرهة لدى الكتّاب، كما يقول الصابيء:" وما شيء اقبح بذي قلم من تعاطي الشجاعة والتخلق باخلاق الجندية وقد حكي انّ عبيد الله بن سليمان[٥] كان واقفا بحضرة المعتضد

---

[١] الجهشياري، الوزراء: ٣٠٢.

[٢] الادب الكبير: ١٠٣ — ١٠٤.

[٣] الادب الصغير: ٣٤.

[٤] المصدر السابق: ٣٤.

[٥] وزر للمعتضد بالله سنة ٢٧٩ (انظر الصابيء، الوزراء: ٨ — ٢٠).

بالله ، صلوات الله عليه ، اذ افلت سبع من يدى سبّاع ، وهرب الناس من بين يديه ، وعدا عبيد الله مذعورا ، ودخل تحت سرير ، وثبت المعتضد بالله في موضعه ، فلمّا أخذ السبع وعاد عبيد الله الى حضرته قال له المعتضد : ما اضعف نفسك يا عبيد الله ... فقال له : قلبي يا امير المؤمنين قلب الكتّاب ونفسي من نفوس الاتباع لا الاصحاب، فلما خرج قال له اصحابه في ذلك، فقال لهم :... والله ما خفت السبع لانني كنت اعلم انه لا يصل اليّ ، ولكنني اعتمدت ان يرى الخليفة قصور همّتي وقصر همتي ، فيأمنني ولا يخاف غائلتي"[1]. فهذه الرواية تشير الى ان الشجاعة امر اذا تحلى بها الكاتب او الوزير به فينبغي ان يكتمه ولا يظهره .

هذه هي اخلاق الكتّاب وهي تكتسب بتهذيب النفس والتغلب عليها ، اذ انها لا تقول بترك الطبع يعمل على سجيته انما تعتمد على مبدأ التطبّع بحسب مبادئ وشروط معينة حاولت في ما مضى من هذا الفصل ان احددها .

IV — زي الكاتب

للكاتب زي خاص يميّزه عن غيره . واعتماد زي خاص يكون له هدف معين وهو قدرة الخليفة على تحديد هوية الوافد عليه مباشرة .ويشير الجهشياري الى وجود مثل هذا الامر منذ ايام الفرس، قبل الاسلام ، اذ يقول متحدثا عن ملوك فارس :" كان رسم ملوك فارس ان يلبس اهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها احد ممن في غير تلك

---

[1] الصابيء ، رسوم : ٤٨.

الطبقة ، فاذا وصل الرجل الى الملك ، عرف بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها. فكان الكتّاب جميعا في الحضر يلبسون لبستهم المعهودة. فاذا سافر الملك تزيوا بزيّ المقاتلة"[1].

ولا نعرف بالضبط متى اصبح للكتّاب في الدولة الاسلامية زيّ خاص لهم ولا نملك معلومات حول زي الكاتب في العصر الاموى، وتعود الروايات التي تدور حول زي الكاتب الى العصر العباسي الى خلافة المنصور، وكان هذا الخليفة يتطلب من الكاتب ان يكون كامل اللباس وذلك حسب ما يورده الجهشيارى في قوله :" انكر ابو جعفر (المنصور) على محمد بن جميل (صاحب الخراج) شيئا ، فامر ببطحه ، فقام بحجته ، وازال ما ادعى عليه ، فامر باقامته ، ثم لحظ سراويله ، فاذا هو كتّان ، فانكر ذلك انكارا شديدا ، وامر به فبطح ، وضربه خمس عشرة درة ، وقال : " هذا جزاؤك على سوء اختيار مثل هذه السراويل ، فلا تعاودوه "[2]. تشير هذه الرواية الى ضرورة معاينة الكاتب للبسته كما انها تشير الى ان للخليفة حق الاطلاع على لبسة الكاتب وهذه لا يجوز ان تكون مهملة. وهذه الرواية التي سبق ذكرها ، ان اشارت الى موقف الخليفة من زي الكاتب، فانها تحدد بالتفصيل طبيعة هذا الزي والقطع

---

[1] الجهشيارى ، الوزراء : ٣٠

[2] المصدر السابق : ١٣٤.

التي يتألف منها. وجلّ ما نملك من معلومات حول زي الكاتب في مطلع العصر العباسي هي انه كان مختلفا عن زي الوزير مثلا. ويتألف زي الوزير من الدرّاعة وهو ثوب مفتوح من الامام ، على مستوى القلب، تزينه الازرار والعروات [١]. لكن الدراعة ليست الزيّ الرسمي الخاص بالمناسبات وأيام المواكب ، والزى الرسمي لها هو القباء [٢]، وهو اشبه بالبدلة العسكرية ويتقلد الوزير السيف عندما يلبسه ، وهو ذو لون أسود وهو اللون الرسمي لدى العباسيين ايام المواكب [٣]. يوصف القباء على انه ثوب ضيق من الاعلى يشدّ الصدر حتى المنكبين ثم يتسع ، ويلفّ حول المنكبين زنّاران او ثلاثة اما الاكمام فضيقة وطويلة [٤]. ولا نستطيع ان نتعرف على الوجه الصحيح من هو اول وزير تزيّا به. تشير رواية للجهشياري الى ان اصحاب الدواوين كانوا احيانا يلبسون القباء والسيف ويعطي مثل عيسى بن يزدانيروذ الذى تقلّد نفقات الخاصة في وزارة الفضل بن الربيع للرشيد (١٧٨ — ١٩٣ هـ) يقول :" كان عيسى بن يزدانيروذ اول من لبس شاشية من الكتّاب. وكان سبب ذلك انه احتاج الى لبس القباء والسيف من اجل ما يتقلده من نفقات الخاصة. فلبس شاشية" [٥]. وتشير هذه

---

[١] انظر Dozy,R., Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les arabes (Amsterdam, 1845) (درّاعة)

[٢] انظر الصولي اخبار الراضي بالله والمتقي بالله (ترجمة M. Canard الفرنسية Alger, 1946) p. 163, no. 5.

[٣] الصابئ ، رسوم : ٧٤ رقم ١.

[٤] انظر Dozy (قباء).

[٥] الجهشياري، الوزراء : ٢٦١.

الرواية الى ان المتقلد لنفقات الخاصة كان يتزيا بزي الوزراء الذى هو اشبه باللباس العسكرى، لكن عيسى بن يزدانيروذ رأى ضرورة الاشارة الى صنعته والى انه ليس بوزير ولا بقائد فاضاف الشاشية الى الزيّ. والشاشية هي قلنسوة اى قبعة تغطي اعلى الرأس وقد اصبحت فيما بعد رسما للكتّاب وجزءا من زيّهم [١].

اما زى الكتّاب فهو يتألف اولا من جبّة ، ذلك حسبما يورده الجاحظ في رسالته عن الكتّاب حيث يقول:" يتوهم الواحد منهم (اى الكتّاب) اذا عرض جبّته وطوّل ذيله ، وعقص على خده صدغه ... انه المتبوع ليس التابع ..." [٢] الجبة لباس مفتوح على الصدر وكان الكتبة يلبسونها عريضة ، ويطولون ذيلها ، ولا نعرف اذا كان لها لون معين. كما اننا لا نعرف اذا كانت لبسة الكتّاب واحدة على مراتبهم اى اذا كانت لبسة اصحاب الدواوين هي ذاتها لبسة صغار الكتّاب والورّاقين. قد يكون الزى الاساسي هو نفسه ويضاف اليه بالنسبة لاصحاب الدواوين بعض الوشي والتنميق لكننا لا نستطيع ان نتحقق من ذلك. لكننا نستطيع ان نقول ان زي الكتاب لم يقتصر على الكتاب بل كان يتزيّا به من ليس من الكتّاب ، يقول الجهشيارى: "كان مخلد بواب ديوان الخراج ببغداد في خلافة الرشيد الى ان مات وكان يتزيّا بزي الكتّاب" [٣].

وكان لمشايخ الكتّاب زيّ خاص هو الطيلسان ولونه اخضر. والطيلسان حسب وصف دوزى طرحة توضع على الرأس فوق العمامة او على الكتفين ويكون من الموصلي [٤] ، ويرى دوزي ان الطيلسان هو لباس القضاة كما

---

[١] انظر الصابئ ، رسوم : ٤٣ — ٤٥.

[٢] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ١٩١.

[٣] الجهشيارى، الوزراء : ٢٦٣.

[٤] انظر Dozy (طيلسان).

ان القباء لباس الجند [١]. وتشير رواية اوردها الصابيء الى ان الطيلسان كان لباس الكتاب الذين تركوا الخدمة ، يقول الصابيء : " واما ابو المنذر النعمان بن عبد الله (كاتب علي بن عيسى) ، فقد تاب من خدمة السلطان ولبس الخفّ والطيلسان ، وحضر مجالس الوزراء بهما كما تحضر مشايخ الكتّاب" [٢]. وهذه الرواية تدور بعد خلع علي بن عيسى وتنصيب ابن الفرات في الوزارة سنة ٣٠٤ وقد خاف كاتب علي بن عيسى على نفسه فكان ان اعلن حياده ولبس الطيلسان دلالة على تركه الخدمة.

وقد يلبس الكاتب الطيلسان على سبيل التنكر او التواضع يقول الصابيء :" ووافى علي ابن عيسى من مكة في ايام وزارة ابي القاسم الخاقاني (حوالي سنة ٣٠٠)... للاشراف على مصر والشام. فدخل مصر وتحته حمار وعليه طيلسان" [٣]. فكان علي بن عيسى يتولى اذن الاشراف على مصر والشام وقد تزيا بهذا الزى اما تواضعا او رغبة بالدخول خلسة ليفاجيء عامل مصر.

واذا كان الخفّ حسب رواية الصابيء الاولى هو حذاء مشايخ الكتّاب الذين تركوا الخدمة فانه ايضا جزء من زيّ الكاتب العامل في الديوان. والخفّ هو الحذاء الفارسي الذى لا نعل له ولا رباط ، وهو عال يتعدى الكاحل ويستطيع الكاتب ان يضع فيه كتابا بل خنجرا [٤]. ويستحسن الا يكون لون الخفّ احمر [٥].

---

[١] انظر المصدر السابق (طيلسان).

[٢] الصابيء ، الوزراء : ٤١.

[٣] الصابيء ، الوزراء : ٣١٩.

[٤] انظر الصولي ، اخبار الراضي. p. 163, no. 6

[٥] يقول الصابيء (رسوم :٧٥):" ومما ينكر دخول الداخل الى دار الخلافة بنعل او خف احمر... لأن الاحمر لباس الخليفة وبعده الخوارج عن الطاعة".

ويشمل زيّ الكاتب تسريحته يشير الجاحظ في رسالته الى ان الكاتب كان يعقص على خدّه صدغه ، ويتحذف الشابورتين [١]. اما عقص الصدغ فهي تسريحة ترخى فيها النواحي حتى تصل الخدّ فتعقص عليه واما تحذف الشابورتين فقد اختلفت حوله الآراء يرى شارل بيلا ان فعل حذف مرادف لقصّ، وحذف الشابورتين اى قص الشعر على هيئة الرقم "٧" بحيث تسيل القصّة الى وسط الحاجب [٢]، بينما يرى سورديل ان الشابورتين تعني الطرحة التي توضع على الرأس وتشكل من الجانبين على الصدغين بحيث يسيل وسطها على الجبين [٣]. اما دوزى فلا يأتي على ذكر الشابورة وقد يدعم ذلك موقف بيلّا الذى قال ان الشابورة ليست من اللباس. واللحية ايضا جزء من حلية الكاتب وكان من المستحسن ان تكون كثيفة دون ان تكون طويلة [٤].

هذه هي المعلومات المتوفرة حول زى الكاتب وهي ليست وافرة لكنها تشير الى ان الزى كالسلوك كان يخضع لاصول معينة.

---

[١] الجاحظ، رسالة : ١٩١.

[٢] انظر Al-Gahiz, Une Charge contre les Secrétaires d'Etat, trad. Ch. Pellat in Hesperis, 1956, vol. 43, p. 34, n0. 12.

[٣] انظر البغدادى، كتاب الكتّاب p. 125, no.1. ويتبنى سورديل هذا المعنى لان تحذف الشابورتين وردت في مخطوطة البغدادى على انها "تحفف الشابورتين". واذا صح تفسير سورديل فان ذلك يخلق مشكلة بالنسبة لاعتلاء الشاشية الذى هو رسم لدى الكتّاب. هل توضع الشابورتان فوق الشاشية ام تنزع الشاشية وتحلان محلها ؟

[٤] انظر ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٨ — ٩.

V - ثقافة الكاتب

يحصّل الكاتب عادة معرفة معينة خاصة به وقد اشار عبد الحميد في رسالته الى المواد التي ينبغي ان يكون الكاتب ملما بها. ولم يحدد عبد الحميد معارف الكاتب نسبة لاختصاصه في حقل معين من حقول الكتابة، وذلك انه توجه في رسالته الى الكتّاب عامة وخاطبهم قائلا: " فتنافسوا، معشر الكتّاب في صنوف العلم والادب، وتفقّهوا في الدين، وابدأوا بكتاب الله عزّ و جلّ، والفرائض ثم العربية، واجيدوا الخطّ، فانه حلية كتبكم، وارووا الاشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها، ... ولا يضعفن نظركم في الحساب فانه قوام كتّاب الخراج منكم"[1]. فاذا نظرنا الى قول عبد الحميد وجدنا ان المعارف التي يحث الكاتب على التحلي بها تدخل في اطارين: الاول ما يحتاج اليه الكاتب للقيام بمهامه الادارية كاتقان اللغة العربية والخط والحساب. وفي هذا المجال يرى سوردیل انه كان ينبغي ان يكون الكاتب مؤهلا للقيام بأى عمل في اى ديوان. ان مثال الكاتب هو الذى يتقن على السواء كتابة الكتب ومساحة الارض وفرض الضرائب وتقريرها وتولي الانفاق على الجند والنظر في المظالم والمعاون بالاضافة الى الكتابة بعبارة سليمة وان يحسن التحرير[2]. اما الاطار الثاني فيدخل فيه ما يحتاج اليه الكاتب ليكوّن لنفسه "ثقافة عامة" هي ثقافة دينية تاريخية ادبية حسب ما يراه عبد الحميد. ونرى ان عبد الحميد اراد في تحديده لثقافة الكاتب ان يتخطى المعرفة المحصورة في نطاق العمل الادارى نحو معرفة لا تقيم مع الصناعة سوى روابط بعيدة وغير مباشرة. وتتصف هذه المعرفة الاخرى بالشمولية وتتناول معظم الآداب والعلوم بصورة نسبية وتجعل من الكاتب " موسوعة صغيرة" يمكن ان تشكل مرجعا عند الضرورة.

---

[1] الجهشيارى، الوزراء : ٧٥.

[2] D. Sourdel, Vizirat, vol II.p.568

ولقد حصّل فعلا عدد من الكتّاب هذا المستوى من المعارف، ويورد الجهشياري مثلا على ذلك في ابي ايوب الموريياني، كاتب المنصور، الذي كان يقول متحدثا عن نفسه: " ليس من شيء الا وقد نظرت فيه الا الفقه، فلم انظر فيه قط، وقد نظرت في الكيمياء والطب، والنجوم، والحساب، والسحر"[1]. وتعطينا "ثقافة" ابي ايوب لمحة عن معارف الكاتب، ونلاحظ ان الفقه لم يكن جزءا من هذه المعارف وقد يكون الفقه من ابعد الامور عن اهتمامات الكاتب، لا يحتاج اليه هذا الاخير الا في حال محاولته التوفيق بين احكام الشريعة واحكام الخراج في الواقع، وهذه كثيرا ما تكون متناقضة[2]. اما علم النجوم والسحر فيفيد منهما الكاتب شخصيا على سبيل التنبوء بمستقبل معين ينبغي ان يحترس منه. وتزدحم في كتاب الجهشياري تلك الروايات التي تدور حول معرفة الكاتب بقدره عن طريق مراقبة النجوم او تفسير الاحلام[3]. وكان الكاتب المنكوب يلتمس احيانا الخلاص عن طريق الرقيا والسحر[4]. ولا تهمنا هنا مدى فعالية هذه الاعمال بقدر ما يهمنا سبب انتشارها وهو ان الكاتب مهدد باستمرار في ماله ووظيفته وحياته.

---

[1] الجهشياري، الوزراء: ٩٧.

[2] يقول البطليوسي (الاقتضاب: ٨٠): "... ويمضي ضمان الثمار والغلات وابواب المال ولا يمضي ذلك الفقهاء لان تضمين الغلة قبل الحصاد ضرب من المخابرة التي نهي عنها وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها من بيع الغرر وبيع ما لا يملك ... و لاجل هذا رأى قوم من الكتّاب ان يجعلوا مكان تضمين الغلات تضمين الارض".

[3] يقول الجهشياري (الوزراء: ٢٧٩): " ولما خص الفضل بن سهل بالمأمون، وتبيّن نجابته ودلته النجوم على انه يلي الخلافة، طالبه بان يكتب له رقعة بخطّه ...".

[4] انظر الجهشياري، نصوص: ٦٦ـ ٦٧، وتدور الرواية حول ابن المدبر الذي سجنه الواثق فحلم بان الواثق سوف يموت بعد ثلاثين يوما فعمل على تسجيل حلمه لكي يتحقق، فكان ان تحققت الرؤيا واخلي سبيل ابن المدبر.

غير ان تحلي ابي ايوب بهذا المقدار من العلوم لم يكن القاعدة ونرى الجاحظ في رسالته يعيّر احد الكتّاب من اصحاب الدواوين باتقانه الحساب دون غيره من العلوم في قوله :" استقضى (اى الخليفة المأمون) على ديوان الخراج والجند ابراهيم الحاسب، والحسن بن ابي المشرف . فلقن ابراهيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ولم يفزع اليه في قضية ولا في رأى"[1].

ان الشمولية التي كان ينشدها عبد الحميد "لثقافة" الكاتب نادرا ما كانت امرا واقعا. واخفاق الكتّاب اجمالا في الالمام بشتى العلوم هوالذى حث ابن قتيبة مثلا على وضع كتابه في أدب الكاتب ليكون مرجعا يعول عليه هذا الأخير. يقول ابن قتيبة : "فاني رأيت كثيرا من كتاب اهل زماننا... قد استطابوا الدعة ، واستوطئوا مركب العجز، واعفوا انفسهم من كدّ النظر، وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة ، ولعمرى كان ذاك فاين همة النفس؟"[2] يحاول ابن قتيبة معالجة ظاهرة جهل الكاتب التي كانت متفشية في زمانه . وهذه المعالجة لا تأتي على صعيد القيام بالعمل الادارى في قلب الدواوين بل على صعيد الاتصال بصاحب السلطان والقدرة على احاطته بالامور التي ينبغي ادراكها. فالكاتب ينبغي ان يكون على اهبة الاستعداد للاجابة عن اى سؤال يبدر من الخليفة ، واذا عجز الكاتب عن الرد عدّ ذلك عارا عليه . يقول ابن قتيبة :" واى موقف اخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب اصطفاه بعض الخلفاء وارتضاه لسرّه ، فقرأ عليه يوما كتابا وفي الكتاب:" ومطرنا مطرا كثر عنه الكلاء ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلاء؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه ، ثم قال :

---

[1] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢ : ٢٠٤.

[2] ابن قتيبة ، ادب الكاتب : ٦.

لا أدرى"[1]. وتشير رواية ابن قتيبة على ان سؤال الخليفة لم يكن عن جهل بل عن معرفة ، فانه اراد ان يمتحن الكاتب، لكن الامر لم يكن كذلك دائما اذ كان السؤال من صاحب السلطان يأتي احيانا عن جهل، لذلك ينبغي ان يحتاط الكاتب في تحصيله المعارف لجميع ما قد يعترضه من امور يرغب صاحب السلطان في معرفتها.

ان علاقة الكاتب بالخليفة هي التي تقرر في المطاف الاخير تكوّنه الثقافي وليس قيامه بامور تصريف ديوان معيّن وحسب[2]، والخليفة يحوز على المعرفة اللازمة بشتى الامور بسبب توسط الكاتب، فالكاتب هو اذن صلة الوصل الضرورية بين السلطة والمعرفة وهو يصبح بذلك خزان معرفة يعوّل عليه الخليفة ويستعين بمعرفته. لهذا السبب ينبغي ان يعمل الكاتب على التكثر من المعارف وامتلاكها. وتصب جهود ابن قتيبة في هذا الاتجاه وتحث الكاتب على طلب العلم لكي لا يفسح المجال لغيره ممن لا ينسب الى السلطة بالتدخل في شؤونها. ان للسلطة الحق في معرفة الامور وللكتّاب امتياز اعلامها، وهذا من شأنه ان يجعل السلطة ترتكز على اسس علمية ادبيّة يفيد منها الكاتب في التحليل الاخير وتجعل المعارف على انواعها تصب في السلطة وتغذيها. ولا يمكن ان يتصف هذا النوع

---

[1] المصدر السابق:٧ ويروى ابن قتيبة حادثة اخرى تبرهن عن جهل الكاتب يقول (المصدر السابق:٧-٨):"ولقد حضرت جماعة من وجوه الكتّاب والعمال ... ودخل عليهم رجل من النخاسين ومعه جارية ردّت اليه بسنّ شاغية زائدة ،فقال:تبرأت اليهم من الشغا ،فردوها عليّ بالزيادة. فكم في فم الانسان من سن ،فما كان فيهم احد عرف ذلك،...فهل يحسن بمن ائتمنه السلطان على رعيته وأمواله... ان يجهل هذا في نفسه "

[2] لا يتناول كتاب ادب الكاتب تلقين الكاتب اصول الصناعة بل انه يهتم بالمعارف الجانبية. يقول ابن قتيبة (المصدر السابق:٩):"ولا بدّ له (اى للكاتب) مع كتبنا هذه ،من النظر في الاشكال لمساحة الارضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ،والمثلث المنفرج...".

من المعرفة بشكل عام بالحياد السياسي بل هو سلاح سياسي في ايدى الكتّاب يستمدون منه شرعية وجودهم في السلطة [١].

ان على الكاتب — حسب تصور ابن قتيبة — ان يكون ملما بالقرآن واصول الفقه واللغة وقواعدها ودلالة الالفاظ وعلم الكواكب والشعر. لكن هذه المعارف التي يحث الكاتب على التحلي بها يصفها بانها "كتبا خفافا" [٢] وضعها واعفاها من التطويل والتثقيل لان هدفها تعليمي. ان لفظة خفاف تشير الى المستوى الثقافي المتوسط الذى يتمتع به الكاتب رغم كل شيء وهو دون مستوى كبار العلماء والادباء اللغويين. تجتمع هذه المعارف تحت لفظة "ادب" وطالب الأدب هو الكاتب.

ونلاحظ ان ابن قتيبة يتفق مع عبد الحميد في حثه الكاتب التزود بالعلوم القرآنية والفقه الديني [٣] ذلك ان هذه العلوم كانت مهملة اكثر من غيرها وقد عبر ابن قتيبة عن ذلك في قوله :" وارفع درجات لطيفنا ان يطالع شيئا من تقديم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحدّ المنطق، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه" [٤]. وقد اشار الجاحظ كذلك الى اهمال الكاتب العلوم الدينية في قوله :"ومن الدليل على ذلك،

---

[١] يقول زبال(تكوّن:٤٤) :"نحن هنا بعيدون عن صورة الحكيم اليوناني الذى قد يبدو بحثه عن الخير والعلم بعيدا عن السلطة. للمعرفة في اليونان طابع التعميم والحياد السياسي وسهولة المنال وقابلية النقل(داخل المدارس الفلسفية)، هذا الطابع ينفي باطنية المعرفة التي تتحكم مثلا في كليلة ودمنة، فهذه مرتبطة بالسلطة تحتكرها طبقة معينة ولا تعلم".

[٢] ابن قتيبة، ادب الكاتب : ٨.

[٣] هذا ما لا نراه مثلا في كتاب صبح الاعشى الذى وضع موسوعة لا مثيل لها بالنسبة للكاتب تحوى التاريخ والجغرافية والخط وشتى العلوم لكنها لا تحوى على الفقه (انظر القلقشندى، كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩، ١٤جزء).

[٤] ابن قتيبة، ادب الكاتب : ٣.

انه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ، ولا علمه تفسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده ، ... وان آشر الفرد منهم السعي في طلب الحديث، والتشاغل بذكر كتب المتفقهين ، استثقله اقرانه ، واستوخمه الأفه "[1].

يعبّر الجاحظ في رسالته الكاتب باهمال القرآن والانكباب على التراث الساساني والمعرفة الفارسية في قوله :" ثم الناشيء فيهم اذا وطيء مقعد الرياسة ، وتورك مشورة الخلافة ... وروى لبرزجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع ادبه، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، ظن انه الفاروق الاكبر في التدبير"[2]. ولا شك ان الجاحظ يشير في هذا القول الى شعوبية الكتاب التي كانت شائعة في عصره. لكن لا شك ايضا ان هذه الكتب والمؤلفات التي تكلم عنها الجاحظ على اساس انها "معدن" ثقافة الكاتب هي كتب يحتاج اليها الكاتب لانها تدور حول بيئة الكتاب وعمل السلطان.

هذا هو رأي الجاحظ في "ثقافة" الكاتب ولا بد بعد الفراغ منه من الاشارة الى المؤلفات المتأخرة نسبيا والتي تناولت موضوع معرفة الكاتب كمثل "ادب الكتّاب" للصولي و"الاقتضاب في شرح ادب الكتّاب" للبطليوسي. ونلاحظ ان كلا المؤلفين تناول موضوع اتقان الصناعة ومعرفة اصولها اكثر مما تناول موضوع المام الكاتب بثقافة عامة. ولا نعرف ما اذا كان لهذا الامر دلالة معينة بالنسبة للمستوى الثقافي المطلوب من الكاتب.

ويرى الصولي ضرورة معرفة الصناعة على اكمل وجه وتعمق الكاتب في حقل اختصاصه وان يكون ذا ادب لان اتقان الصناعة " والادب " هما رصيد الكاتب الوحيد ، وهو يقول في هذا الصدد :"لا ينبغي لمن رفعته حال وساعده جد ، وهو يؤنس من نفسه تقصيرا

---

[1] الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ١٩٤.

[2] المصدر السابق ٢ : ١٩١ — ١٩٢.

في الادب، وتخلفا عن صناعة الكتابة ، ان يغترّ بحظه ، واقبال الايام عليه في وقت فانها دول منقلبة واحوال منصرمة"[١]. ويتكلم الصولي عن واقع اختبر فيه سرعة انقلاب الاحوال على الكاتب ونكبة الخليفة له. لذلك يعتبر اتقان الصناعة والكفاية التي يتمتع بها الكاتب من العوامل التي قد تحول دون التضحية به. وليس كلام الصولي عبثا، اذ نملك امثلة عديدة على كتّاب نجوا من السجن بل من الموت بفضل حاجة الخليفة الى معرفتهم لتستقيم امور الدولة ، مثل ابني الفرات[٢].

ولمعرفة الكاتب عند الصولي صفة تراكمية ، نعني بذلك انه من المفروض ان يكون صاحب الديوان، او رئيسه حاصلا على جميع المعارف التي تدخل في اختصاص ديوانه ، فمعرفة صاحب الديوان تتكون من مجموع معارف كتّاب ديوانه التي تضاف الى معرفته الخاصة ، وذلك لكي يستطيع الرئيس ان يصرّف امور ديوانه منفردا فلا يكون بذلك تحت رحمة احد الكتّاب. يقول الصولي في هذا الصدد :" ومع ذلك فان الاتباع اذا احسوا من الرؤساء بتفويض اليهم ، على قلة علم منهم واضطرار الى كفاءتهم ،... انتقل الامين عن مرّ الوفاء الى حلاوة الخيانة"[٣]. وتشير رواية الصولي بوضوح الى ان الكفاية مفتاح السلطة ، اذ يستطيع الكتّاب ان يفيدوا من معرفتهم ليتعدوا على صلاحيات الرئيس ويكون ذلك مقدمة للحلول محله. ان المعرفة قد تقرر النفوذ رغم ان اصحاب النفوذ لم يكونوا دائما من اصحاب المعارف[٤].

---

[١] الصولي ، ادب الكتّاب : ٢٥.

[٢] انظر ما سبق ص: ..١.

[٣] المصدر السابق: ٢٦.

[٤] يقول الجهشياري(نصوص:٧٦) :"سمعت ابا الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح يقول وقد جرى ذكر عبيد الله بن يحيى (بن خاقان وزير المتوكل) : "لم يكن له من الصناعة حظ، الا انه ايّد باعوان وكفاة من كتاب الزمان، وكان واسع الحيلة حسن المداراة".

اما البطليوسي فانه يربط معرفة الكاتب بطبيعة اختصاصه ، فكاتب الرسائل يحتاج حسب قول البطليوسي "... الى الاستكثار من حفظ الرسائل والخطب والامثال والاخبار والاشعار ومن حفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره"[1]. ويحتاج كاتب العقد او كاتب الحساب الى معرفة العمليات الحسابية من جمع وتفريق وتضعيف وتصريف ونسبة[2]. واذا كان كاتب عقد في مجالس الخراج "... فعليه ان يعرف احكام الخراج وما يجب رده على العمال من النفقات ومردود الجارى وما ينبغي ان يحتسب لهم به وان يعلم ما تحمد فيه آثار العمال وما تذم فيه آثارهم"[3]. ويضيف كاتب العقد في ديوان الاعطاء الى معرفة الحساب معرفته بحلى الجند ومراتبهم ، فيصف كل واحد منهم بحليته اى عمره وقامته ولونه وجبهته وعينيه وانفه واسنانه وشفته ، ثم يصف شيات الخيل وصفاتها[4] ، وذلك كله يؤهله لتحديد مرتبات الجند[5]. اما كاتب ديوان الخراج فتكمن معرفته في تحديد

---

[1] البطليوسي ، الاقتضاب :٦٨.

[2] والتصريف هو التثمين ، تثمين الورق بالنسبة للعين والعين بالنسبة للورق (المصدر السابق:٧٠) وكانت العمليات الحسابية تتم بالعد على الاصابع وعلى مفاصل الاصابع. ويضيف البطليوسي (المصدر السابق:٧٠): "وان خفت ايديهم في العقد والحساب واسرعت كان ذلك أنبل لهم وأزيد في كلامهم".

[3] المصدر السابق: ٧١.

[4] المصدر السابق:٧١. ويعالج ابن قتيبة في ادب الكاتب مسألة صفات الخيل وعيوبها في فصل كامل وقد يكون ذلك لتلقين كتّاب ديوان الاعطاء.

[5] يصف الصابيء (الوزراء :١٣) كيفية تحديد مرتبات الجند. يخضع الجند عامة لامتحان في الرماية وركوب المطية ويسجل مستواهم بجيّد او وسط او دون الوسط وذلك في حضرة الخليفة والوزير ، ويقرر كاتب الاعطاء ارزاق الجند على اساس نتيجة الامتحان.

وجوه الاموال اى الفيء والصدقة والغنيمة واحكام كل منها [١]. وينبغي على كاتب المعاون ان يكون عارفا بالحدود والعقوبات الخاصة بالجنايات والفتن [٢].

هذه هي المعارف الأولية التي ينبغي ان يحصلها الكاتب والتي تسمح له باتقان صناعته. ونرى كيف تطور مفهوم المعرفة وتغير عن مفهوم عبد الحميد واصبح المؤلفون ينشدون الاختصاص الادق على حساب الثقافة العامة والمعرفة الشاملة.

لقد اكثر المؤلفون عامة من وصف الامور التي ينبغي ان يكون الكاتب ملما بها لكنهم لم يصفوا لنا كيف كان الكتّاب يتعلمون هذه الصناعة وأين. ولا يذكر التاريخ ان كانت هناك في العصور التي ندرسها مؤسسات مهمتها تأهيل الكاتب لامتهان هذه الصناعة، لذلك نرجح ان يتم تلقين الكاتب في قلب الدواوين وكان يساعد على ذلك كون الصناعة وراثية في بعض الاحيان [٣]، فيتدرب الابن على يدى والده وهذا امر اشار اليه الجهشيارى منذ العصر الاموى في قوله :" وكان قحذم (كاتب هشام بن عبد الملك على الخراج) يعيب صالح بن عبد الرحمن (كاتب هشام) لتعظيمه ابنه، واعتماده في الامور عليه، فصنع قحذم بابنه مثل ما عاب" [٤]. ان هذه الرواية واضحة في الاشارة الى تدريب الآباء للابناء. لكننا لا نستطيع ان نصدر حكما قاطعا بان الصناعة كانت تلقن في الدواوين دائما. ولقد اشار ابن قتيبة الى ان تلقين الكاتب كان يتم بصورة نظرية "في الدفاتر" [٥]، ونعرف ان معنى

---

[١] البطليوسي، الاقتضاب : ٧٩.

[٢] المصدر السابق: ٨١.

[٣] انظر ما سبق ص: ١٠٩.

[٤] الجهشيارى، الوزراء : ٦٤.

[٥] ابن قتيبة، ادب الكاتب: ٩ — ١٠.

الدفاتر يدخل في اطاره الوثائق الموجودة في الديوان [1] مما يشير الى ان الكاتب كان يتعلم في الديوان. ويرى ابن قتيبة في ذلك مأخذا على الكاتب وقد عبّر عن ذلك في قوله : "لا بدّ له (اى للكاتب) ... ان يمتحن معرفته بالعمل في الارضين، لا في الدفاتر، فان المخبر ليس كالمعاين" [2].

وتبقى في جميع الاحوال قضية تلقين الكاتب معلقة بانتظار ان تتوفر لدينا معلومات اكثر حول هذا الموضوع.

---

[1] انظر الجهشياري، الوزراء : ٨٩.

[2] ابن قتيبة ، ادب الكاتب : ١٠.

خاتمـــــــــــــة

فقد عرف العرب الكتابة في مجال التنظيم الاداري منذ العصر النبوي وترقى الخطوة الحاسمة في ذلك المجال الى خلافة عمر بن الخطـــاب وتأسيسه ديوان الجند. وقد أدت الفتوحات التي قامت بها القبائـل الاسلامية الى ضرورة تنظيم هذه الامصار اداريا. وتم ذلك في خلافـة معاوية مع تأسيسه ديواني الخراج والبريد اللذين توفرا في جميـع الولايات تقريبا. اما الجهاز الاداري فكان يتشكل من كتّاب عـــرب واعاجم: الكتّاب العرب يتولون كتابة الرسائل والكتّاب الاعاجـــم — اي الموالي — يتولون دواوين الخراج. وقد تأمنت مع بقاء بعـض الكتّاب الفرس في مناصبهم مسألة جباية الضريبة، لكن ادى ذلـــك ايضا الى استمرار هيمنة اعجمية حتى ان بادر الخليفة عبد الملـك ابن مروان الى تعريب الدواوين. وقد ادى التعريب الى جعل اللغـة العربية لغة رسمية في الادارة كما ادى الى زعزعة وضع الكتّـــاب الموالي واستبدال كتّاب منهم بكتّاب عرب، لكن هذه التدابيـــر استغرقت مدة طويلة واستمرت آثارها حتى مطلع العصر العباســـي تقريبا. وكان للكتّاب في انتقال الأمر الى بني العباس دور يلعبونه وتحالفات اقاموها مع الامويين او مع خصومهم لكنهم كانوا فـــي التحليل الأخير يطالبون باستتاب أية سلطة شرعية تؤمن لهـــم مناصبهم الادارية. وتميّز مطلع العصر العباسي باتجاه السلطـــة الادارية نحو المركزية وذلك بتقوية الجهاز الاداري في المركـــز بحيث تخضع له الاطراف وتصل الضريبة كاملة الى مركز الخلافة. وقـد استحدثت لهذا الغرض عدة دواوين تمتعت باختصاص دقيق وقامـــت بالحسابات اللازمة لضبط محصول الضريبة وطريقة انفاقه. لكـــن الجهاز الاداري لم يبلغ صيغته النهائية — من حيث عدد الدواويـن — قبل مطلع القرن الرابع.

لقد ادى بلوغ الجهاز الاداري هذا المستوى من التعقيد الـــى تغير أساسي في مهمة من يتولى المرتبة الثانية في الدولـــة (أعني الوزارة) كان الوزير بادئ ذي بدء هو الشخص الملازم للخليفة يعاونه على تصريف الشؤون الادارية ويكون بمثابة مستشاره في الامور السياسية وقد يكون كاتبا كما كان في معظم الاحوال. لكن صفـــة

الكتابة لم تعد ضرورية فيما بعد عندما تولى الوزير فعليا رئاسة دواوين الادارة. وقد مرّ تطور المرتبة الثانية — بعدة مراحل — نذكر من بينها منافسة القادة العسكريين الكتّاب على تسيير الامور الادارية، وتدخلهم بالشؤون الادارية بصورة شبه مستمرة مما أدى الى زعزعة نفوذ الكتّاب في جهاز الادارة المركزي. لكن ازدياد عدد الجنود والغلمان الاتراك جعل القادة العسكريين يعون حقيقة واضحة هي ضرورة تأمين الارزاق للجند لتلافي الفتنة التي قد تحدث من جراء تأخيرها. واختار القادة امام هذه المشكلة ان يدعموا الجهاز الاداري والكاتب القيم عليه اي الوزير. من هنا استمدت الوزارة قوتها في الفترة الأخيرة وبلغت اوجها مع ابن الفرات وعلي بن عيسى الوزيرين. غير انه ما لبث ان استولى القادة العسكريون على معظم موارد الضريبة وذلك بتصرفهم بقطائع واسعة يجبون ضريبتها وينفقون من مالها على جنودهم، مما أدى الى ضعف الجهاز الاداري لان هذا الجهاز يستمد قوته ونفوذه من قدرته على التحكم باموال الضريبة والتصرف بها. نضيف الى ذلك الضعف الذي اصاب الوزارة في مطلع القرن الرابع من جراء تغيير الوزارة بصورة مستمرة وتغيير الجهاز الاداري مع ما يرافق هذا التغيير من تنكيل بالعاملين في الادارة وقتل وتعذيب ومصادرة. وكانت فترة عدم الاستقرار هذه هي المقدمة لتولي امير الامراء المرتبة الثانية بدل الوزير.

لم ينعكس تطور الجهاز الاداري الذي بدأ في العصر العباسي على المرتبة الثانية المتمثلة بشخص الوزير وحسب بل انعكس على الكتّاب انفسهم اذ تكونت طبقة الكتاب في المركز او الحضرة حيث الادارة المركزية. ولم يكن يجمع الكتّاب المنتمين الى هذه الطبقة ديانة واحدة أو نسب واحد انما يجمعهم امتهانهم صناعة الكتابة. لكننا نستطيع ان نقول ان الكتّاب هم المسؤولون عن اللون الفارسي الذي طبع المأكل والملبس ونمط الحياة اجمالا في دار الخلافة وان بعضهم كان من دعاة الشعوبية.

ويقع الكتاب في قلب طبقتهم في مراتب حسب اختصاصهم فهنالك اولا رئيس الديوان ثم الكتّاب العاملون في الديوان وهؤلاء ايضا

يقعون في مراتب . وتتنوع ارزاق الكتاب بتنوع مرتبتهم لكن الكتّاب كانوا بالاضافة الى ذلك يجنون اموالا في بعض الاحيان بصورة غير قانونية .

اما امتهان الكتّاب لصناعتهم فقد خضع لاصول معينة . كان الكتّاب يستخدمون ادوات مخصصة للكتابة ويكتبون على مواد معينة جرى اقتصاصها حسب قياسات محددة . ثم انهم عالجوا ادواتهم الكتابية بصورة خاصة وذلك فيما يتعلق ببراية القلم والاستمداد والتدريب والسحاية والتطيين وغيرها من الامور المتعلقة بالكتابة وكانوا يكتبون بخطوط تختلف باختلاف النص

اما اخراج الكتب فانه خضع ايضا لاصول معينة تتعلق بالتصدير والعنونة والدعاء والتأريخ. وكما كان لاخراج الكتب اصول محددة كذلك كان الامر بالنسبة للكاتب الذى املت عليه صناعته اعتناء بمظهره الخارجي ، واختياره ملبسه ، وضبطه سلوكه العام وكلامه ، واستخدامه آلته على اكمل وجه رغبة في مراعاة صاحب السلطان ، واحتراسا من الاعداء المتربصين له . اما ثقافة الكاتب فكان ينبغي ان تكون شاملة وان تتعدى معرفته بالصناعة نحو المامه بامور اخرى تتعلق بالادب واللغة وعلم الحيوان والمعارف اجمالا دون اهمال العلوم الدينية .

المصادر العربيـــــة

الاحكام السلطانية للماوردي، مطبعة الوطن، مصـر، ١٢٩٨٠

الادب الصغير، (لابن المقفع) في رسائل البلغاء، تحقيق محمد كرد علي، الطبعة الرابعة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤، ٤ — ٣٧٠

ادب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية، مصـر، ١٩٥٨٠

الادب الكبير، (لابن المقفع) في رسائل البلغاء، تحقيق محمد كرد علي، الطبعة الرابعة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤، ٤٠ — ٧٠٠

ادب الكتّاب للصولي، تحقيق محمد بهجت الاثري، المكتبة العربية ببغـداد، ١٣٤١٠

الاقتضاب في شرح ادب الكتّاب للبطليوسي، تحقيق عبد الله البستانـــي، قلفاط وميداني، بيروت، ١٩٠١٠

الاوائل للعسكري، تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، ١٩٦٦٠

البيان والتبيين (١ — ٤) للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعـــة الاولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ٤٨ — ١٩٥٠٠

تاريخ الرسل والملوك (١—١٠) للطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيـم، دار المعارف بمصر، ١٩٢٨٠

تاريخ اليعقوبي، تحقيق مارتن تيودود هوتسما، ليدن، ١٨٨٣٠

تجارب الامم وتعاقب الهمم (١ — ٢) لمسكويه، تحقيق امدروز، مطبعة شركـــة التمدن الصناعية، مصر، ١٩١٥٠

تحفة الامراء في تاريخ الوزراء للصابيء، تحقيق امدروز، مطبعة الآبـــاء الكاثوليكيين، بيروت، ١٩٠٤٠

خاص الخاص للثعالبي ، تحقيق حسن الأمين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، ١٩٦٦.

الخراج لأبي يوسف، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٩٦.

الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر، تحقيق دوخويه في كتاب المسالك والممالك لابن خردذبه ، طبعة ليدن، ١٣٠٦.

رسالة الى ولي العهد لعبد الحميد الكاتب في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٥٤ ، ١٧٣ — ٢١٠.

رسالة الصحابة لابن المقفع ، في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ١١٧— ١٣٤.

الرسالة العذراء لابن المدبر ، تحقيق زكي مبارك ، الطبعة الاولى ،مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١.

رسالة في ذمّ اخلاق الكتاب للجاحظ ، في رسائل الجاحظ(٢) ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٥.

الرسالة في علم الكتابة للتوحيدى في رسائل التوحيد ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٥١.

رسوم دار الخلافة للصابىء ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤.

صبح الاعشى في صناعة الانشا (١-١٤) للقلقشندى، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٩.

الصداقة والصديق للتوحيدى، شرح وتعليق علي متولي صلاح ، مكتبة الآداب، مصر ، ١٩٧٢.

الصلة في تاريخ الطبرى لعريب، تحقيق دوخويه ، ليدن، ١٨٩٧.

عهد اردشير، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

فتوح البلدان (١-٣) للبلاذرى، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٦.

الفرج بعد الشدة (١ — ٥) للتنوخي ، تحقيق/عبود الشالجي ،دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

قانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي ، عني بنشره علي بهجت ، الطبعة الاولى ،مطبعة الواعظ، القاهرة ، ١٩٠٥.

الكامل (١ —١٣) لابن الاثير، تحقيق تورنبرغ ، دار صادر ودار بيروت، بيروت ، ١٩٦٥ — ٦٦.

كتاب العرب او الرد على الشعوبية لابن قتيبة في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ٣٤٤ — ٣٧٧.

كتاب الكتّاب لابن درستويه ، تحقيق ابراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي ، الطبعة الاولى ، دار الكتب الثقافية ، الكويت، ١٩٧٧.

كتاب الكتّاب وصفة الدواة والقلم/ البغدادى، تحقيق دومينيك سورديل في Bulletin d'Etudes Orientales,1952-54,vol.14, pp. 131-148

لسان العرب (١ —١٥) لابن منظور، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٥— ٥٦.

معجم الادباء (١ —٩) لياقوت، تحقيق د.س مرجليوث، الطبعة الثانية ، مطبعة هندية ، القاهرة ، ١٩٢٣.

معجم البلدان (١ —٥) لياقوت، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ —٥٧.

نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري، تحقيق ميخائيل عواد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤.

الهوامل والشوامل لمسكويه، تحقيق احمد امين والسيد أحمد صقر، القاهرة، ١٩٥١.

الوزراء والكتّاب للجهشياري، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الايباري، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الاولى، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨.

المراجع العربية الحديثة

تكوّن الكتاب العربي لفرنسوا زبال، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٧٧.

الجذور التاريخية للشعوبية لعبد العزيز الدوري، الطبعة الاولى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٢.

دير قنّى لميخائيل عواد في مجلة المشرق، ١٩٣٩، ٣٧: ٩٨ — ١٨٠.

صناعة الورق وصحف الكتابة في الاسلام لحبيب زيات، في مجلة المشرق، ١٩٥٤، ٤٨: ٣ — ٣٠، ٤٥٨ — ٤٥٩.

الصوالي في العصر الاموي لمحمد طيّب النجار، الطبعة الاولى، دار النيل للطباعة، القاهرة، ١٩٤٨.

نظرة جديدة في بعض الكتب المنسوبة لابن المقفع لاحسان عباس، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٧، مجلد ٥٢، جزء ٣.

المراجع الاجنبية

Aghnidès, N.P., Mohammadean Theory of Finance, New-York, 1916.

Allouche,S., "Un traité de Polémique christiano-musulmane" in Hespéris, 1939, Tome 26, pp. 129-133.

Amedroz, "Abbassid Administration and its Decay", in the Journal of th Royal Asiatic Society, 1913, pp. 823-837.

Cahen, Claude, Islam I, Bordas, Histoire Universelle, Paris, 1970.

Al-Douri, Abdel Aziz, "Diwān", in EI^2 ,vol. II, pp.333-336.

Dozy,R., Dictionnaire détaillé du nom des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

Al-Gāhiz, Une Charge contre les secrétaires d'Etat, trad. Ch. Pellat in Hespéris, vol.43, pp. 29-47.

Grignaschi,H., "rasā'il aristāṭālīsa 'ila l-iskandar", in Bulletin d'Etudes Orientales, 1965-66, vol. 19, pp. 7-83.

Lammens, Henri, Calife Omayyade Mo'âwia, Extraits des Mélanges de l'université St. Joseph, Beyrouth, 1908.

_____ Etudes sur le siècle des Omayyades, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1930.

Lombard, Maurice, Monnaie et histoire d'Alexandre à Mahomet, Mouton, Paris,1971.

Pellat, Charles, "Gahiz à Baghdād et à Samarrâ", in Revista degli Studi Orientali, 1952, vol. 27, pp. 47-69.

Planhol, Xavier de, Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, Flammarion, Paris,1968.

Sourdel, Dominique, "Hādjib" in EI^2 , vol.III, pp. 47-48.

_____ Vizirat Abbasside, 2 Tomes, Damas,1956.

As-Sūli, Aḫbār Ar Rādî billāh wa-l Muttāqî billah, trad. de M.Canard, Tome I, Alger, 1946.

Tyan, Emile, Institutions du droit public musulman, Liban, 1954-56.

فهرس المحتويات

نظرة في المصادر والمراجع

الفصل الاول : تكون الجهاز الاداري في الدولة الاسلامية حتى نهاية العصر الاموي.

I-مقدمة ١

II-نشأة الادارة الاسلامية ٢
أ ـ كتابة الرسائل ٦
ب ـ كتابة الخراج ٩
ج ـ التعريـــب ١٢

III- الوضع الاجتماعي السياسي للكتاب الديوانيين ١٦

الفصل الثاني : تطور الجهاز الاداري في العصر العباسي وأثره في ظهور المرتبة الثانية (الوزارة)

I- الدواوين الحادثة في العصر العباسي ٢٣
أ ـ اتجاه الادارة نحو المركزية ٢٣
ب ـ تعداد الدواويـــن ٢٨
ج ـ نماذج من ترتيب الديوان ٣٦

II- المرتبة الثانية (الوزارة) ٤١
أ ـ الاقطاب المتنافسة على المرتبة الثانية .. ٤١
١ـ الكاتـــب ٤٣
أ ـ الكاتب رئيس الدواوين ٤٣
ب ـ كاتب وليّ العهد ٥١
٢ـ الحاجـــب ٥٦
٣ـ القائد العسكـــري ٥٨
أ ـ حلول القائد العسكري في المرتبة الثانية ٥٨
ب ـ دور القائد العسكري في الصراع القائم في فئة الكتاب ٦٢
ب ـ شكل الصراع على المرتبة الثانية : حيلة الكاتب ٦٥
ج ـ دور الوزير: المشورة والنصيحة ٧٦
د ـ مصير الوزير: الصرف والنكبة ٨٤

III-دور الجهاز الاداري في التوازن الاجتماعي ٩٧

الفصل الثالث : طبقة الكتاب وامتيازاتها

I-تكون طبقة الكتاب ١٠٥
II-مذهب الكاتب ١١٤
III-مراتب الكتّاب ١٢٠
أ ـ ارزاق الكتاب ١٣٢
ب ـ كسب الدسيس ١٤٢

الفصل الرابع : صناعة الكتابة وتكوين الكاتب الاخلاقي والثقافي

I- آلة الكتابة ١٥٥
II- قانون الكتابة ١٦٠
III- سلوك الكاتب واخلاقه ١٧٧
IV- زيّ الكاتب ١٨٨
V- ثقافة الكاتب ١٩٤

خاتمة ٢٠٤

المصادر العربية ٢٠٧

المراجع العربية الحديثة ٢١١

المراجع الاجنبية ٢١٢